

تفسير

الشعراوة

المجلد العاشر

من الآية ١٥ « سورة يونس » الى الآية ٢٧ « سورة هود »

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد علم الواقع ، لا علم الحصول .

إذن : فذكر كلمة ﴿وَلَيَعْلَمَ﴾ وكلمة ﴿لَنَنْظُرَ﴾ في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشاهد ، وعلم حُجَّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق :

﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي : رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسول ، فقال : ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتي بالحديد^(١) الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلم الله سبحانه هنا علم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خيراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفي هذا لون من الاحتياط الجميل .

وقوله : ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوى وعزيز . فهو القائل :

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع في يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ إنما يعنى : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصرةً منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّتْ عدَّتْهم ، وقلَّ عددهم .

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ .. (١٤) ﴾ [يونس]

أى : نظر واقع ، لا نظر علم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيَّنَّتْ لِأَلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ يَفْرَهُ أَنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسمىها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية : العبرة ، والآية : المعجزة أو الشئ العجيب . والجمع : آيات ، وأى . قال تعالى : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] ، والآيات هنا : الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقبوميته . [لسان العرب : مادة (أيا) . . . بتصرف] .

(٢) التَّلْقَاءُ : مصدر لَقِيَ . يقال : يسرنى تلقاؤك أى : لقاءك . ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة .

سُورَةُ الْاِنشِرَاقِ

٥٧٩٧

فى الذكاء أو الجمال أو الخلق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٢٧) [فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴾ (٢١) [الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شىء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلاً يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كالألمكنهم الحق - عزَّ وجلَّ - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيهم^(١) ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩) [الأنبياء]

(١) الغى: الضلال . غَوَى غَيًّا وَغَوَايَةً: أَمَعَنَ فى الضلال ، قال تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (٦) [النجم] وتغارى القوم: تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغواه بالأمانى الكاذبة: طلب غيِّه وأضله . وقال تعالى: ﴿ لَا تَكْرَاهِىَ الدِّينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) .. بتصرف].

وهكذا تتجلى أمامهم خبيثتهم .

إذن : الآيات تُطلق على الآيات الكونية ، وتطلق على الآيات المعجزات ، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴾ (١٥)

[يونس]

أى : آيات واضحة . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾

وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة . ومقابل الرجاء شيء آخر محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالته ، وهو التمنى ، فالمحبيبات - إذن - قسمان : أمور مُتمنّاة وهى فى الأمور المستحيلة ، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثانى أمور نحبها ، ومن الممكن أن تقع ، وتسمى رجاء .

﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ هم من لا يؤمنون ، لا ياله ، ولا بيعت ؛ فقد

قالوا :

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢٤)

[الحاثية]

(١) الدهر : الزمان الطويل ، ومدة الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ [الإنسان] . وقال ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » ومعناه : أن ما أصابك من الدهر ، فالله فاعله وليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر ، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون . [لسان العرب مادة (دهر) - بتصرف] .

وقالوا:

﴿ أَئِنَّمَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيفاجأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ^(١) يَاقِيعَةٍ ^(٢) يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

السراب: هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول:

(١) السَّرَابُ: ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كما ماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمِّي السراب سراياً لأنه يسرب سروراً ، أى: يجرى جرياً ، أى: يتحرك حركة تخدع الرائي من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه وجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء .

(٢) القِيعَة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفراء: القِيعَة جمع القاع ، والقاع: ما انبسط من الأرض . قال تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه] . [اللسان: مادة (قوع) .. بتصرف] .

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأُنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ

[السجدة]

كَاْفِرُونَ ﴿١٠﴾

رغم أن الكون الذي نراه يُحتمُّ قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شيء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيتها ، ويضع منها اللون ، ثم تصير تراباً . وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التي تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة . وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سنوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هي بعينها ؛ لم تزد ولم تنقص . وقد شرحنا ذلك من قبل . وكل شيء تتفجع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هداماً وبناءً .

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه ^(١) ؛ لأن النظر فى الكون وتأمل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

(١) ضللنا فى الأرض : قال أبو منصور : الأصل فى كلام العرب أن يقال : أضللت الشيء إذا غيبتَه ، وأضللت الميت : دفنته . فالضلال من معانيه : الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد . ومن معانيه : التغييب والدفن . فكانهم يقولون : « إذا دُفِنَّا وَغُيِّبْنَا تَحْتَ الْأَرْضِ . . . فهل نحيا من جديد ؟ » فيرد عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الروم] . [لسان العرب : مادة (ضلل) - بتصرف] .

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف] [يوسف] ويقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء] .

[الأنبياء]

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾

وهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يأتى القرآن بما جاء على ألسنتهم: ﴿ ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٠٥) ﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طليين: ﴿ ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ ، ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلاحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان .

﴿ ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل . والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير^(٢) .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي ﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن آتى بقرآن غير هذا أو أبدله » ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل . ولكن التبديل هو الأمر السهل . وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاءَ عُرَاةٍ عُرُلًا: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم .

(٢) وهذا يتفق مع ما قانه القرطبى فى تفسيره (٣٢٤٥ / ٤) لهذه الآية . قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً . قاله ابن جرير الطبرى .

الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب ألتهتهم وتسفيه أحلامهم . قاله ابن عيسى .

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور . قاله الزجاج .

الأسهل ؛ ليسلموا أن طلب الأصعب منفي بطبيعته .

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾
 أى : أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ . بل
 بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً .
 إذن : فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق
 سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ^(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾
 و﴿ تَلْقَاءِ ﴾ من «لقاء» ؛ فتقول : «لقيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس
 الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا : الجهة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ^(٣) .. (٢٢) ﴾

[القصص]

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلَ (٤٣) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٤) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٥) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأمانته .
 (٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ .. (٧٨) ﴾ [الحج] ويقول تعالى : ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا نَاتَ بَخِيرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا .. (١٠١) ﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع :

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة : كان فيما أنزل «عشر رضعات معلومات فتسخن بخمس معلومات» .

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى .

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية . انظر : الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧) .

(٣) مَدْيَنَ : اسم قرية شعيب - عليه السلام .

و«تَلْقَاءَ مَدِينٍ» أَي: جهة مدين. و«التلقاء» قد تأتي بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أَي : أنا وفلان التقينا في مكان واحد ، وحين نتوجه إلى مكان معين فنحن نُوجَدُ فيه. ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتي لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول: لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ ^(١) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال: «أخذ فلان شطر ماله» ، أَي: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أَي: إلى جهة كذا. وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف في أي مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهي بالأفق.

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهي حين يُخَيَّلُ لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذي يخصُّك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق.

ويقال: «فلان ضيق الأفق» أَي: أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف في مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مرآء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئي ، وخلفك نصف الكون المرئي الآخر ، فإذا قيل: إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة».

(١) شَطْرُ الشئِ: ناحيته ، وشَطْرُ كل شئٍ: نحوه وقصده ، وقصدتُ شَطْرَهُ أَي: ناحيته. «وشَطْرُ المسجد الحرام»: نحوه وتلقاه. قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]. وشَطْرُ الشئِ: نصفه ، والجمع: أشطُر ، وشَطُور. وشَطْرْتُهُ: جعلته نصفين. وشاطره ماله: ناصبته. وفي الحديث: أن سعداً استأذن النبي ﷺ أن يتصدق بماله كله ، قال: «لا» قال: فالشَطْر ، قال: «لا» ، قال: الثلث ، فقال: «الثلث ، والثلث كثير». وفي الحديث: «الطهور شَطْرُ الإيمان» أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطهور يظهر بحاشية الظاهر. [لسان العرب: مادة «شَطْرَ» - بتصرف].

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أى: أنه ﷺ لا يأتي بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه .
ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى: أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففي هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً . وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن في منتهى البلاغة .

وقد نزل الوحي ورسول الله ﷺ في الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبي ﷺ قد أجل عبقريته إلى هذه السن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر .

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتبع إلا ما يُوحَى إليه فيقول:

﴿إِنْ أَتَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالردّ من الحق سبحانه على الكافرين:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن يتحلل^(١) كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلغكم أن كمال القرآن ليس من عنده ، بل هو مجرد مبلغ له ، وكان يجب أن يتعقلوا تلك القضية بمقدماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان^(٢) ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً^(٣) .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يونس]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم^(٤) ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (١٦٤)

[آل عمران]

أى : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مَنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى : من أمة العرب ، لا من أمة العجم ، أو ﴿ مَنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى : من قبيلتهم التي يكذب أصحابها رسول الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يغب عنكم فترة ؛ لتقولوا

(١) يتحلل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحله القول : نسبه إليه . ونحل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قيل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان : عنان اللجام : السير الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعتة . والعنان : الخيل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالبعير الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرخيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للدواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضل صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضل . [لسان العرب : مادة عنن] - [تصرف] .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْتَلُونَ ﴾ (٤٨) [العنكبوت] .

(٤) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧٨) [التوبة] .

بُعْثَ بَعْثَةً ؛ لِيَتَعَلَّمَ عِلْمًا مِنْ مَكَانٍ آخَرَ ، وَلَمْ يَجْلِسْ إِلَى مَعْلَمٍ عِنْدَكُمْ وَلَا إِلَى مَعْلَمٍ خَارِجِكُمْ ، وَلَمْ يَنْتَلُ كِتَابًا ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَيَجِبُ أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ هَذَا مَقْدَمَةً وَتَقُولُوا : فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ لَهُ هَذِهِ الْحِكْمَةُ فَجَاءَةٌ ؟

أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَوَاهِبَ وَالْعَبَقِيرِيَّاتِ لَا تَنْشَأُ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ ، وَلَكِنْ مَخَالِيلُ الْعَبَقِيرِيَّةِ إِذَا تَنْشَأُ فِي نَهَايَةِ الْعَقْدِ الثَّانِي وَأَوَائِلِ الْعَقْدِ الثَّلَاثِ ، فَمَنْ الَّذِي أَخَّرَ الْعَبَقِيرِيَّةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ الْبَلِيغَ الَّذِي أَعْجَزَكُمْ ، وَأَنْتُمْ أُمَّةُ الْبَلَاغَةِ وَأُمَّةُ الْفَصَاحَةِ الْمُرْتَاضُونَ ^(١) عَلَيْهَا مِنْ قَدِيمٍ ، وَعَجَزْتُمْ أَمَامَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟

كَانَ يَجِبُ أَنْ تَقُولُوا : لَمْ نَعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، فَإِذَا حَلَّ لَكُمْ اللَّغْزُ وَأَوْضَحَ لَكُمْ : أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِي ؛ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَصَدَّقُوهُ ؛ لِأَنَّهُ ﷺ يَعِزُّوهُ إِلَى خَالِقِهِ وَرَبِّهِ سُبْحَانَهُ . وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّكُمْ مُضْطَرَّبُونَ فِي الْحُكْمِ أَنَّكُمْ سَاعَةَ يَقُولُ لَكُمْ : الْقُرْآنَ بِلَاغٍ عَنِ اللَّهِ ، تَكْذِبُونَهُ ، وَتَقُولُونَ : لَا ، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِكَ ، فَإِذَا فَتَرَ عَنْهُ الْوَحْيَ مَرَّةً قَلْتُمْ : قَلَاهُ ^(٢) رَبُّهُ .

لِمَاذَا اقْتَنَعْتُمْ بِأَنَّ لَهُ رَبًّا يَصِلُهُ بِالْوَحْيِ وَيَهْجُرُهُ بِمَا وَحَى ؟

أَنْتُمْ - إِذَنْ - أَنْكَرْتُمْ حَالَةَ الْوَصْلِ بِالْوَحْيِ ، وَاعْتَرَفْتُمْ بِالْإِلَهِ الْخَالِقِ عِنْدَمَا غَابَ عَنْهُ الْوَحْيُ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ تَنْتَبِهُوا وَتَعُودُوا إِلَى عَقُولِكُمْ ؛ لِتَحْكُمُوا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الْأَمْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ :

(١) الْمُرْتَاضُونَ : الَّذِينَ لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ ، قَدْ ذَلَّتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَلَى الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ .

(٢) قَلَاهُ رَبُّهُ : أَبْغَضَهُ وَتَرَكَهُ . وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى] .

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُونَ أَفْلَامَهُمْ ^(١) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ (٤٤) ﴿ [آل عمران]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ^(٢) إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ .. ﴾ (٤٤) ﴿ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا ^(٣) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. ﴾ (٤٥) ﴿ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٤٨) ﴿ [الأنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدمات ؛ لتحكموا بأنه صادق في البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها بقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة في أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

(١) أفلامهم : سهامهم ، وقيل : أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة . قال الزجاج : الأقلام هنا : القداح . وهي قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القرعة ، وإنما قيل للسهم : القلم ؛ لأنه يُقْلَمُ ، أي : يُبْرَى . وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قَلَمْتَهُ ، من ذلك القلم الذي يكتب به ، وإنما سُمِّيَ قَلَمًا ؛ لأنه قَلِمَ مرة بعد مرة ، ومن هذا قيل : قَلَمْتُ أَظْفَارِي . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. ﴾ [لقمان] . [لسان العرب : مادة (قلم) - بتصرف] .

(٢) يكفل : يعول ، والكافل : العائل . قال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. ﴾ [آل عمران] .

(٣) الغربي : الجبل الغربي الذي كَلَّمَ اللهُ سبحانه نبيّه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي المقدس (طوى) . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٩١ - بتصرف] .

(٤) ثاويًا : مقيمًا والثواء : الإقامة ، ثويت بالمكان : أقمت فيه . قال تعالى : ﴿ وَمَا وَاهُمْ النَّارُ وَبَشَىٰ مَثْوَى الظَّالِمِينَ .. ﴾ [آل عمران] . [لسان العرب : مادة (ثوا) - بتصرف] .

سبحانه وتعالى مُنْزَهٌ عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذى يَنْبَهُ العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل .

وقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يدلنا على أن القضية التى كذَّبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدمات المُحَسَّنة التى يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التى يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكَّرُوا وقالوا : محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلِّم ، ولم يَغِبْ عنا فترة ليتعلَّم ، وظل مدة طويلة إلى سنِّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جاءت هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسأله هو عنها : من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءت من عند الله ، فكان يجب أن يصدِّقوه .

ومهمة العقل دائماً مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل» ^(١) مأخوذ من «عقال» البعير . وعقال البعير هو الحبل الذى تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفِّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك ، إلى أن نحتاجه فى حركة .

إذن : فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم الملكات ؛ لأن كل ملكة لها نزوع إلى شىء ، فالعين لها ملكة أن ترى كل شىء ، فيقول لها العقل : لا داعى أن

(١) العقل : النُّهى ، ضد الحمق ، وعقل يعقل فهو عاقل . قال ابن الأنبارى : الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل : العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها . والعقل : التثبت فى الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ،
فيقول لها العقل : لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك ^(١) .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة «الحكمة» ،
مأخوذة من «الحكمة» ^(٢) وهى فى «اللجام» الذى يوضع فى فم الفرس ؛
حتى لا يجمع ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى
تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين
لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المحسنة التى تؤمنون بها وتشهدونها
وتسلمونها لرسول الله ﷺ . لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بِعَايِنَتِهِ إِنَّهٗ لَإَيْفُلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴿١٧﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أأكذب على الله ؟ إذا كنت
لم أكذب عليكم أتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جربتموها ،
أفأكذب على الله ؟ ! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] .

(٢) حكمة اللجام : ما أحاط بحنكى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد . وقيل : الحكمة
حديدية فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راحبه . [لسان العرب : مادة
(حكم)] .

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل
للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك : ضع حكمته » أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير
(١٢٩٣٩) وأورده الهشمى فى مجمع الزوائد (٨ / ٨٢) وقال : إسناده حسن .

(٣) افتري : اختلق . الفرية : الكذب . و« افتري » تفيد المبالغة فى الكذب .

فى الكبر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟
 وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل
 إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . فإذا كتتم أنتم تتهمونى بذلك ،
 فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم
 كذبتمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت : إنه من عند نفسى
 لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدعى . ولكن أرفعه إلى
 غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم .

وقوله الحق : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه
 كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد
 على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب
 على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله
 سبحانه .

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقددها ،
 لكنها ليست واقعة ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد
 ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء
 فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر
 وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب
 الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿ افترى على الله كذباً أو كذبَ بآياته ﴾ يبين لهم رسول الله
 ﷺ : إن قلتى إنى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند
 الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من
 يكذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبونني وتدعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتمادون وتكذبون بالآيات وتقولون هي من عندك ، وهي ليست من عندي ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتي من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيناً أدب النبوة :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّىٰ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ^(١) .. (٢٤) ﴾ [سبأ]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال ^(٢) .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتي هى أحسن من رسول الله ﷺ .
ويقول الحق سبحانه :

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهولون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : « أن يُذكر شيان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، (الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧٩/٣ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. (٧٦) ﴾ [القصص] ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لهتد » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٣٨/٣) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿ قُلْ لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ... ﴾ (٢٥) [سبأ]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجزيمتك لن أسأل أنا عنها ، وجزيمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجماع لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا تُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يهدِّب ، لا ليهيِّج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبني الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهَ
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ

عَمَّا يُشْرِكُونَ ^(١) ﴿١٨﴾

(١) قال الجوهري : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى فى أمتى من ديب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكانه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك أمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الأمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع يطبع المأمور الأمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شىء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشىء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشىء ولم تنه عن شىء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهى ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهى .

إذن : فمن الحمق ^(١) أن يعبد أحد الأصنام ؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهى .

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن في قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفي هذه الحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلي .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل ؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجدد من يكابر قائلاً : ﴿ هُوَ آءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذى ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده ^(٢) ؟

ثم ماذا يقولون فى أن من تُقدم له شفاعته هو الذى ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهى عن عبادتها ؟

وهل هناك شفاعته دون إذن من المشفوع عنده ؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

(١) الحمق : وضع الشيء فى غير موضعه ، والحمق : ضد العقل أو قلة العقل وضعفه . والحميقاء : الخمر ؛ لأنها تعقب شاربيها الحمق . والأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت ، فكأنه فسد عقله حتى كسد . قال ابن الأعرابى : الحمق أصله الكساد . ويقال : الأحمق الكاسد العقل . والحمق أيضاً : الغرور . وانحمق الرجل : ضعف عن الأمر . [اللسان : مادة (حمق)] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ رِضَىٰ لَهُ قَوْلًا ۗ ﴾ [طه] ، إن ادعاء المشركين أن الأصنام تشفع لهم عند الله - ادعاء باطل ومع بطلانه اعتراف منهم بأن الشفاعته لا تكون إلا من الله سبحانه وشفاعة الله لا تكون إلا للحبيب ومحجوب يعملها فرضاً وفضلاً .

﴿ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٨)

[يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها ، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿ أَتُبْتُونَ اللَّهَ ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿ قُلْ أتعلمون الله بدينكم .. ﴾ (١٦)

[الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجترأ وجهل بقدرة وحكمة من خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شىء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شىء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنزّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنزّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره فى تجارة ما ، ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد فى ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟

إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا ^(١) إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ

[الإسراء]

سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلى أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شىء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدعى لنفسه صنعتها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان التى خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعى صنعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلُّوا لَكَ الْأُمُورُ .. ﴾ [٤٨] ﴿ [التوبة] [اللسان] :

مادة (بغى) .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له .
وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التي وهبها للإنسان ،
فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من
المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهربىاء جهد العلماء الذين درسوا
علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح
الكهربى ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاج التى يوضع فيها السلك
الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد
تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة
لفترة من الزمن . فما بالناس بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أنفه
الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ،
وتطوير للصناعات ، فما بالناس بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية
كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من
البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه .

وأنت بما تتبكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذى حقاً هو
من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس^(١) - ضمن ما خلق- وإذا أشرقت
أطفأ الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهدى الجميع ، وإذا كان
ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالناس بكل نعمة من سائر مخلوقاته .
ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نصطدم بالأشياء
فلا تحطمنا ولا نحطمها، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاتَّخَذْتَهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِقَوْلِ اللَّهِ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ويقول
سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٢) ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّرْ
شَاءَ لَجْعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلاني جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل وقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل في كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضى طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساو لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)

وقد جاءت آية في سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه في سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ (٢١٣) . والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلَفوا في عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ؛ فاهتدوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) [الأعراف] ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ الْفِطْرَةَ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (٣٠) [الروم] ، فاختلَفوا بعبادة غير الله ؛ فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واهتدوا بعقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها فى المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعانى فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ، ولا يضمن لهذه المادية قيماً تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣) [البقرة]

لذلك فهم البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذي شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى ^(١) ؛ لأن الأصل في المسألة هو الإيمان لا الكفر ^(٢) .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٢١٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا ترى أن الاختلاف الذي حدث بين الناس جاء في آية البقرة في المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف في هذه الآية في المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان ^(٣) ، فليس هناك أناس أولى من

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَنِ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير في تفسيره (٢٥٠/٨) .

(٣) إن تصدير الاختلاف في آية سورة يونس وتأخيرها في سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَى قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَا قَوْمِ إني بريء مما تشركون (٧٨) إني ووجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين (٧٩) ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان في مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليرك أناساً متخبطين في أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ قالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ۚ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٦) [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون^(١) إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذي وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طويلاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا^(٣) لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴾ (٢٦) [الحج]

(١) بكة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخّل فيه البيوت : وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم ميدلة من الباء . ثم قيل : بكة مشتقة من البك وهو الأزدحام أى : ازدحامهم في موضع طوافهم . والبك أيضاً : حق العنق ، وسميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجارية إذا أخذوا فيها بظلم . بتصرف من تفسير القرطبي (٢/١٤٨٦) .

(٢) يحجون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجاني في كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشيء المعظم ، وفي الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة في وقت مخصوص بشرائط مخصوصة في أماكن مخصوصة » .

(٣) بوائنا له : أنزلناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان لينزل به . وبوائنا له : هيئنا له المكان ومكانه منه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعْهَا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ .. ﴾ (٥٦) [يوسف] . [اللسان : مادة (بوا) - بتصرف] .

وهكذا يَصْدُقُ قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذى طرأ على البشر من بايين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ^(١) وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ^(١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ^(١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالتعصُّى عن الحكم الإيمانى مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أى : أن تكون قد علمت شيئاً ، ولم تجعله دائماً فى بؤرة ^(٢) شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشْتَتَ الفكر فى أكثر من أمر ، فإن كنت صافى الفكر ومتبهاً إلى المعلومة التى تَصَلُّكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر فى حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خال من أى معلومة غيرها ، فتثبت فى بؤرة

(١) ذرية الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذرارى . قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّنْ بَعْضِهِمْ .. ﴾ (٢٤) [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذرأ الله الخلق ، أى : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذر بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى ذرهم فى الأرض ، أى : فرقهم . [اللسان : مادة (ذرر)].

(٢) بار الشيء : خبأه وأدخره . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أى : حفرة ومركز الشعور الذى يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التى تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بار) .

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة في بؤرة الشعور ، وحين تأتي معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال- أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفذ عن ذهنه كل المشاغل الأخرى ^(١) ؛ ليركز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل في الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدى من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرس جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها ^(٢) .

وقد نجد طالباً في صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتي في الجزء الفلاني من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر في بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال في الجزء الذي قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

(١) ولذلك أرشد العلماء طلاب العلم أن يقللوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي - في إحيائه (كتاب العلم) « شاغلة وصارفة و﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن ذك الحقائق ؛ ولذلك قيل : « العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك » والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع » . قال الزبيدي في تحاف السادة المتقين (١ / ٥٠٤) : « لذا كرهوا للمتعلم الاشتغال في درسين في علمين مستقلين لثلاث تنوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول » .

(٢) وأمر تخلية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شيء حثَّ عليه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة ، فمن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٠) والأخبثان هما البول والبراز . فكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله عنه شيء .

ولذلك فالتلميذ الذكي هو من يقوم بما يسميه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى: أن يقرأ الدرس ثم يغلُق الكتاب ؛ ليسأل نفسه: «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز واتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقى درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهي ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهي إلى أن يأتى الران^(١) الذى قال عنه الحق سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين]

ويبين النبى ﷺ ذلك بالحديث الشريف: « نزلت الأمانة فى جذر^(٢) قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول: «ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة

(١) الرين: الطبع والدنس . وهو كالصدأ يغشى القلب . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسوّد القلب . يتصرف من لسان العرب (مادة: رين) والرين : الصدأ يعدلو سيف فيذهب بهريقه ويستعمار للغشاوة تغطي على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطّاه كله . قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين].

(٢) جَذَر كل شيء: أصله . ومنه هذا الحديث: جَذَر قلوب الرجال ، أى: فى أصلها . (اللسان مادة: جذر).

من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكْتِ ^(١) « أى : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتى الرآنُ على القلب .

إذن : فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان فى نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقة ، ويدوق حلاوته ^(٢) . ومثال هذا : المسلم الذى يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهَقاً وفى ضيق .

ولذلك جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَحِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» ^(٣)

إذن : فالغفلة هى أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

(١) الوكْتة : الأثر فى الشيء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع : وكت . وفى الحديث : «لا يحلف أحد ولو على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكتة فى قلبه» . ومنه فى حديث حذيفة : « . . . ويظل أثرها كأثر الوكْتة» . [اللسان : مادة (وكت)].

(٢) متفق عليه : أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مسنده (٣٨٦ / ٥ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان . مثل الصفا : الصخرة المساء العريضة .

مرباداً : أسود مشوباً بغيره .

كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعروة .

مجحياً : مائلاً ، أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبّه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شيء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [انظر لسان العرب مادة : جحى] .

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقَلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية . وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء :

﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا ^(١) عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

وإلف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبَّق كل مطلوب لله ^(٢) ، فإن قلت : ﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطري ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطري من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة في القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على السنة الكافرين في القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف]

ولم يقل : «مهتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق .

إذن : فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى .

(١) ألفينا : وجدنا . يقال : ألفت الشيء إذا وجدته وصادفته ولقيته . انظر اللسان مادة (لفى) .

(٢) إن آدم عليه السلام طبَّق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التي نُهي عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْهُ لَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا

.. (١١٥) ﴾ [طه] وهذا لا ينافي أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط ^(١) ؟
فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول: وهل من
المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا ^(٢) فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤) ﴿

[فاطر]

والذى أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح
عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيراً سطحياً ، وفهموا أن الرسول يظراً على
المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً
برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة؟

ولم يفتن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة
إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿ فِيمَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨) ﴿ [البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

[طه]

وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٣) ﴿

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمتجه ، وهو الذى
طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء . وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله
الحق: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ^(٣) .. ﴾ (٢٧) ﴿ [المائدة]

(١) هناك فرق بين النبي والرسول ، فالنبي هو من نُبئ وأوحى إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ
قومه رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نبي رسولاً .

(٢) خلا: مضى . أى: مضى وأُرسل . ويقال: القرون الخالية: الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ
خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ .. ﴾ (١٣٩) ﴿ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (٤٤) ﴿ [الحاقة] .

(٣) القربان: ما قُرِبَ إلى الله - عز وجل - وتقرَّبَ به ، تقول: قَرَّبْتُ لهُ قُرْبَانًا . وتقرَّبَ إلى الله بشيء ،
أى: طلب به القربة عنده تعالى . قال الليث: القربان ما قَرَّبْتَ إلى الله ، تبتغى بذلك قربة
ووسيلة . [اللسان: مادة (قرب) - بتصرف] .

وَابْنًا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَدَّمَ الْقَرْبَانَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . إِذْنُ : فَهَمَا قَدْ عَرَفَا أَنَّ هُنَاكَ إِلَهًُا .

وحين قال قاييل لأخيه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ (٢٧)﴾ [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه . قال هايليل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

ثم في قول هايليل: ﴿لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إذن: لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ (١) سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب من يكذب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل ، يقول سبحانه:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٢) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٣) وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (٤) وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحججة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٤١١ / ٢] .

(٢) الحاصب: ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض ، فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

(٣) عُدْبٌ بها قوم ثمود ، جاءتهم صيحة أصمّت آذانهم وأخمدت منهم الأصوات والحركات . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

(٤) الخسف: إذهاب الأشياء في الأرض . وخُسِفَ بالرجل: إذا أخذته الأرض وغاب فيها ، وقد عُدْبَ بهذا قارون . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢٣) [الأنفال]

أى : أنه سبحانه قد أجلّ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة . وهذه الكلمة التي سبقت ، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم في الدنيا ، ولكنه يؤخر ذلك إلى يوم الجزاء . ويقضى سبحانه في ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه ، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه في جانب من أرسله ، لا من عاند رسوله ﷺ .
ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ
فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

والآية كما عرفنا هي الشيء العجيب ، وإما أن تكون آية كونية ، أو آية إعجاز ، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام .

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن ، وهي معجزة بالنسبة إليهم ؟

نقول : إن استقبال القرآن فرع تصديق للرسول ﷺ ، وقد حدث اللبس عندهم ؛ لأنهم ظنوا أن الآية هي الآيات المحسنة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التي سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض ، مثل (هلا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. ﴾ (٤٦) [النمل] وتدخل على ماضى فى تأويل المضارع كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. ﴾ (١١) [المنافقون] أى : لولا تؤخرتنى ، وتستعمل (لولا) للتويخ والتقديم فتختص بالماضى كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .. ﴾ (١٧) [النور] ، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس القريم : ٢٠٧/٢ ، ٢٠٨] .

رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التي اصطحبها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم .

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهي لعامة الزمان وعامة المكان ^(١) . فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدتها ، ولَصَارَتْ خَبْرًا لِمَنْ لَمْ يَشَاهِدْهَا .

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّقْ أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسي يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حَدَّثَ به له أن يكذِّب ، وله أن يصدِّق ، ولكننا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك في القرآن . وثقتنا فيمن قال هي التي جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر في عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول : لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهي معجزة القرآن . وتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمنه ، وبدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغنم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة من حديث جابر بن عبد الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

لها ، وقد جاءت لترتيب الإيمان فى القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا فى حاجة إلى شدِّ أزرهم الإيماني ، وحدثنا كتب السيرة أيضاً عن حفنة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدَّق الرواية ؛ فليصدقها ، ومن لم يصدقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كباقي إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وإن دخلت «لولا»^(١) على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر : لولا زيد عندك لأيتتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده . وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدتها تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء ، لوجود شيء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض .

وهم هنا قد قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر بالقرآن الكريم : ﴿ لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ (٤٨) [القصص]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسول السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشبهاً بالكفر

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبتدأ وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٣٦) [سبأ] وجملة الجواب فعلية وتقرن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴾ (٢٦) [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٦) [النور] القاموس القويم ج ٢ / ٢٠٧

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمَنَ به ، وزاد تمسكهم بالإيمان .

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل .

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجددة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان . أما المعجزة الحسية فهي تنقضى بانقضاء زمانها ومكانها .

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(١) (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خَلَالَهَا تَفْجِيرًا ^(٢) (٩١) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كَسْفًا ^(٣) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ^(٤) (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى ^(٥) فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

إذن : فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضل المرسل .

(١) ينبوع : العين الجارية والجدول الكثير الماء ، والجمع ينابيع . (اللسان : مادة نبع) .

(٢) كسفاً : جمع كسفة وهي القطعة ، والمراد : العذاب . قال تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩١) ﴾ [سبأ] . [اللسان : مادة (كسف)] .

(٣) القبيل : الجماعة من أى شىء .

(٤) زخرف : نقش وزينة وعمويه بالذهب . والزخرف : الذهب فى غيره . قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا نَّيْلًا أَوْ نَهَارًا .. (٩٤) ﴾ [يونس] .

[اللسان : مادة (زخرف)]

(٥) ترقى : تصعد ، والرقى : الصعود . وفى الحديث : «كنت رقاءً على الجبال» أى : صعداً عليها ، وفعل للمبالغة . قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَةَ (٩٦) وَقِيلَ مِنْ رَاقٍ (٩٧) ﴾ [القيامة] .

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فتقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً^(١)؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذَّبَ بها الأولون، أو هم طلبوا آيات اقترحوها، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً، وهو ﷺ يُبَلِّغُ عَنْهُ، فكيف - إذن - يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل: «إن رب محمد قد قلاه»^(٢) حين فتر^(٣) الوحي عنه ﷺ، ولكن الحق سبحانه ردَّ عليهم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى]

إذن: هم قد ناقضوا أنفسهم، ففى الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له رب، وفي الهجر سلّموا بأن له رباً، وهذا تناقض فى الشيء الواحد، وهو لون من التناقض يؤدى إلى اضطراب الحكم، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى^(٤).

(١) الدحض: الدفع والبطان. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّهْمُ دَاحِضَةٌ .. (٦٦)﴾ [الشورى] أى: باطلة.
(٢) قلاه: أبغضه وتركه وتخلّى عنه، عن جندب البجلي قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد ودَّع محمد. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بلفظ: «فقال المشركون: ودع محمداً ربّه».

(٣) فتر الوحي: انقطع.

(٤) أى: أنه يحكمُ هواه فى كل تصرفاته ومنازع تفكيره، أى: يتخذ هواه الهأله، يأتمر بأمره، ويتبهى بنهيه؛ لهذا يحدث التناقض. ويقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٢)﴾ [الحجّاثية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعَلِّمُ الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما فى الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلن رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠)

[يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَكْرَفِيءٌ أَيَانِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١)

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجذب كالسنين التى أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجذب والقحط^(٢) ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

(١) المقصود بالرسول هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّبْنِ﴾ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار].

(٢) الجذب : نقيض الخصب . أى : الجفاف وانقطاع المطر . وفى حديث الاستسقاء : «هلكت المواشى وأجدبت البلاد» ، أى : قحطت وغلَّت الأسعار . [اللسان : مادة (جذب)].

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجذب ؛ لأنه من أثره . وفى حديث الاستسقاء : «قحط المطر واحمر الشجر» هو من ذلك . وقد يشتق القحط لكل ما قلَّ خيرُه ، والأصل للمطر . والقحط فى كل شئ قلة خيرِه . [اللسان : مادة (قحط)].

مَسَّهُمْ مِنَ الْقَحْطِ وَمَنِ الْجَدْبِ كَانَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ : «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»^(١).

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة في المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ ، ولكنهم ظلوا يبحثون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال : لقد جاء مطرنا نتيجة لنوء^(٢) كذا ، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاه دعوة رسول الله ﷺ ، مثلهم مثل من جلس يبحث في أسباب النصر في الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية في العُدَّة والعتاد^(٣) . ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار ؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله ؛ لأن الحق سبحانه ينصر من ينصره .

أما الذين يحصرون أسباب النصر في الاستعداد القتالي فقط ، فالمقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل^(٤) روحه ورغبته في القتال وتبيل الشهادة ودخول الجنة .

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف . . .» الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) وأحمد في مسنده (٢/٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) ناء ينوء نواً من باب قال يقول أي : نهض . ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء . المصباح (٢/١٥١) .
(٣) العتاد : العُدَّة ، والجمع : أعتدة وعتُد . قال الليث : العتاد : الشيء الذي تغده لأمر ما وتهيئه له . وفي حديث صفته ﷺ : «لكل حال عنده عتاد» أي : ما يصلح لكل ما يقع من الأمور . والمراد هنا بالعتاد : الأسلحة وآلات الحرب . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ (٤) [الإنسان] .
[اللسان : مادة (عتد)] .

(٤) الصقل : الجلاء والشحذ ، والمراد : الحمية الدينية والتعبئة النفسية والمنوية للمقاتلين . [اللسان : مادة (صقل) - بتصرف] .

إذن: فلمدد السماء مدخل ، وَمَنْ رَأَى مِنَ الْمُقَاتِلِينَ آيَةَ مَخَالَفَةٍ لِنَوَامِيْسِ الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدي المؤمنين المقاتلين . ومن يدعى أن أى نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هي مجرد تقدم مادة هش^(١) لا يصنع نصراً^(٢) ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادى ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة .

ولذلك نجد مَنْ خاضوا حربنا المنتصرة في العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادى وحده يمكن أن يكفى للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان فى الانتصار .

وهكذا نجد أن مَنْ يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأى المادى . وهكذا ينصر الله دينه حتى يشبهته فى قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة مَنْ ينكرون قيمة الإيمان .

ومثال هذا فى تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولا سوف يظهر ، وأنهم - أى: اليهود- سيتبعونه^(٣) ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قتل عاد وإرم .

(١) الهشّ والهشيش من كل شىء : ما فيه رخاوة ولين ، المراد: الضعف .

(٢) يقول تعالى : ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران] .

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا فى قرآنه ، فقال عن اليهود: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] . وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهرأ فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن تتبعه قد أظل زمانه فتقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٢٤/١) نقلاً عن ابن إسحاق .

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرع الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا: إنه النبي الذي تهددنا به يهود ، فلنسبق إليه حتى لا يسبقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هي دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

إذن: فالله ينصر دينه بالفاجر^(١) ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين .

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا^(٢) وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذي فوق المادة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنها:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ^(٣) فِي آيَاتِنَا قُل

اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس]

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فعن أبي هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حيناً . فقال لرجل من يدعى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة . فقيل : يا رسول الله ، الرجل الذي قلت له أنفاً «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً . وقد مات فقال النبي ﷺ : «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب . فبينما هم على ذلك إذ قيل : إنه لم يمض ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال : «الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فتنادى في الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» . حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١) .

(٢) أرجفوا: اضطربوا اضطراباً شديداً . (اللسان مادة : رجف) .

(٣) المكر: احتيال في خفية . قال تعالى: ﴿ وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل] . قال أهل العلم بالتأويل : المكر من الله تعالى جزاء سُمِّيَ باسم مكر المجازي كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشورى] فالثانية ليست بسينة في الحقيقة ، ولكنها سميت سينة لآزدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة] فالأول ظلم والثاني ليس بظلم ، ولكنه سُمِّيَ باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به . قال ابن الأثير: مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه . [اللسان : مادة (مكر)] .

والمكر: هو الكلام الملتوى الذى لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب فى سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب فى سقوط المطر.

وقوله الحق: ﴿مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا تضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛ لتحكم الكون بقوانين .

ونقول: لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها تتحكم لما شُدَّ شىء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله فى يده التحكم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيِّوماً عليها، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويؤجّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفى ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكرأ ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة التعبير»^(١) .

(١) المشاكلة: مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى: ذكر الشىء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً . وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا اللَّهَ.. (٥٤)﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . (الإتقان فى علوم القرآن: ٣ / ٢٨١).

أى: عليك أن تأخذ ذلك فى مقابله فى ذات الفاعل والفعل ، ولكن لا تأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله - سبحانه وتعالى - مكر ؛ لأن المكر كيد خفىً تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلَع على كيدك ، ولا تطَّلِع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشى منهم بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتنصُّت^(١) عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالناس إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعالى - ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسَّس عليه !؟

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يُهدم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتت إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلاهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية .

ومكرهم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

(١) التَّنصُّتُ: المراد به: التجسس. وَأَنْصَتَ الرَّجُلُ إِنْصَاتًا: استمع باهتمام. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا...﴾ [الأعراف]. [اللسان: مادة (نصت) - بتصرف].

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكرتم .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا^(١) لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهي «إذا الفجائية» مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالبواب .

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذي جاءهم من بعد الجذب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتي قول الحق سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلى القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ . [الانفطار]

واقراً أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ . [الإسراء]

(١) «إذا» تأتي لمعنيين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١)﴾ [التكوير] ، وقد تكون «إذا» للمفاجأة وتختص بالجملة الاسمية كقوله تعالى : ﴿فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٦)﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والفجائية فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾ [الروم] . وكما فى الآية : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. (٢٦)﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع في عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذي قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء في الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التي عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا في بلاد الروم هو «عمرو بن لحي»^(١) ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذي كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَقَفَّحُوا بِهَا جَمَاءَ تِهَابٍ رَّيْحٍ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

الشَّاكِرِينَ ﴿٣٢﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التي بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دعوا به على أنفسهم من الشر في قولهم : ﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) [الأنفال]

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم ماب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام تعبدوها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبده؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دَلَّل على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسَّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين ^(١) وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسَّهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. ﴾ (٢٢) . [يونس]

وكلمة ﴿ يُسِيرُكُمْ ﴾ تدل على أن الذي يسير هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٩) . [النمل]

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض . قال ابن المظفر : كانت هذه الطاء تاء في الأصل ، ولكنه قبح عندهم أن يقولوا (اضتجع) فأبدلوا التاء طاءً . قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. ﴾ (٦٦) [السجدة] . [اللسان : مادة (ضجع)] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ.. (٢٩) ﴾ . [القصص]

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ .. (١٨) ﴾ . [سبا]

فكأن هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن في ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة^(١) وكيف يرفعونه ؛ عرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديراً لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستدكار .

وكذلك نقول : «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول : إن الموت قد وقع عليه و اتَّصَفَ به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتَّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : «سار الإنسان» .

وإذا أردنا أن نورِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إن نظرت إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبعتها أسباباً ؛ وجدتها تنتسب إلى الله سبحانه .

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٨٤٥

فمثلاً : إذا سئلت : مَنْ صنع الكرسي ؟ تجيب : النجار . وإن سألت النجار : من أين أتيت بالخشب ؟ سيجيبك : من التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود ؛ لا بد أن تنتهي إلى الله تعالى^(١) .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ.. (٢٩) ﴾ [القصص]

فهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سِيرَ بأهله ؛ لأن التسيير في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم]

فهو سبحانه الذي خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذي يقول في القرآن : ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكون كثيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذي ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك في الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

(١) يقول عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .. (٢) ﴾ [الرعد] ويقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .. (٢٢٢) ﴾ [هود] .

(٢) وذلك أن شعبياً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ (٧٨) ﴾ [القصص] ، وقد ثبت في الحديث أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأتم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٣ / ٣٨٤ - ٣٨٧) .

وغيره الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربي ، وضحك انجليزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى .

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ (٤٣) [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى .. ﴾ (١٧) [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله ^(١) .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا عللت السير فى الأرض أو فى البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرك ساقيك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كم عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين . أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤) .

وهنا ملحظ فى السير فى البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير فى الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ^(١) أحداً من المارة، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة؛ ليعاونه .

أما المرور فى البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة^(٢) كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم .

إذن : فالمرور فى البحر أدق من المرور فى البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها يقول عن السير فى البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٢) [يونس]

وهكذا لا نجد أن فى الآية نفسها حديثاً عن السير فى البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطرب فى البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمّن يسير فى البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوى^(٣) فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴾ (١٥) [الأحقاف]

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأمر ، ولم يأت بأى حيثية للأب ،

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴾ (١٨) [القصص] . وقال : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ (٤٢) [يس] . والصرخ : المغيث . [اللسان : مادة (صرخ) .. بتصرف] .

(٢) سبيل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات فى حوائجهم ، والجمع : السوابل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا .. ﴾ (٥٦) [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣) ضَوَّى إليه : انضم ولجأ . وينضوى فى الشيء : يدخل فيه ويندرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف] .

فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ^(١) ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۝ (١٥) ﴾ [الأحقاف]

و شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيشية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح في الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو في بطنها ؛ لا يعيه ، وفي طفولته الأولى لا يعي أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعي من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكّل وملبس ، ويبقى دور الأم في نظر الطفل ماضياً خافتاً .

إذن : فحيشية الأم هي المطلوبة ؛ لأن تعبها في الحمل والإرضاع لم يكن مدركاً من الطفل .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيشية البر وأبان بالتفصيل حيشية البحر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ^(٢)

[يونس]

﴿ (٢٢) ﴾

(١) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذي يُفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أى : فطمته . وقال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ۝ (١٥) ﴾ [لقمان] . وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ ۝ (٢٣٢) ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفع أمرها إلى علي بن أبي طالب وأنها حملت ستة أشهر واتهمها زوجها بالزنا ، وبرأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فقه السنة : ٣/٣٦٧] .

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْجِئْنَاهُ وَمِمَّا مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ

﴿ (١١٦) ﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أى : المركب ؛ وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ ۝ (١٩) ﴾

[النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مواخير) أى : السفن . القاموس القويم (٢/٨٩) .

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يغرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا .. ﴾ (٣٧) .

إذن : هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الأفراد تكون مثل : قُفْلٌ ، وَقَرْطٌ . وعند الجمع تكون مثل : أسد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الأفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ﴾ (٢٥) .

[الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ^(١) .. ﴾ (٢٢) .

[الحجر]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. ﴾ (٥٧) .

[الأعراف]

(١) لواقح : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرفه ، ثم تستدره ، فهي تلقح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتلقح الشجر فتعطى نتاجها . [لسان العرب : مادة : (لقح)] وابن كثير (٥٤٩/٢) .

والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح للشر^(١) ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فـهواء الرُخاء هو الذى يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشيء ، ثم يتحول إلى أعاصير .

والهواء - كما نعلم - هو المقوم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفرغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار .

إذن : فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء .

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصلّ أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التى تسير بالهواء المتجمّع فى أشرعتها . وإذا كان التقدم فى صناعة السفن قد تعدّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه : ﴿ رِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة . وسبحانه

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجعله ريح خير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص] [والريح الرخاء هى : الريح اللينة السريعة التى لا تززع شيئاً من مكانه . انظر [اللسان مادة (رخو)].

القائل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(١) .. ﴿٤٦﴾ . [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة. وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود في الفلِّك ، وجرى الفلِّك ، بريح طيبة ، ثم فرحهم بذلك ؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط ، ثم يأتي جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ .

أما الريح العاصف: فهي المدمرة ، ويقال: فلان يعصف بكذا ، وفي القرآن: ﴿كَعَصْفٍ مَّاكُولٍ﴾^(٢) .. ﴿٥٠﴾ . [الفيل]

إذن: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ هي الريح المدمرة المغرقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ .

فالموج يأتي من أسفل ، والريح تأتي من أعلى ، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب ، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أى: قوتكم ، فالريح هنا معناها القوة وذهب الريح أى: ذهاب القوة والهيبة ، فالقوة هي التوازن في الحياة ، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام ، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً فى الأرض وفيما حكاه التاريخ ونشأهده فى دنيا الواقع لأكبر دليل . وقد تطلق على الرائحة ، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِبْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..﴾^(٢) [يوسف] ، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً ، فإن من ذهب رائحته من الوجود ، فهذا دليل على ذهاب قوته .

(٢) العصف المأكول: التين . والعصف له معنيان:

- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبِّ وبقى هو لا حَبَّ فيه .

- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم . [اللسان (مادة : عصف)] .

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعداً ^(١) ،
 وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل
 مسبوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة
 لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم .

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه
 يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١٩ ﴾ . [البقرة]
 أى : ليس هناك منفذ يفلتون منه .

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛
 بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله
 الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها ^(٢) .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله : أهنك دليل
 على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب
 السائل : تاجر أبحر فى البحر . فسأله سيدنا جعفر : أو لم يحدث لك فيه
 حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال :
 حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة
 وتعلقت بلوح من الخشب . قال سيدنا جعفر : ألم يخطر على بالك أن تفرغ
 إلى شىء ؟ قال الرجل : نعم . قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى .

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم
 الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

(١) المراد بتجعد سطح الماء : التموجات التى تبدو على سطح المياه إذا هب عليها الهواء .

(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إيضاح الحقيقة يقول الحق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝٣٥ ﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى
 زحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم فى مثل هذه الحالة : ﴿دَعَاؤُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوَهُ بِإِخْلَاصٍ وَأَقْرَبُوا بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَأَلَّا شَرِيكَ لَهُ أَبَدًا ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً .

ثم يجىء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وفوا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه تآتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا^(١) - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

والبغى : هو تجاوز الحدّ فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شىء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإن ألقيت بنفاية^(٢) فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شىء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطراً عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى .

(١) البغى : الظلم والفساد والكبر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى : مجاوزة الحدّ . قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ .. (٢٧)﴾ [الشورى] . وقال : ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبِغِي .. (٩)﴾ [الحجرات] . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

(٢) نفاية الشىء : بيقته وأردؤه . والنفاية : ما نفيته من الشىء لردائه . المراد بالنفاية هنا : الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشىء وإفساده . [اللسان : مادة (نقى) . بتصرف] .

والبغى: أعلى مراتب الظلم؛ لأن الحق سبحانه هو القائل: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ..﴾ (٧٦). [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى الممثلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح، فيقول ﷺ: «أسرع الخير ثواباً: البرّ وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة: البغى وقطيعة الرحم»^(١).

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة، بل يعاقب عليهما في الدنيا؛ حتى يتوازن المجتمع؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا في رضا ورخاء ثم يموت بخير، فكل من يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً في الدنيا، سوف يستشري في الظلم.

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم في الدنيا وأن يرى الناس نهايته السيئة، وحين يرى الناس ذلك يتعظون؛ فلا يظلمون، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع.

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى؛ ولذلك يرى الناس عذابهم في الدنيا، ثم يكون لهم موقعهم من النار في الآخرة.

ويقول ﷺ محذراً: «لا تبغ، ولا تكن باغياً»^(٢).

فالباغى إنما يصنع خلافاً في توازن المجتمع. والذي يبغى إنما يأخذ حق الغير، ليستمتع بنتائج من غير كده وعمله، ويتحوّل إلى إنسان يحترف

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢١٢) وابن عدى في الكامل (٧٠/٤) ط. دار الفكر، والذهبي في ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة، كلاهما في ترجمة صالح بن موسى الطلمحي، وهو كوفي ضعيف. وقال ابن عدى: لا يعتمد الكذب. وسياق نص الحديث يؤخذ به.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين (٣٣٨/٢) عن أبي بكر، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأقره الذهبي.

فرض الإتاوات^(١) على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض بمن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات)^(٢) يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف .

والبغى - إذن - هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . [يونس]

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بَغْيٌ بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثال البغى بحق ، أقول : ألم يَسْتَوْلِ النَّبِيُّ ﷺ على أرض «بنى قريظة» ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم؟ ليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

(١) إتاوات : جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدْفَعُ غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلُّط . وهى تشبه المكوس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطو على ممتلكات الناس وتخريف الناس . وفى لغة العرب : الْفَتَى : هو الشاب القوى والفتى : العبد ، وجمعه على القلة فتية . وفى الكثرة فتيان ، والأمة : فتاة ، وجمعها فتيات . والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومحترف الإفساد .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك .

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق . ولذلك يسمي الله
جزء السيئة سيئة مثلها ^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ ﴾ (١٩٤)

[البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء ، بل ردّ الاعتداء .

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ،
فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢٣)

[يونس]

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي : يا مَنْ تريد أن تأخذ
حق غيرك ، اعلم أن قصارى ^(٢) ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع
الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية ^(٣) .

وأنت إن قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغي بزمن العقاب
عليها ؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تناله
عليها ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق
سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن
عمرك فيها محدود .

(١) وذلك في نحو قوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۗ ۙ ﴾ [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو
مصطلح بلاغى مؤداه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، فالجزء هنا حق لا يوصف بأنه
سيئة ، ولكنه سمي هكذا لمشاكلته لما معه . انظر (الإتيقان في علوم القرآن ٣ / ٢٨١) .

(٢) قصارى الشيء : آخره وغايته وهي من معنى القصر ، أى : الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حبستك .
[اللسان : مادة (قصر) - بتصرف] .

(٣) ومن أمثلة الغصب والبنى بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أى الظلم أعظم ؟
قال : ذراع من الأرض يتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا
طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها . أخرجه أحمد في مسنده
(٣٩٦ / ١) والطبراني في معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦) . قال الهيثمى في المجمع (٤ / ١٧٤) : «إسناده
أحمد حسن» .

فاربأوا^(١) على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم في الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية في الدنيا ، ولكن ليقس كل واحد منكم عمره في الدنيا وهو محدود .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. (٧٧) ﴾

[النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا بِغَيِّكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ (٧٢) ﴾ [يونس]

وقد يتمثل جزاء البغي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائماً: لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير ؛ لظنَّ عليه بالظلم .

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. (٢٣) ﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يظلم فكل منكم سوف يلتقى ما ينبت به الله سبحانه إن ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق: ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ^(٢) بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾ . [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبي الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل

(١) اربأوا على أنفسكم: حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب في الآخرة .

وفي الحديث: «مثلى ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله» أى: يحفظهم من عدوهم . [اللسان مادة (ربأ)].

(٢) الأنبياء: الأخبار الهامة . قال الحق: ﴿ تِلْكَ الْقُرْآنُ نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهِآ .. (٦١) ﴾ [الأعراف] وقال:

﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ .. (٦٧) ﴾ [الأنعام] . أى: لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه في المستقبل أو في

الماضى . ونبأه مثل أنبأه . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار . قال الحق: ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ .. (١٤) ﴾ [المائدة] - القاموس القويم ج٢ ص ٢٥٠ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبا مقدماً تقريباً لمن يظلمون أنفسهم بالبغي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ^(١) حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَنَاهَا أَمْرًا تَلِيًّا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحوّل الماء إلى بخار، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عذباً مقطراً صالحاً للشرب والرى .

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمى كل عمرة مزوّبه . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زينّه وأكمله . وفى الحديث : أن النبى ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف ففُحى . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. ﴾ ﴿٢٤﴾ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين العاقلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبي : زخرفها ، أى : حسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبي : ٤ / ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الفانية . وازَّيَّنَتْ ، أى : حسنت بما خرج فى ربّها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ (٢٤) ﴿

[يونس]

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذلك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر فى جزئيات الماء .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ وقد يفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حى مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٣٠) ﴿

[الأنبياء]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية^(١) فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية ، وبذلك يكون المعنى : فاختلط بسببه نبات الأرض . وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض ، ثم تجدد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة .

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائداً ، ويؤدى عدة معان ، أشهرها خمسة عشر ، هى : الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدية ، والظرفية ، والعوض ، والمصاحبة ، والتبويض ، والمجازة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بدل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧) .

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نبتة في منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى : أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .

إذن : فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنشر بها جذور النبات .

وإن سمحت لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن : فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات .

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول شُبِّهَ مَضْرُبُهُ بِمَوْلَدِهِ ، أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون الشىء الممثل به معلوماً ، والشىء المأخوذ كمثله هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم .

وتجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول : لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك : إنه مثل فلان فى الشكل . وهكذا عرَّفَت المجهول بمعلوم .

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا : إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

معلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول في شجرة الزقوم ^(١) : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (٦٤) طَلْعُهَا ^(٢) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾

[الصفات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهي شجرة في النار لا نعرفها ، فيعرفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رؤوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يمثّل لنا شجرة الزقوم بشيء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .

و شاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضى التشبيه ؛ لأن الشيء قد يكون بشعاً في نظرك ، وغير بشع في نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختر الشيء المتفق على بشاعته ، وهو رؤوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبّحه ، وهكذا تتجلى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مبهماً ^(٣) .

وأما المثل الذي نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لا يدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

(١) شجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَبْنَاكَ لِإِنْسَانٍ لِّلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. ﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنها تخرج في أصل الجحيم . وثمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار . [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف].

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، يفتح عن حبّ منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)].

(٣) مبهماً : خافياً . واستبهم الأمر إذا استغلق . والمبهم سمي كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يجعل عليه دليل . ومنه قيل لما لا ينطق «بهيمة» [اللسان : مادة (بهم)].

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ، وما يلحق ، فكل شىء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا .
يقول الحق سبحانه :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأُمْسِ ﴾ (٢٤) [يونس]

والزخرف : هو الشىء الجميل المستميل للنفس وتُسْرُّ به حينما تراه ، وتتزین الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً^(١) وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزینتها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبًّا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَاتٍ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا

(١) حصيداً : محصودة مقطوعة لاشىء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبي ٣٢٥٤ / ٤]

(٢) قال الحسن البصرى : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤٧٢ / ٤ - بتصرف]

(٣) حدائق غلباً ، أى : بساتين . وقيل : هى نخل غلاظ كرام . وقيل : هى الشجر الذى يُستظل به . [تفسير ابن كثير : ٤٧٢ / ٤]

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم وقيل : الأب الكلال . [تفسير ابن كثير : ٤٧٢ / ٤ ، ٤٧٣]

جَاءَتِ الصَّاحَةُ ^(١) (٣٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ
وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴿﴾ . [عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذي تراه إنما تذوى ^(٢) ، وما تراه من بديع
ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدانت الدنيا فهي إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛
لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التي
ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوى كل ذلك .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ
(١٧) وَلَا يَسْتَشُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ . [القلم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال .

(١) الصاخة: قال ابن عباس: هي اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذّر منه . وقال البغوي: الصاخة
يعنى: صيحة يوم القيامة ، سمّيت بذلك ؛ لأنها تصخ الأسماع ، أى: تبالغ فى إسماعها حتى تكاد
تصمها . [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣] .

(٢) تذوى: تذبل . ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فذبلّ وضعف . وذوى عود النبات: يبس .
[اللسان: مادة (ذوى)] .

(٣) هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة
الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا
بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى: اختبرناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه
﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليجذّن ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير
ولا سائل ؛ ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء . ﴿ وَلَا يَسْتَشُونَ ﴾ أى: فيما حلفوا به ، ولهذا
حنّثهم الله فى أيمانهم ، فقال تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى: أصابتها آفة
سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود . وقال الثورى والسدى: أى:
هشياً يسياً . [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٠٦] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَأَزْيَنَتْ ﴾ (٢٤) ﴿

[يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى
ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة. ألم يقل الحق سبحانه في قصة العبد
الصالح : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ^(١) .. ﴾ (٧٧) ﴿ . [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقض ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن
الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ،
وله انفعال يناسبه. وقد ضرب الحق سبحانه لنا في ذلك صوراً شتى ، فنجد
أن الشيء الذي يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا بيان من الله تعالى .

ومثال هذا: معرفة الهدهد في قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ،
وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث
يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم من يستحق
السجود له إذ قال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ^(٢) فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٢٥) ﴿ . [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة
بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبين لنا أن هذا

(١) يريد أن ينقض : الانقراض السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقراض إلى الجدار مجاز عن قرب
سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال من يريد الفعل ، وفي كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى
الْفُضْبُ .. ﴾ (١٥٤) ﴿ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ .. ﴾ (٦١) ﴿ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ
محمد محمد المدني - بتصرف] .

(٢) الخبء : ما خبيء . والخبء الذي في السموات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات .
وقيل : الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى : يعلم الغيب في السموات والأرض . [اللسان : مادة
(خبأ)] .

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هي التي تفسد العقائد ، ومن أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذى يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله تعالى .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة ^(١) ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه ^(٢) ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها ^(٣) .

إذن : فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد فى مثال الهدهد صفاء عقدياً فى التوحيد كأصفي ما يكون المتصوفة ، ويأتى بما يهمه ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) .

[النمل]

(١) التخمة : الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أى : استثقله . وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يشغل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة . [اللسان : مادة وخم] .

(٢) الساعد : ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ . والساعد : ساعد الذراع ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمى ساعداً لمساعدته الكف . وجمع الساعد : سواعد . [اللسان : مادة (سعد)] .

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٦) [الأحزاب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلماً لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم .

إذن : كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان .

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له .

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ .. (٤٦)﴾ .
[الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي الموت . والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ .
[الفصص]

إذن : فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرف الحياة التي في الجماد كالحياة في الإنسان .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطْنَ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا (٢٤)﴾ .
[يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿أَفَأَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ۖ﴾ .. (٩٨) ﴿

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء ، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا^(١) كَأَنْ لَّمْ تَغْن^(٢) بِالْأَمْسِ (٢٤)﴾ .

أى: كأنها لم يكن لها وجود .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع فى الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان ، ثم ينتهى ، ألا يجب أن نتبّه إلى أن كل زخرف إلى زوال ؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها فى شىء ، وأن نحرض على ألا نبغى فى الأرض ؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا ، وهى إلى زوال^(٣) .

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات ، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم « يتفكرون » ، أو « يتذكرون » ، أو « يعقلون » ، أو « يتدبرون » .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة ، فالتعقلُ:

(١) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد ، والمراد بالحصيد هنا: تشبيهه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه . [اللسان : مادة (حصد) - بتصرف] .

(٢) ﴿كَأَنْ لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ﴾ أى: لم تكن عامرة ، والمغنى فى اللغة: المنازل التى يعمرها الناس . وقال قتادة: كأن لم تنعم . وقرأ قتادة (يفن) بالياء ، يذهب به إلى الزخرف ، يعنى: فكما يهلك الزرع هكذا ، كذلك الدنيا . [تفسير القرطبي: ٤ / ٣٢٥٤] .

(٣) يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن] .

هو أن تأتي بالمقدمات ؛ لتستنبط ولتري إلى أى نتائج تصل . والتذكُّر
يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر : هو أن تُعمل الفكر .
والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر^(١) : هو
ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ . [النساء]

أى : اجعل بصيرتك تمحص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع
والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو من يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد
يرهب نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليسترىح فى الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة
لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مذنون ، ولا يعرف
فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخلق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر
إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ،
وأمر الإنسان فيها متيقن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده
سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحت كفة
الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ^(٢) لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ . [العنكبوت]

(١) التدبُّر فى الأمر . التفكر فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره ،
أى : أوله من آخره . ويقال : إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استديره لهدى لوجهة أمره ، أى : لو علم
فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٥) ﴾ [ص] . [اللسان : مادة (دبر) - بتصرف] .

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها
ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبداً . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٢١] .

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهُيَ الْحَيَوانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها .
فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من
الآفات . واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يَدَكَ فى
يد من يدعوك إلى دار السلام .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١)

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ودار السلام : هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ،
هذه الدنيا التى تزهو وتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله
تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغصّات على أهل
الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ،
ولكن فى ظل أرق من أمرين : الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم
وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم .

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه :
﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لمعان منها : ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه

الله : أنجاه . وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسَلِّمَةٌ ، يقول الحق : ﴿ مُسَلِّمَةٌ لِأُشِيَّةٍ فِيهَا

.. ﴾ [البقرة] وأسلم قلبه : أخلص . ودخل فى دين الإسلام ، يقول الحق : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ

أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة] القاموس القويم ج ٢ ص ٣٢٥

مثلما يحدث في الدنيا^(١) ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فنحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى ، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام .

ولله المثلى الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه . إنه سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ^(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ^(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ^(٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ^(٥٨) ﴾ .

[يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يَكُنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

(١) وفي هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ^(٢٦) ﴾ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه تبحر ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أي : تسليمهم على بعضهم ، فهي دار السلام .

(٢) ﴿ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴾ : مرقهون ناعمون بنعيم الجنة . قال تعالى : ﴿ فَكَاهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ^(١٨) ﴾ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف] .

(٣) ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴾ قال المفسرون : الأرائك : السرر في الحجال ، وقيل : هي الفرش . وقيل : الأريكة : سرير منجد مزين في قبة أو بيت . وقيل : الأريكة : هو كل ما اتكئ عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿ مُتَكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الشَّرَابِ .. ^(٢٦) ﴾ [الكهف] . [اللسان : مادة (أرك) - بتصرف] .

من الأغيار^(١)؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء، ولا يُعوزُه شيء، ولا تلحقه أغيار؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٢٤)﴾ [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى، وحتى أصحاب الأعراف^(٢) الذين لم يدخلوا الجنة، ويرون أهل الجنة وأهل النار، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة. وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن؛ لأن الداعي هو الله سبحانه، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه.

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل؛ لينحكم به حركة الحياة حركة إيمانية، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وفق منهج الله تعالى، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج^(٣) الله سبحانه.

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة؛ فاعلم أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عطل.

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل، لأن وعده الحق، وقوله الصدق، وهو السلام، ومنه السلام.

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك، ينتظرون عفو الله عنهم، وفيهم قال سبحانه: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [الأعراف].

(٣) منهج الله تعالى: طريقه وشريعته، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا (٤٨)﴾ [المائدة]. فقد وضع منهجاً للروح سموماً، وللقلب حباً، وللنفس سكيناً وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة. ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بعقيدة توحده، وعبادة تحبه وتخشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير في المنهج نحو الله جل علاه.

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذي يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه .

وأنت إن رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلم أن هناك مَنْ عَطَلَ منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمراً^(١) بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى في هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه .

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان: هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ . (٩) . [يونس]

إذن: فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهى المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه: ﴿ نورهَم يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِإِيمَانِهِمْ .. ﴾ (٨) . [التحريم]

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢٥) . [يونس]

لأن كل شيء فى هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شيء .

وإذا كان الله قد بين من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بين لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧) . [التوبة]

(١) استمراً : استحسن الشيء واعتاده . [اللسان : مادة (مراً) - بتصرف] .

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ . [التوبة]

إذن: فقد بين الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقولن أحد : وما ذنب الكافرين والفاسيقين ^(١) ؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذ به ؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه ، ويدخله الجنة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٦٦)﴾

وكلمة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا: «امرأة فضلى» ونقول أيضاً: امرأة كبرى ، وهى أفعل تفضيل ، أى: مبالغة فى الفضل ^(٢) .

والمقصود بقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى: بالغوا فى أداء الحسنات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة ؟

نقول: هى عطاء زائد فى الحسنات ، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنات ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٧٤)﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٧٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٧٦)﴾ [طه] .

(٢) أفعل التفضيل: اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى ، وزاد أحدهما فيه على الآخر. مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا: نعم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا . وعند التأنيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعلى) مثل: (حُسنى - فضلى - كُبْرى) . انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى : ٣ / ٣٩٤ - ٤١٥) .

فبواحدة^(١) . وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يَشَاءُ .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوى الشيء ، وفضل الله تعالى في أن يجزى على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا... ﴾ (٥٨)

[يونس]

وقال قوم من العازفين بالله : إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك : «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم . فيقولون : ألم تبيّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»^(٢)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا يَرَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ ﴾ أى : لا يغطي وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ (٢٢) إلى ربها نَاطِرَةٌ ﴿ (٢٣) ﴾ .

[القيامة]

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : «إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبها سيئة واحدة» أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٨) والبخارى في صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد في مستدركه (٣٣٢/٤) والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي .

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَوَجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤١) تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ ^(١) (٤١) ﴾ .
[عبس]

وترهقها: أى: تغطيها ، وقطرة تعنى: الغبار ، وهى مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذى يمتلىء بدخان الدهن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن من يوضع على وجهه هذا القُتار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا يَرَهُقُ وَجُوهُهُمْ قَتْرٌ وَلَا ذَلَّةٌ (٢٦) ﴾ [يونس]
لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ .. (١٠٦) ﴾

[آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾

[يونس]

أى: أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى: من يملكونها .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) القَتْرُ: جمع القَتْرَة ، وهى العَبْرَة . وفى التهذيب: القطرة غبرة يعلوها سواد كالدخان ، والقَتَارُ: ريح القدر ، وقد يكون من الشواء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشوى . وفى حديث جابر ، رضى الله عنه : لا تؤذ جارك بقَتَارِ قَدْرِكَ . [اللسان : مادة (قتر)].

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ ٢٧ ﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَثِيرًا .. ﴾ (٨٢) . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة^(١) في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ [الأنفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يشعّ رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴾ (٢٧) ﴿ يونس ﴾

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يُذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا مَرْهَمَ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنَاهِمُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لُهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (١٥٧) [الأعراف] . انظر : الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (٣ / ٢٨٤ - ٢٨٧) .

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون في الأمر الفطرى ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن يصلّى ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذى يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشيء يفضح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشيء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان فى ارتكاب المعاصى حتى تصير دُرْبَةً ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروى ما يفعله من معاص وأثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاص وأثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازى مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ لَا يَرَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذبهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألا يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ كَأَنَّمَا
أَغْشَيْتَ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد
غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾ .

هذا هو حال الذين كذبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتابَّوا عن
دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء
من دون الله تعالى .

و شاء الحق سبحانه أن يُجلِّي لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون
كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من
هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَزَقْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ
مَا كُنْتُمْ إِلَّا أَنْتَ عَبْدُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف
هذه الأمكنة المتعددة من فيها من الكفرة ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاء
الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى في المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلقى بهم في المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة ^(١) .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه الْمُتَّخِذَ أَنْدَادًا ^(٢) ، وَالمُتَّخِذَ نَدًا ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعمامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ .. (٢٨) ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولا وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

(١) عن عائشة رضی الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة عُرْلًا » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٩) والبخاري (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتمنون أن ينتهي يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) الند : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم] أى : أضداداً وأشياءها . وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله (١٦٥) ﴾ [البقرة] [اللسان : مادة (ندد)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذي اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا في الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذي له علم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز في شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت ولئنا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) [البقرة].

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قممهم الرسل عليهم السلام ، فيأتي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة].

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه في القرآن الكريم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة].

فكان هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يدعُ إليه

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقبل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة ^(١) . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴿

[الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نخضع أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الأمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجة ^(٢) موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان بيكى يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١) .

(٢) المحاجة : المغالبة والجدال . والحجة : الدليل والبرهان . وحجته وحاجته : غلبه على حجته . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ ﴾ (٢٥) ﴿ [آل عمران] قال الأزهرى : إنما سميت الحججة حججة ؛ لأنها تُحجج ، أى : تُقصد لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحجَّة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة (حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم^(١) .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هي التي تمكن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن العُصاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمى شيطانا ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، فيتسلط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزين له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس في الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَغويهم أجمعين ﴾ (٨٧) إلا عبادك منهم المخلصين ﴿ (٨٨) ﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم في سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، وعن أبى سعيد الخدرى فى حديث أن إبليس قال : « يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله تعالى : وعزتي وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » أخرجه أحمد فى مسنده (٢٩/٣) والحاكم فى مستدرکه (٢٦١/٤) وصححه وأقره الذهبى .

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومن عبدوهم من البشر؟
وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها؟ وهل يكون
الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبُدُ لِلَّهِ مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ^(١)»

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..

[الإسراء]

﴿٤٤﴾

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا عَلَيْنَا دَلِيلًا فَغَدَوْنَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ»

والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

[البقرة]

وَالْحِجَارَةُ .. ﴿٢٤﴾

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلًا كَمَا تَجَنَّنَا عَلِي ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِي^(٢)»

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك؟ فنقول :

إِنَّ لِلْمَعَالِي جَزَاءَهُ ، وَالْمَعَالَى فِيهِ تُنَجِّيه رَحْمَةُ الْغَفَّارِ .

وهكذا وَضَحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

(١) الأسحار : جمع السحر وهو آخر الليل قبيل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار

هم المتعبدون المتجهدون بالليل .

(٢) أى : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالذبيح

الأيض الذي ينقى من اللباب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ (٢٨) ﴿١﴾

[يونس]

وهكذا يُحْشَرُ مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون في الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع في الدنيا أن في الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفْضَحُ فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ (٢٨) ﴿٢﴾

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعني : «الزم مكانك» وهي لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون في صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلات من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ ، فهل يعني ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومنْ عبد من الرسل والكواكب والحجارة في موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ، ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانًا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿٣﴾

[يونس]

(١) نحشرهم : نجمعهم للحساب . ومنه يوم المحشر . والحشر : جمع الناس يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٧) ﴿البقرة﴾ .

(٢) زَيْلُنَا بَيْنَهُمْ : قَرَفْنَا بَيْنَهُمْ . وَالتَّرَائِلُ : التَّيَابِنُ . قال تعالى : ﴿لَوْ تَرَىٰ ذُنُوبَكُمْ كَرِهُوا مِمَّنْ عَذَابُوا أَيَّامًا﴾ (٢٥) ﴿الفتح﴾ [اللسان : مادة (ز ي ل)].

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عبَدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقٌ من عبِدُوا دون علمهم : ﴿ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. (٢٨) ﴾ [يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المُخزى لمن عبَدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدري به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تصدق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضاً على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنطق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١) ﴾

[فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن من عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إن عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرّجل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شئاً يتبدّل في الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل في الجنة ،
ولا تُخْرِجُ فضلات ^(١) ؟

وهذا أمر غير منطقي - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو قسناها بعقولنا على ما نعرف في الدنيا لوقفنا أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مطروف ^(٢) بين السماء والأرض . وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ..

[إبراهيم]

﴿٤٨﴾

إذن : فكل شئ يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حدثت أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبودها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ ﴿٤٩﴾

إذن : فالكائنات التي عبّدت من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً في الهدهد - قد أعلن من قبل إندهاشه

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح أو رشح كرشح المسك ، يُلْهُمُونَ التسبيح والتحميد» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٦٤) .

(٢) أى : أن الإنسان مخل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة في كل منهما .

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى^(١) .

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد علم الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فلاستنكار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب .

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ أَهَلْوَالَاءُ
إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ .. (٤٠) ﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكة بقولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ الْجِنَّ .. (٤١) ﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سور القرآن الكريم عرضاً
مشوراً^(٢) مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول
الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ^(٣) مِنْ
الْإِنْسِ .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

ويقول على السنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي
أَجَلْتَ لَنَا .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

(١) وذلك في قصة الهدهد مع سليمان : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٢) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [النمل] .

(٢) المنثور : الشيء يُلْقَى متفرقاً هنا وهناك كالحب وغيره . [اللسان : مادة نثر] .

(٣) أى : أضللت منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم .

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن .

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس ؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصاً تختلف عن خواص الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾^(١) من حيث لا ترونهم .. (٢٧) ﴿ [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين . وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قار^(٢) ، أى : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة .

بمعنى : أنك لو كنت تجلس فى حجرة ، وخلف ظهرك فى الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالسائر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة .

أما لو كانت هناك تفاحة - وهى مخلوقة من الطين - موجودة فى الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك .

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه . وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نقلت الجرم^(٣) إلى المكان الذى توجد فيه .

(١) القبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى ، كالعرب ، والروم ، والزيغ ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة . وكل جيل من الجن والناس قبيل . قال تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِي بَالِغًا أَلْمَلَأْنَا قَبِيلًا ﴾ (٢٧) [الإسراء] . [اللسان : مادة (قبيل)] .

(٢) قار : أى : مستقر فى مكانه لا ينتقل منه شيء إلا إذا نقلته أنت . يقال : فلان قار ، أى : ساكن ثابت . [اللسان : مادة (قر)] .

(٣) الجرم : الجسم . والجمع (الأجرام) .

ونلمح هذه المسألة التقنية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير في الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتي لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو في مجلسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .. (٣٨) ﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان في مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين في قدراتهم ما قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي .. (٣٨) ﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراه سليمان عفريت من الجن - لا جنأ عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكي ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضاً ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات^(١) ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذي يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادي - ممن كان حاضراً مجلس سليمان - فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس في قدرته ، أما الذي تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ^(٢) .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .. (٤١) ﴾ [النمل]

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس في مظالمهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس ^(١) ، ولم يأخذ الجنى خواصه في الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوّن سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يذكّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس .

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على من يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رهقاً ^(٢)

واقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنِ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۗ ۝١٠٧﴾

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس .

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه الناري تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مددية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلى ذلك في أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٢٤) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٢٥) [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهي ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (٢٦) [الجن] أى : ذلة وضعفاً . قال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلهما فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٤٢٨) .

ولكن الملكين هاروت وماروت ^(١) حينما عَلَّمَا الإنسان السحر حذرًا
أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ،
إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقىَ نفسك من الشر لا لتوقعه
بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت
التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتي لك إنسان ليُودِعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن
أتظل على الأمانة، أم أنك قد تنكَّر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه، أو قد
تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكي هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظْ عليك مالك ،
لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو
القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ^(٢) عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الاحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤمن، ولا حجة للمؤمن عنده إلا ذمته،
ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق
فيها ؛ إلا ذمة المؤمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزلا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى
العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمنا أحداً حتى
يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن
عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لأدم : إني قد عرضت
الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت أخذ بما فيها؟ قال : يارب وما فيها؟ قال :
إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤمن عند المؤمن خاضعٌ لخيار المؤمن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخلَ أنفسنا في هذه التجربة ، افعَل بنا ما شئت واجعلنا مقهورين ولا اختيار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبِلَ الإنسان حَمْلَ الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظنَّ في نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضرَّ عن نفسي ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْرَمْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقِّق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بَعْضًا .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

واستماع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستماع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقسم إبليس اللعين : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ^(١) أَجْمَعِينَ .. (٨٢) ﴾ [ص]

(١) الإغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿ فَأُغْوِيَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) ﴾ [الصفات] . [اللسان : مادة غوى] .

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٨٩٣

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ ﴾ (٦) . [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن .

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبْرَةً ، وفى ذريته أفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع^(١) أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه .

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره .

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَرَ الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألاً يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ^(٢) ۖ ﴾ (١٢٨) . [الأنعام]

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه . و«أكتع» يجيء فى التوكيد إتباعاً ، فىقال : جاء الجيش أجمع أكتع . [المعجم الوسيط : مادة (كتع)].

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار . والجمع : المثاوى . قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمُ النَّارُ بِمَثْوَى الظَّالِمِينَ

﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (نوى)].

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذي استخدم الجن ، وللجن الذي أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى في هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ الْأَخْلَاءُ ﴾ ^(١) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

[الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التي يجمع أفرادها صحة ومودة ، ويتخلل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخلة ^(٢) في الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يرده عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتصرون ، وتدور حياتهم في إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحاببا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه» ^(٣) وهذا لون من الخلة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصي ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَّةَ .. ﴾ (٢٥٤) [البقرة]

فلا خلة إلا خلة اللقاء في الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء في الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

(١) الأخلاء : جمع (خليل) وهو الصديق . قال تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً .. ﴾ (١٥٥) [النساء] .

وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَى لَمِ أُنْخِذْ فَلَنَا خَلِيلاً ﴾ (٤٨) [الفرقان] .

[اللسان : مادة (خ ل ل)] .

(٢) الخلة : الصداقة والمحبة . والخل : الود والصديق . [اللسان : مادة (خ ل ل)] .

(٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحاببا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم بيمنه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) والبخاري في صحيحه (٦٦٠) .

يجتمعون في الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) ﴿

[الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

[إبراهيم]

.. ﴿ (٢١) ﴿

فإرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا ^(١) أَمْ صَبَرْنَا

[إبراهيم]

مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ^(٢) .. ﴿ (٢١) ﴿

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ^(٣) إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ^(٤) ..

[إبراهيم]

﴿ (٢٢) ﴿

(١) الجَزَعُ : نقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)].

(٢) محيص : مهرب . قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حيص)].

(٣) السلطان : سلطان القهر في قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهدد الهدمد : ﴿ لِأَعْدِيَّتِهِ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بسلطانٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل] .

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والصريخ : المغيث . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ..

﴿ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ [يس] .

[اللسان : مادة (صرخ)].

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. ﴾ (١٦) [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرننا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿ فَكُفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (٢٩) [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبِدَ من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .
ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ أَحْشَرُوا ^(١) الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) [الصافات]

ولنتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يُهَيِّئُ الانحراف إلى ما يريد ^(٢) .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٢٤) [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) احشروا : اجمعوا . والحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب . [اللسان : مادة (حشر)] .

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. ﴾ (٤٤) [التغابن] .

﴿ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُورُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصفات]

أى : كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظن ظانُّ أنها قوة
البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أىّ قوة ، حتى وإن كانت
قوة الإغواء .

إذن : فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين
الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله : ﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى
الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزيّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه
على الطاعة .

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا لِلَّذِينَ أُضِلَّانَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٢) نَجْعَلُهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف
بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالشرق ، والآخر
بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فى » ذكره ابن كثير فى تفسيره
(٤/ ١٣٤) وعزاه للحافظ ابن عساکر .

(٢) عن على بن أبى طالب أن ﴿ الَّذِينَ أُضِلَّانَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من
عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى
الأرض . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٩٨) .

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا^(١) عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عبد ، وحتى الأصنام ، من الذين عبدوهم في الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :^(٢)

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ﴾ يعني : في هذا الوقت ، أو في هذا المكان . والزمان والمكان هما ظرفاً الحدث ؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو الغالب ، فيأتي ظرف الزمان ، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان .

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

أى : في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم - رضى الله عنها - قوله أدت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذى يأتي لها بالطعام ، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلمه هى . يقول

(١) إِنْ كُنَّا : أى : ما كنا . فَإِنَّ هُنَالِكَ ، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى : ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَىٰ .. ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة] .

(٢) ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [يونس] : تذوق جزء ما عملت وقدمت . وقيل : تختبر . وقيل : تتبع ، أى : تتبع كل نفس ما قدمت في الدنيا . وقرأ حمزة والكسائي «تتلو» أى : تقرأ كل نفس كتابها الذى كتب عليها . [تفسير القرطبي ٤ / ٣٢٦١ وابن كثير ٢ / ٤١٦٧] .

سبحانه: ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا .. (٣٧)﴾

[آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شىء
تحتاجه ، لكنه فوجيء بوجود رزق لم يأت هو به ؛ بدليل أنه قال:

﴿أَنْتَى ^(١) لَكَ هَذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به .
وهذه هى قضية «من أين لك هذا؟» ، وهى قضية الكفيل العام للمجتمع
حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته فى الحياة ، وبذلك يُكتشف
مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ
على معرفة من أين تأتى مصادر دخله ؛ لَحَمَى المجتمع من الفساد .

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذى

ذكره رب العزة سبحانه: ﴿أَنْتَى لَكَ هَذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

ثم تعلل الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(٢) .. (٣٧)﴾

[آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد فى مثل هذا الوقت من

(١) أنتى لك هذا؟ : كيف ومن أين لك هذا؟

(٢) لله فى عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب بقدر ما تقدمه من خير وعمل صالح ، يُقاس العطاء بمقياس العدل الإلهي . أما الرزق الذى بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٦)﴾ [الأنعام] .
إذن : فكون الرزق هنا بلا حدٍّ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَرَقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣١٢)﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجب سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين :
 شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأن وجد
 عندها عنياً في زمن غير أوانه ، أو وجد برتقلاً في غير أوانه ^(١) ، وسؤاله
 كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
 مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. ﴾ (٣٧) [آل عمران]

وما دام ﴿ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت
 للأشياء في ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله
 تعالى يرزق من يشاء بغير حساب ؟

فتقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ ؛
 فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكّر زكريا نفسه ،
 كرجل بلغ من الكبر عتياً ^(٢) ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من
 يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته
 صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴾ (٣٨) [آل عمران]

أى : في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ،
 وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ
 خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً .. ﴾ (٩) [مريم]

(١) ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الصُّجْرَابُ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا .. ﴾ (٣٧) [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة
 وآخرون : معنى : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . وهذا فيه دلالة
 على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١/٣٦٠] .

(٢) عتاً الشيخ عتياً وعتياً وعتياً : كبر وأسن . [اللسان : مادة (عتى)] .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أي ظاناً من أن يسىء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها في موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفي غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذي دعت به امرأة عمران :

﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ^(١) وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هي لها، حين يبشرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهي ستلد من غير أن يمسيها ذكر ، وهي تعلم أن الأسباب جارية في أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت : ﴿رَبِّ أَنْتَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ .. (٤٧)﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. (٤٥)﴾ [آل عمران]

فيعظمتها الإيمانية فظنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

(١) تقبل الشيء وقبوله دليل على أخذ الشيء برضا ، فأنت قد تأخذ بكره أو على مضض ، أما أن تتقبل ذلك يعني الأخذ بقبول ورضا . أما القبول الحسن فهو زيادة في الرضا .

أباه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زواج ولو فيما بعد ،
وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التي ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران]

وهنا في الآية التي تحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق سبحانه :
﴿هَذَا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْأَلَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس]

أى : فى ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا؟ فإن
كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شراً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(١) الْحَقِّ .. (٢٠)﴾ [يونس]
وكانهم كانوا فى الدنيا عند مولى آخر غير الإله الحق سبحانه ، والمولى
غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس موالى لهم ،
وهنا فى اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضدِّ ، وجاءوا له ،
بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضدِّ ، ثم رُدُّوا إليه
ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمَّه .. (١٣)﴾ [القصص]

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقتها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(٢) الْحَقِّ .. (٢٠)﴾ [يونس]

(١) المولى : التصير والمولى الذى يلى عليك أمرك ، ولا يملك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين
الذى تفزع إليه فى شدائدك .

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ .. (٢٠)﴾ [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال
فى آية أخرى : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ .. (١٧)﴾ [محمد] . فهو سبحانه ليس مولى لهم فى النضرة
والمعونة ، بل هو مولى لهم فى الرزق وإدراك النعم .

أى: أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفى هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه .

والإنسان يكون مع ربه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أى ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى ^(١) ، وهم فى ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولى وسيد وأمر ومشرع ، لكنه مولى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذى لا تدركه الأغيار .

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٢٠) ﴾ [يونس]

أى: عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيحته فى جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٠) ﴾ [يونس]

أى: أن الآلهة التى عبدوها لا تتعرف إلى أمكتهم ومواقعهم ، وأنهم فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شىء من الحق ؛ ووجدوهم فى مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكنهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .. (٢٠) ﴾ [يونس]

أى: ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً .

وبعد أن كشف - سبحانه - المسألة وما سوف يحدث فى الآخرة ،

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم قال : ﴿ فَطَرْتُمُوهَ اللَّهُ أَلْبَنِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .. (٢٠) ﴾ [الروم] . متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨) .

وَحَوْفَهُمْ وَبَشَعَ لَهُمْ مَا سَوْفَ يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ مَصِيرٍ إِنْ ظَلَمُوا عَلَى الْكُفْرِ ؛
لَعَلَّهُمْ يَرْتَدِعُونَ ^(١) ، وَيَتَذَكَّرُونَ ضَرُورَةَ الْعُودَةِ إِلَى عِبَادَةِ الْإِلَهِ الْحَقِّ
سُبْحَانَهُ ، يَأْتِي الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يَعِيدُ إِلَيْهِمْ رُشْدَ الْإِيمَانِ فِي
نَفْسِهِمْ ، فَيَقُولُ :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَعَلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ،
ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق في أن المسئول لو أدار في ذهنه كل
الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - والله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى
يهملنى ، فتمسك به ، وتساله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم
ويطعمك ويُعَلِّمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن
يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت
تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو
في المسألة .

(١) الارتداع : الكف عن الشيء . وتراجع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفروهم عن المعاصي
وإيذاء الناس . [وانظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) فى الآية منطق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب
الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدبر هو الله .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٥٩٠٥

والحق سبحانه وتعالى قال في بداية هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدئ بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)

[الصد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخلق ، ويختلف عن خطاب الخلق للخلق ، فحين تقول لابنك: «اذهب إلى عمك ، وقل له كذا». فالابن يذهب إلى العم ويقول له منطوق رسالة الأب ، دون أن يقول له: «قل» ، أما خطاب الحق سبحانه للخلق ، فقد شاء سبحانه أن يبلغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين في البلاغ عن الله تعالى ، لا يترك كلمة واحدة من الوحي دون أن يبلغها للبشر ، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى أمره ، فهو يبلغ ما أمر ، حتى لا يحرم أذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه.

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (٢١)

[يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُتَّفَع به ، والانتفاع الأول مَقُومٌ حياة ، والثانى تَرْفٌ أو كماليات حياة ، والرزق الذى هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء ، ونبات يخرج من الأرض^(١).

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدماً ، فلم يقل لرسوله ﷺ: «أجب أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم.

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

[يونس]

..﴾ (٢١)

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبًّا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدائقَ غَلًّا (٣٠) وَقَابِئَةً وَابًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴿[عبس].

والسمع والبصر هما السيدان للملكات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات^(١) له وسائل متعددة ، إن أردت أن تدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإن أردت أن تدرك نعومة ؛ فبلمسك وبيشرك ، وإن أردت أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإن أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإن أردت أن تسمع فبأذتك .

وكذلك تتجلى لك المرائي^(٢) بعينيك ، ثم تأتي إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتكون أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهي أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة في النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن: فوسائل العلم للكائن الحي هي الحواس ، وهذه الحواس تعطي العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك في الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن: فمراحل الإدراك هي: إدراك حسي ، وتفكير عقلي ، فانتهاه عقدي ؛ ولذلك نسمي الدين عقيدة .

أى: أنك عقدت الشيء في يقينك بصورة لا تحلّه بعدها من جديد لتحلّه ، فهذا يُسمى عقيدة .

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر التأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راء ، وما يقع عليه البصر فهو مرئي ، والجمع : مرائي .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)

[النحل]

لذلك يقال : « كما ولدته أمه » ، أى : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسمع ، وهما أهم آلتين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خرم^(١) .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة^(٢) العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : « ونشمّ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين » . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

(١) ذكره الشريف الرضى فى كتابه «نهج البلاغة» (٤/٤) طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت .
(٢) شحمة العين : مقلتها ، وقيل : حلقها أو ما تحت الحديقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو معلق القُرط . [اللسان : مادة (شحم)] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الخواس هي الخواس الخمس الظاهرة .

وهلذا يعنى أن هناك خواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهي حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البينَ بَيْنَ ، التي نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذلك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين ^(١) .

وكذلك حاسة العَضَل التي تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذي يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حَمَلٍ ثَقَلٍ آخر .

وحين نظر العلماء في معانى الألفاظ قالوا: «النظائر حين تخالف فلا بد من علة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه في آلة الإدراك «السمع» ، وقال في الآلة الثانية «الإبصار» ؟ ، ولماذا جاء السمع بالإنفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأت بالاثنين على وتيرة ^(٢) واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإن أردت أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

(١) وهذا غير حاسة اللمس التي تدرك بها تعومة أو خشونة هذا القماش أو ذلك ، فهذا يُدرك بحاسة اللمس وعادة يكون هذا بإمرار كف اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذلك فيكون بإدراكه بهذه الحاسة .

(٢) الوتيرة : الطريقة . مأخوذة من التواتر أى : التابع ، وجرت الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)] .

بعينيك إلى اليمين ، وإن أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغير من وقفك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد .

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يعطلها ، وقد أعطانا الحق مثلاً لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١٧)﴾ [الكهف]

فَعَطَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَسْمَاعَهُمْ بِأَنْ ضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ ، فَذَهَبُوا فِي نَوْمٍ اسْتَمَرَ ثَلَاثَةَ قُرُونٍ مِنَ الزَّمَنِ وَازْدَادُوا تَسْعًا .

كيف حدث هذا ؟ .. إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَكَّيْتُمْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَكْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا .. (١٨)﴾ [الكهف]

ونلاحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّنْ يَمَلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (٣١) [يونس]

بينما يقول في آية أخرى في سورة السجدة : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (٩) [السجدة]

ولا بد أن نتتبه إلى الفارق بين «الْخَلْقُ» و«الْجَعْلُ» ، و«الْمَلِكُ» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكيته كل شيء لله - تعالى - أمر مُلْزَمٌ في العقيدة ، ومعروف ، أما «الْجَعْلُ» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشري ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿ أَمَّنْ يَمَلِكُ ﴾ ، فمن خلق هو الله تعالى ، ومن جعل هو الله تعالى ، ومن ملك هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يملكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خلقت في الإنسان ، وجُعِلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل ملكاً لله ، يقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بأفة ، أو يعطلها^(١) .

إذن : فهي خلقت لله ، وجُعِلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، وبُصيرُها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة الله ..

(١) يقول سبحانه : ﴿ يَكَادُ الرِّيحُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْرُوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكل حيوان جلدًا ؛ نتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين: جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّمَ استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّمَ استخدام جلد الخنزير ؛ ليدلَّ على حرمة ونجاسته .

وعلينا أن نتنبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وَجَعَلَ وَمَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّمَ الجنة على المُتَحَرِّ (١) ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملكَ نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذي رزق ، وهو - سبحانه - الذي يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. ﴾ (٢١) ﴿ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ (٨٨) ﴿ [الفصص]

وما دام كل شيء سيأتي له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء حياة ، إلا أن حياتنا نحن في ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكونُ الجسمُ الحيوانات المنوية في الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهما يأتي الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصبة ؛ لأن البيضة

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصبة لا تُخرج كتكوتاً ؛ فهي بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيت دون أن توضع في الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعت في الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجت نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ .. (٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ؛ حتى يؤدي مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك .

إياك أن تقول : إننى أنا الذى أدير ذلك ؟ ونقول : كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومن الذى يدير حركة رثيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتك التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيوم لا تأخذه سنة ^(١) ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك ^(٢) .

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى - الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾

[يونس]

إذن : أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

(١) السنة : النعاس من غير نوم . وقيل : السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . [اللسان مادة : وسن] .

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى : لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه . يقال : آده الأمر : بلغ منه المجهود والمشقة . [اللسان مادة : أوذ] .

أما كان يجب أن نقول: يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منا ؛ لنعمر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبى ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلفته بشيء ؟ ... لا .

إذن: يتساوى عندها مَنْ عبدها ، وَمَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢١) [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقربكم من آثار صفات الجمال^(١) وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار .

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق ، فالحق سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..﴾ (٨٧) [الزخرف]

ويقول أيضاً: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..﴾ (٢٥) [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

(١) صفات الجمال هي صفات الرحمة والغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهي صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز . فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل فى عباد الله المتقين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۗ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾^(١)

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قبلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ .. ﴾ (٣٢) [يونس]

ولا يوجد في الكون حقان^(٢) ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. ﴾ (٣٢) [يونس]

إذن : أنتم إن وجهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتكم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، ففتجه إلى طريق لا يوصل إليها . فإن صرّفتكم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال . ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ .. ﴾ (٣٢) [يونس]

(١) فأنى تُصْرَفُونَ : أى : كيف تُصْرَفُونَ عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحى ولا يميت . [تفسير القرطبي ٣/٤ ٣٢٦٧]

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشرى ولكنه بمنهج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق مخاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر بنية المخالفة والمغالطة .

أى: أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ،
والحقُّ واحد ثابت لا يتغير .

وَمَنْ عَبْدَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْكَوَاكِبِ أَوْ النُّجُومِ ؛ أَوْ بَعْضَ رِسْلِ اللَّهِ - عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ - أَوْ صَنَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ ؛ فَقَدْ هَوَى إِلَى الضَّلَالِ .

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فلنقرأ معاً قول الحق سبحانه
وتعالى بعد ذلك :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر
جميعاً ، ومن ملك السمع والبصر ، ومن تدبير الأمر كله ، ومن إخراج
الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ،
وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مقدماً ألا إجابة
له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. ﴾ (٣٢) .

ومثل هذه القضية تماماً قولُ الحق سبحانه : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٣) [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوجدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن
يُعذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق .

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن
بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحل على مَنْ لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمن سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حَقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا يتهنون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والربِّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزليُّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) ﴿ [البقرة] [١] إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ ، وَمَنْ يَسْتَمِرُّ وَيُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ ؛ هُوَ الَّذِي يَلْقَى الْعَذَابَ ، يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففي ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى في الأم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجِّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذي يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت في ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد في الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التي يمكن أن يسيروا فيها

(١) في الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : المجتمع الإيماني مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ﴿ [التور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن: فالتفكير في الخير لصالح الأمم أمر طبيعي غريزي موجود في كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوي للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ
اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تَوْفُوكُونَ ^(١) ﴾

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم: ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾ (٣٤) [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإن قال قائل: وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

(١) الإفك: الكذب والإثم. أتى توفكون: كيف تكذبون؟ [اللسان: مادة (أفك)] والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك في افتراء متخيل ومبالغته باهنة لها التأثير المضر على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُمْ شُرَاءَ لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور] ، ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه عبر بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول: إن الذي يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج^(١) ، وللحق صَوْلَةٌ^(٢) ؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق في أمر ما ، تجدها قد فعلت فعلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته^(٣) .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿ فَيَقُولُونَ اللَّهُ .. ﴾ (٣١)

[يونس]

بل قال: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾ (٣٤)

[يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرمهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

(١) اللجلجة: اختلاط الأصوات . قال أبو زيد: يقال: «الخط أبلج، والباطل لجلج»، والأبلج: المضىء المستقيم . أما اللجلج فهو المخلط المعوج والمتردد غير المستقر . [اللسان: مادة (لجج) - بتصرف].

(٢) الصَوْلَةُ: الوَيْبَةُ والقُوَّةُ على إزهاق الباطل .

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وقد قصه الله عز وجل في قرآنه: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ﴾ (٢٥٨) [البقرة] ، فبهت ، أى فوجيء بالحجة ومنطقها فتحير في جوابه ولم يجد رداً .

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، وإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذى قد ينطق الكفر ، هو فى الحقيقة مؤمن مُسَبِّحٌ ، حامد ، شاكِر ، لكن إرادة الإنسان التى شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعياذ بالله - فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية ^(١) ، إنما هى خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبي ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ وَهُوَ بِذَلِكَ يُؤَكِّدُ الصِّغَةَ ، وَيَكْفَى أَنْ يَقُولَ مُحَمَّدٌ ﷺ هَذَا الْقَوْلُ مُبَلِّغًا عَنْ رَبِّهِ ، وَيُنَالُ هَذَا الْقَوْلُ شَرَفَ الْعِنْدِيَةِ : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣٤) .

والإفك : هو الكذب المتعمد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أى : أن يعلم الإنسان الحقيقة

(١) بدليل أنها ستأتى يوم القيامة وتصبح هى الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤) [النور] .

ويقلبها^(١)؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة؛ فمنهم من قال: هناك صدق، وهناك كذب، لكن علماء آخرين قالوا: لا، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب.

ومثال ذلك: أن يدخل ابنُ علي أبيه، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان، فيقول الابن لوالده: هناك حريق في بيت فلان؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق، وإن لم يكن هناك حريق فالحبر كاذب، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع.

إذن: فهناك فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر، فمرة يصدق الخبر ويصدق المخبر، ومرة يصدق الخبر ولا يصدق المخبر، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر.

فهنا أربعة مواقف، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم من قالوا: إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر. أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر.

لذلك يجب أن نفرق بين صدق الخبر في ذاته، وصدق المخبر؛ بأنه يقول ما يعتقد. أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَأَنى تُوَفُّكُونَ﴾ أى: فكيف تقلبون الحقائق؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾^(٢) [النجم]

(١) المؤتفكة: البلدة التي انتفكت بأهلها أى: انقلبت. والانتفك: الانقلاب. [اللسان: مادة (أفك)]. وقال ابن كثير: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم]: يعنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم، فجعل عاليها سافلها. [تفسير ابن كثير: ٢٥٩/٤ - بتصرف].

(٢) وهو الذى قصده رسول الله ﷺ فى قوله: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهذى إلى الفجور، وإن الفجور يهذى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤).

والمؤتفكة: هي القرى التي كُفنت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذّاب
يقلب الحقيقة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي
لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي
إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٣٥)

وهذا أمر للرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له
إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل
كائن مخلوق لغاية ، فلا شيء يُخلق عبثاً ^(١) .

ونحن بقدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و(التليفزيون) أو السلاجة
أو السرير وغيرها ، كلّ منها له غاية ، وكل له قوانين صيانتها الخاصة به ،
والذى يحدّد الغاية من هذا المصنوع أو ذلك هو صانعه ، ويضع لها قوانين
صيانتها ؛ لتؤدّي غايتها ، فالغاية من أى شيء توجد قبل الشيء نفسه ؛
ليوجد الشيء على مقتضى الغاية منه .

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم
يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء
وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان
للقوانين التي وضعها خالق الإنسان سبحانه .

(١) يقول تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) ﴿ المؤمنون ﴾
وقال سبحانه في الذاريات : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) ﴿ الذاريات ﴾ فللخلق غاية
وحكمة وهي العبادة بمعناها المطلق أى : الطاعة .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خلق الإنسان وحدد قوانين صيانه ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) .

أى : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدى الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟ إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إمطة الأذى عن الطريق ^(١) ، وهو منهج مستوعب مستوف لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) . [الذرايات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط ، بل هى عمارة الكون كبنيان حى

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥) .

للإسلام ، والذي حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذى يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب فى الوصول إلى مكان فى الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذى يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التى تنزل على هضاب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨)

فمن خلق هو الذى يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة فى قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذى خلقنى يهدينى ، بل قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذى خلق هو

الذى يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :
﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٧٩)

[الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء
قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ
يَحْيِينِ ﴾ (٨١)

[الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك
الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ ﴾ (٨٠)

[الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو
يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴾ (٧٨)

[الشعراء]

هو كلام منطقي ؛ لأن خالق الشيء هو الذى يهذى إلى الغاية من
الشيء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك
الغاية ، فإذا خولف فى شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٥٠)

[طه]

(١) عن أبي رمة رضى الله عنه قال : انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة ، بها ردع حناء وعليه
بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى يظهره فىنى رجل طبيب . قال : « الله الطبيب ، بل أنت
رجل رفیق ، طبيبها الذى خلقها » .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدي إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهديننا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ لأنه سبحانه هو الذي خلق ؛ ولذلك فمن المنطقي أن يأتي بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى .. (٣٥) ﴾ ؟

وسبب وجود اللام في قوله : ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه في آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت في الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرّد بالألوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَمٍ ، ورزق من عُدَمٍ ، وخلق لنا وسائل العلم ودبر لنا الأمر ، وأخرج الحى من الميت ، وأخرج الميت من الحى ، وهدى للحق ..

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء ^(٢) ؟

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى .. (٢) ﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليفة وسَوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .. (٣) ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتها . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٥٠٠] .

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤) ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

[يونس]

﴿ (٣٥) .. ﴾

إذن : فالذى يهدى هو الذى خَلَقَ ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا
بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٨٧)

[الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن
يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتِنَ بهم بعض الناس ،
وهناك من اتخذ وسائل أخرى مثل : الشمس والقمر والنجوم ؛ وهذه
أشياء علوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائل سفلية كالأشجار والأحجار ،
فهل أى شىء من كل ذلك يهدى إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟
وكيف بلغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يهدى ، بل هو يُهْدَى
من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلمت إن الملائكة ستهديكم ؟ أو من أين جاء
الذين فُتِنُوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت
الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ،
ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار
فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقبل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله
هو الذى يختار منهم الملك الذى يُبَلِّغُ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل
عليهم السلام : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ
يُهْدَى .. ﴾ (٣٥)

[يونس]

﴿لَا يَهْدِي﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جرس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهْدِي﴾ يعني : يهتدى . . أصلها يهتدى . . ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلأ ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل في الهداية هو الله تعالى .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . .

[يونس]

﴿٢٥﴾

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليلغيه لهم ؟ وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهي للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عُرْف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟ » ، وهذا كله من الأمور التى تأباها الفطرة وأبأه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصول إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ . . (٢٥)﴾ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار^(١) ؛

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتبدل ولا تثبت على حال واحدة.

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سميعاً فتصير أصم بعد ذلك ^(١) .

إذن : فهي دنيا أغيار ، وهب أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنى وكل شيء ؛ سنجده في قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه في حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هي هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هباتٌ من الحق الأعلى سبحانه .

والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ٣٦

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ﴾ (٣٦) يفيد أن

بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن ^(٢) هو اليقين ، فالنسب التي تحدث

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أوصى رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعظه : « اغتتم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٠٦/٤) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبي .

(٢) الظن كما أنه شك فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس يقين عيان ، إنما هو يقين تدبير ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصدرأ ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. ﴾

(٣) ﴿ [الأحزاب] [لسان العرب : مادة (ظنن)] .

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ، وهى نسب ذكرناها من قبل ، ونذكرُ بها ، فهناك شىء أنت تجزم به ، وشىء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التذليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلّل عليه أو أن يقال شىء ومن يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، على عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ۝٣٦ ﴾ ﴿ يبين لنا أن الذين كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. ۝٣٩ ﴾ [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمعن فى البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن الإيمان ، لكن منهم من تمعن فى الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى من الحق شيئاً .

لذلك يبين لهم الحق سبحانه أنه عليهم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛
لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .. ﴾ (٣٦) [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أولاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون
بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٣٣) [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذبوا بما لم
يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة
الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ..
﴾ (١٤) [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرْبَبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧)

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التى
لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا
القرآن لا يمكن أن يُفْتَرَى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير ؛ لأن
القرآن جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدق .
للكتب السابقة من قبل تحريفها كالنوراة والإنجيل والزبور^(١) ، وهى الكتب
التي سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى
بشّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه
السلام بمجىء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ
بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. ﴾ (٦) [الصف]

فلما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عليه القرآن صدق الإنجيل فى قوله
هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب
السماوية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١٦٣) [النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴾ (١٣) [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك
أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن
وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

(١) الزبور : هو كتاب داود عليه السلام . وأصله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ
فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا .. ﴾ (٥٥) [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً^(١) ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعَلِّمَ عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجيء هو - كما فوجئتم أنتم - بمجىء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه ﷺ مُبَلِّغٌ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) [يونس]

ويحضر القرآن الكريم النبي ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبل - البلاغة والفصاحة أو الشعر ؟!

ولننظر في «ماكنات»^(٢) القرآن الكريم ، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ ﴾ مثل قوله سبحانه :

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ تَلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمَبْطُونُ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) «ماكنات» القرآن هي الآيات التي وردت فيها لفظة : ﴿ مَا كُنْتُ ﴾ ، وهذا في إحدى عشرة آية هي : [آل عمران : ٤٤] ، [هود : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [القصص : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٦] ، [العنكبوت : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْهُمْ ^(١)

[آل عمران]

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. ﴿ (٤٤) ﴾

وهذا أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ

[القصص]

الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿ (٤٤) ﴾

والوحي إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذى نزل فيه ذلك الوحي

أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ

[القصص]

ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ^(٢) تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿ (٤٥) ﴾

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له :

كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً فى زمانها أو مكانها ؟

لا بد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذى أخبرنى بما وافق

ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ

[البقرة]

بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴿ (٩٧) ﴾

أى : أنه الكتاب الذى يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن خرق

حُجُبَ وَحُجُزَ الْمَاضِيِ وَالْمُسْتَقْبَلِ .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

(١) الأقسام هنا : القداح ، وهى قدها جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ،

وإنما قيل للقدح : القلم لأنه يُقْلَمُ أى : يُبْرَى . [اللسان مادة : قلم] .

(٢) ثاويًا : مقيماً ، ومدين : قرية شعيب عليه السلام .

شئ سبق الزمان الذي نزل فيه ، فهو يتكلم في الماضي الذي لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذي عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذي قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث في الإسكندرية في نفس الوقت الذي تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك بيبعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - في الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهي محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماض لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضي . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر في غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (٨) [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا في أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان في أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب في القرآن إما خرق لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبي ﷺ إلى الطائف

ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلّه يلتمس لهم مجيراً من أهل الطائف ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض^(١) ، ويوصى بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة^(٢) .

وفي ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝٤٥ ﴾ [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أى جمع هذا الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتى غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلى قريش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به الوحي من قبل^(٣) .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفترى ، فكيف يُتهم رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبى طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائف قعدوا له ﷺ صفين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة حتى أدموا رجله . [دلائل النبوة للبيهقى ٢/٤١٥] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي » . منحه الله الإسراء فوق العقل البشرى ، والمعراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شئ مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝٤٥ ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝٤٥ ﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء !؟ ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف ، وأدخلهم في الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟ إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. (٢٧) ﴾ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فهم قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ .. (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْبًا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسباب عجزهم عن النجاح في التحدي ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصدّق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل .

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [يونس]

وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ

لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدي ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ بَعْشِرِ سُورٍ

مِثْلِهِ مَفْتَرياتٍ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [همزة]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب -

ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ

مِثْلِهِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدعون أن محمداً ﷺ قد افترى

القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة !؟

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من

مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾

[يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن ينزل قرآناً ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة^(١) : سندعو الله ؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.. (٣٨)﴾ . وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدي .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولا إلى قوم ؛ ليعلمهم منهجه في حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة في الأرض ؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء ملكاً لما صحّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً^(٢) .

والحق سبحانه لا يرسل أى رسول إلا ومعه بيعة ودليل صدق على أنه رسول يبلغ عن الله تعالى .

والبيعة لا بد أن تكون من جنس نبوغ^(٣) القوم ، فلا يأتي لهم بمعجزة فى شىء لم يعرفوه ولم يألفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجننا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ فى قوم فصحاء يعقدون للشعر

(١) اللجاجة : التمادى فى الجدل والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا

(٣٥)﴾ [الإسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبِئْسَ عَلَيْهِمْ

مَا يَلْبَسُونَ (٦)﴾ [الأنعام] .

(٣) النبوغ : الإجادة والبراعة فى علم أو فن معين . [المعجم الوسيط] .

أسواقاً ، ويعلّقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتتحداهم . والتحدى يستدعى استجماع قوة الخصم ؛ ليرد على هذا المتحدى ، فإذا عجز مع التحدى ، يصير العجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(١) ﴾ (٨٨) ﴿ [الإسراء]

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرّج القرآن معهم فى التحدى فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ .. ﴾ (١٣) ﴿ [هود]

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .

وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذى جاء بطلب سورة كان على لونين : فمرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. ﴾ (٣٨) ﴿ [يونس]

ومرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٣) ﴿ [البقرة]

وكل من اللونين بليغ فى موضعه فـ ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. ﴾ (٣٨) ﴿ تبيّن أن المثلية هنا محققة ، أى : مثل ما جاء من سور القرآن . وقوله : ﴿ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٣) ﴿ [البقرة]

(١) الظهير : المعين والمساعد . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ .. ﴾ (٨٦) ﴿ [القصص] . وذهب بعض العلماء إلى أن التحدى كان مقصوداً به الإنس فقط دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى ، وإنما ذكروهم الله فى الآية تعظيماً لإعجاز القرآن ، لأن عجزهما معاً عن أن يأتوا بمثله دليل على أن الفريق الواحد منهم أعجز . [انظر : البرهان فى علوم القرآن - للزرخشى ١١١/٢] .

أى : سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل حياته قبل الرسالة ^(١)

وقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يونس]

إذن : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٣)

[البقرة]

أى : مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا اللون من التحدى ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٢) اَكْتَتَبَهَا ^(٣) فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

[الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ ^(٤) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ .. ﴾ (١٠٣)

[النحل]

(١) وفى تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبى فى تفسيره (٢٧٧ / ١) فقال : « ﴿ مِّن مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٣) [البقرة] أى : من مثل التوراة والإنجيل . فالعنى : فاتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق ما فيه « وكل من هذه الأقوال صواب ومحتمل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أى : مما سطره الأولون وكتبه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [لسان العرب مادة : سطر] .

(٣) اكتتبتها : طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يميلون إليه . واختلف المفسرون فى تسمية هذا الرجل الذى قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربى .

ويزيد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تِهِمْ تَأْوِيلَهُ .
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ .. ﴾ (٣٦) ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُذِّثُوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها فى منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مشير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهذأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فآمن برسول الله ﷺ^(١) ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تِهِمْ تَأْوِيلَهُ .. ﴾ (٣٦) أى : لم يعرفوا مراميه ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴾^(٢) .. ﴿ (١٦) ﴾ [محمد]

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) آنفًا : من قبل ، وقد نزلت هذه الآية فى المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ

آنفًا .. ﴾ (١٦) [محمد] أى : ماذا قال سالفاً وسابقاً ؟ . [اللسان : مادة (أن ف) - بصرف] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ،
وتأتى الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴾ (٤٤) [فصلت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة
بالبغض لقاتله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أى منهم حكماً صحيحاً فليُخرج من قلبه ما يناقض ما يسمع ،
ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ وسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ،
وهو الإسلام .

إذن : فمن امتلأ قلبه بعبقيرة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]

والتأويل ^(٢) هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أفضية
من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن
الكريم قضية غيبية ، ثم يأتى الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن
تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كذبوا من قبل أن يأتى لهم التأويل ، وكان عدم مجيء
التأويل هو السبب فى تأخر بيان الحق فى المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ
حين قامت المعركة بين معاوية بن أبى سفيان والإمام على - رضى الله
عنه - وَقَاتَلَ عَمَّارٌ فِي صَفِّ عَلِيٍّ ، وَقُتِلَ . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

(١) الوقر : ضعف السمع . وقيل : الصمم . [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد . وأصله ما يؤول إليه الشيء ؛ ويقول تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ
يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ .. ﴾ [الأعراف] أى : أنهم ينتظرون تحقق العذاب ووقوعه .

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار .. تقتله الفئة الباغية »^(١) .

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق في الواقع ، وكان هذا سبباً في انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس] .
 أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفي : « لم » مثل قولنا : « لم يَجِءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يَجِءْ فلان » ، والنفي في الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفي بـ « لما » فيعنى أن المجيء مُنتفٍ إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر، وقد يأتي من بعد ذلك ؛ لأن « لما » تفيد النفي، وتفيد توقُّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً^(٢) ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٧) ومسلم فى صحيحه (٢٩١٥) بنحوه عن أبى سعيد الخدرى ، وتماه أنه عند بناء المسجد النبوى ، قال أبو سعيد : « كنا نحمل لينة لينة ، وعمار لبتين لبتين . فرآه النبى ﷺ ، فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا فى دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن فى قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٤/٢١٨ ، ٢١٩) .

قالوا : الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .
وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٤٢) [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتي علم الله سبحانه بنا
كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن ﴿ لَمَّا ﴾ تعنى أن المنفى بها متوقع الحدوث . والتأويل
كما نعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء في القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن
متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وُجدت ولا دخل لبشر في وجودها ،
فهذا يعنى أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَّن يقدر على أن يوجد ،
مثلما جاء في خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .

قال الحق سبحانه :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي
بِضْعِ (١) سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ
اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر
القرآن .

أو أن التأويل سيأتي في الآخرة ، وما يؤول الأمر في التكذيب سيعلمونه
من بعد ذلك .

(١) البضع : ما دون العشر ، وأدنى الأرض : بين أذربايجان وبصرى فى الشام ، وهى أقرب بلاد الشام إلى
الجزيرة العربية . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ .. ﴿ (٥٣) ﴾ [الاعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان في الدنيا
فنصر أهل القرآن ، وإن كان في الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .. ﴾ (٥٣) ﴾ [الاعراف]

هذا هو التأويل الذي كذبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقى من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن
وقد جاء على وفق ما أخبر به نبي لا يملك أن يتحكم في مصائر الأشياء ،
وتأتى على وفق ما قال .

فكان محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فينصرف عنه
الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛
لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل - أيضاً - يأتي في الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ
تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٩) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع
رسل من قبله ، فقال سبحانه في نفس الآية : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولا ونصر الكافرين به عليه ؟ . . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِينَ أَنَا وِرْسُلِي ﴾ (٢١) [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة^(١) .

إذن : فالتأويل واضح فى كل مواكب الرسل التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .. ﴾ (٣٩) لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى فى أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢)

.. (١٣) [لقمان]

لأن فى هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، ويا ليت غيره كان

(١) قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤) [العنكبوت] . والخاصب : هى ريح شديدة البرد والهبوب تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد» . أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود ، وعوقب قارون بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقبوا بالغرق .

(٢) العظمة للقيمة المنحرفة انحطاطاً ، وللقيمة السوية رفعة .

سُورَةُ الْيُونُسِ

٥٩٤٧

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفي هذا تطوع بالظلم بغير مدع .

وهب أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فيما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثانى كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصم غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بين لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صحت الدعوى فى أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية فى الظلم هى الظلم فى الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلّ الربا فهذا ظلم فى قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردّ الدين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضى الذى يظلم فى أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشئ الذى وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِءِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِءِ ﴾

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

والكلام هنا فى الذين كذبوا ، فكيف يقسم الله المكذبين - وهم

بتكذيبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم من هؤلاء المكذبين يخفى إيمانه في قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان في قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق في البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبر عنه باللسان ، ولكن المقسم هو إيمان بالقلب غير معبر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذي جعل إيمان بعضهم محصوراً في القلب غير معبر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها^(١) . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال ، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال : إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة؟ قال : كلمة واحدة . قال : «يا عم يقولوا : لا إله إلا الله» أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/١) والترمذي في سننه (٣٢٣٢) وقال : حديث حسن

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم يكرهون ألا تكون لهم السيادة والسيطرة فى أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام فى مكة، حيث الأمة التى تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا فى «المدينة»، أما فى مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانون من تشتت الملكات، لكن المنافقين فى المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس فى قلبه.

ولذلك يُعزى الحق رسوله الكريم ﷺ وَيُسْرَى^(١) عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقر، فيقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام] أى: أنك يا محمد مُتَزَّهٍ عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ^(٢) .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم فى أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشياءه النفسية^(٣).

والذين آمنوا برسالته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

(١) يُسْرَى عنه: يكشف عنه الهم والحزن. [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، قال الجوهري: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (٣٣)﴾ [النمل] [اللسان: مادة (جحد)].

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بمن كذَّبَ عناداً، ومن كذَّبَ إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذي يُعَذِّبُ ويُعَاقِبُ، وكل إنسان منهم سوف يأخذ على قَدْرٍ منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنْهَى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤٠) [يونس].

والمفسد كما نعلم هو الذي يأتي إلى الشيء الصالح فيصيبه بالعطب^(١) ؛ لأن العالم مخلوق قبل تدخُّل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة الله تؤدي مهمتها كما ينبغي لها.

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الوجود، فانظر إلى الكون الأعلى الذي لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن].

أى : أتقنوا أداء مسئولية ما في أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل في دائرة المفسدين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) العطب : الفساد والهلاك.
(٢) تطغوا : من الطغيان، بمعنى الظلم، أى : اعدلوا في جميع أموركم وزنوا الأمور والأشياء بميزان العدل، ولا يظلم بعضكم بعضاً. والقسط : العدل. [اللسان : مادة (قسط) . . . بتصرف].

﴿٤١﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

وهذه آية تضع الاطمئنان في قلب رسول الله ﷺ فلم يقل الله سبحانه : «إذا كذَّبوك» بل قال : ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ .. (٤١)﴾ وشاء الحق سبحانه أن يأتي بالتكذيب في مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبي ﷺ : ﴿فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١)﴾ أي : أبلغهم : أنا لا أريد أن أحملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير في أن تعملوا الخير، فإن لم تعملوا الخير؛ فهذا لن يؤثر في حصيلتي من عملي .

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجازي على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاء الله سبحانه ^(١) .

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبِّقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأي داعٍ إنما يظنون أن الداعي سوف يستفيد ^(٢) .

والبلاغ عن الله ، إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

(١) وما يدل على هذا أن نوحاً مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ .. (٤١)﴾ [هود] واختلفوا في عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناؤه . انظر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٥) .

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [هود] ، وهود يقول لقومه عاد : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١)﴾ [هود] وهكذا قال صالح لقومه ثمود : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الشعراء] ، ولوط لقومه : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٤)﴾ [الشعراء] ، وشعيب لقومه أهل مدين : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٨)﴾ [الشعراء] .

وَيُجَازَى عَلَيْهِ (١)

فلا يجوز الخلط في تلك المسائل ﴿لِي عملي ولکم عملکم .. (٤١)﴾

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون .. (٤١)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿بريء﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجازاة للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يعلم رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة، فيقول : ﴿وإنا أو إياكم لعلی هدى أو فى ضلال مبين (٢٤)﴾ [سبا]

أى : أننا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو فى ضلال . والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجازاة لهم .

كذلك يعلمه ربه سبحانه أن يقول : ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا .. (٢٥)﴾ [سبا]

أى : أنه يبين لهم : هبوا أنى أجرمت فأنتم لن تسألوا عن إجرامى ، ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول : ﴿ولا نسأل عما تعملون (٢٥)﴾ [سبا]

ولم يقل : «ولا نسأل عما تجرمون» . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها : ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون .. (٤١)﴾ [يونس]

(١) فالرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤١) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)﴾ [الحاقة] .

إذن: لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم.
وكما يقول المثل: «أذن من طين وأخرى من عجين». أو كما تقول المزحة
أن واحداً مال على أذن صديق له وقال: «أريد أن أقول لك سرّاً» فاقترب
الصديق مستشرفاً سماع السر، فقال الرجل: «أريد مائة جنيه كقرض»؛
فقال الصديق: «كأنى لم أسمع هذا السر».

إذن: فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن، لكن لا بد من
استشراف نفسى للتلقى. وهم لا يملكون هذا الاستشراف؛ لذلك قال الحق
سبحانه: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ...﴾ (٤٢) أى: كأن سمعهم لا يسمع.

ومثال ذلك: أننا نجد المدرس الذى يشرح الدرس للتلاميذ، وبين
التلاميذ من يستشرف السمع؛ ولذلك يفهم الدرس، أما الذى
لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس.

وهم قد فاتوا الصُّمَّ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة
العين، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا
لَا يَعْقِلُونَ...﴾ (٤٢) [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى
وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٣)

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف، وأن يُقبل المرء على ما يريد أن يراه،
وأحياناً لا يكون الرأى مستشرفاً؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية.

وسئِل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح^(١) يَهْدُه الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب^(٢) .

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينه الإيمان وهيبة الخشوع وجلال الورع .

ونحن قد تلقى رجلاً صالحاً في بشرته أذمة^(٣) أو سواد ، وصلاحه يضيء حوله ، وله أسر^(٤) من التقوى ، وجاذبية الورع .

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغيَّر أمره .

وها هو «فضالة»^(٥) يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ : ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال: لا شيء ، كنت أذكر الله . قال: فضحك النبي ﷺ ، ثم قال: استغفر الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة .

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إليَّ من وجهه، ولكنني أقبلت عليه فما كان أحبَّ

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيماني ؛ لأن الرائي يرى نور الإيمان يتاديه ، فيلقيه ، ويلتقى به .

أما رؤية أبي جهل فهي رؤيا انقطاع إيماني ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذي جعله لا يرى في رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبي طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذي أحس بالنور فأحبه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/٣٢٣٢) أن المشركين قالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب .

(٣) الأذمة في الناس : السمرة الشديدة ، وقيل : هي من أذمة الأرض ، وهو لونها ، وبه سمي آدم أبو البشر - عليه السلام . [اللسان : مادة (آدم)] .

(٤) الأسر : السَّمْت الذي يستولى على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثي .

إلى في الأرض كلها من وجهه ^(١).

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقةات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٢) هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤)

كلمة «الله» هي اسم عَلَّم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفى كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى .

ولذلك قال النبي ﷺ :

« أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » ^(٢) .

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٧/٤) بلفظ : « والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) ، والحاكم في مستدرکه (٥٠٩/١) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إن سلم من الإرسال .

وإن سأل سائل: ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم الغيب؟

أقول: حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مزيداً من الكمالات التي لم نكن نعرفها؛ ولذلك نحمد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله»^(١).

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلم على واجب الوجود، وصفات علم واجب الوجود، والتسعة والتسعون اسماً التي نعلمها^(٢) هي اللازمة لحياتنا الدنيا، ولكننا سنجد في الآخرة صفات كمال أخرى، وكلمة «الله» هي الجامعة لكل هذه الأسماء، ما عرفناها؛ وما لم نعرفها.

والإنسان منا حين يُقبل على عمل، فهذا العمل يتطلب تكاتف صفات متعددة، يحتاج إلى قدرة، وعلم، وحكمة، ولُطف، ورحمة، وغير ذلك من الصفات، فإن قلت: باسم القوي؛ فأنت تحتاج إلى القوة، وإن قلت: باسم القادر؛ فأنت تحتاج إلى القدرة، وإن قلت: باسم الحليم؛ فأنت تحتاج إلى الحلم، وإن قلت: باسم الحكيم؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة، وإن قلت: «بسم الله» فهي تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً؛

(١) وذلك في يوم القيامة في مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ يأتي تحت العرش فيقع ساجداً، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله. ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول: يا رب أمي، أمي». من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه (١٩٤).

(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة» أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل في رواية أخرى عن أبي هريرة أخرجهما الترمذي في سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذي أصح.

ولذلك يكون بدء الأعمال ^(١) بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غنى وجدته ، وإن احتجت إلى بسط ^(٢) وجدته .

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا في أن نقول : «بسم الله» .
 وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقرُّ بأن كل حَوْل ^(٣) لك موهوب من الله ، والأشياء التي تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ [يس]

ولو لم يذلل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذلها لنا حتى نتعلم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلمنا ، ولا بقدرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذى يذلل .

فأنت ترى الطفل فى الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبَةٌ على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتى ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذللّه لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام - أو أمر - ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتى - أو قال : أقطع » .

(٢) أى : أن يبسط فى رزقك ، فهو سبحانه الباسط . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ يُسِّطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ (٢٣) [الرعد] .

(٣) الحول : القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك فى الحياة .

مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادى من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى : يصيح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلفه قبل ذلك ^(١) ثم طرأت عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة فى التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك ^(٢) .

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغا ؛ ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوى يروض النفس إلى مرادات الله ، ولوقام الصبى بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن: فالقيد قد جاء لصالحك .

وهب أنك أطلقت يدك في الناس ، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم
فيما تملك ؟

وحين حرم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم
على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكّي ، فهو قد أخذ منك ؛ ليعطى الفقير من
المال الذي استخلفك الله فيه .

فلا تنظر إلى ما أخذ منك ، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك
القدر بالفقر ، والشيء الذي تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك
الثواب أضعافاً كثيرة^(١) .

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظر إلى ما حرم الله تعالى عليك
من أشياء ، وما حلل لك غير ذلك ؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه .

إذن: فالتكليف لصالحك .

ثم بعد كل ذلك: أيعود شيء مما تصنع من تكاليف على الحق
سبحانه ؟ لا .

أيعطيه صفة غير موجودة ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس في عملنا
ما يزيده شيئاً .

(١) يقول الله - عز وجل - في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء] . وقد قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون] - ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيتهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم .. ﴾ [التوبة] - ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ [النساء] [٢٤] لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج] .

إذن: فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير .

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح في الحقل ، إنه يحرث الأرض ، وينقل السماد ، ويبذر ، ويروى ويتعب ، وبعد ذلك يستريح في انتظار الثمار .

وأنت حين تنفّذ تكاليف الحق^(١) سبحانه فأنت تجد العائد ، وأنت ترى في حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد ، فما بالناس بحساب الآخرة .

والفلاح الذي يأخذ من مخزونه إردبياً ؛ ليزرعه ، وهو في هذه الحالة لا ينقص مخزونه ؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردبياً .

وهكذا من ينفّذ التكاليف يعود عليه كل خير ؛ ولذلك أقول: انظر في استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه ، لا فيما تأخذه .

وهكذا ترى أنه لا ظلم ؛ لأننا صنعة الله ، فهل رأيتم صناعاً يفسد صنعته ؟

إذن: فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً ، بل يُحسِّنُها ويعطيها الجمال والرونق^(٢) ؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

(١) تكاليف الحق سبحانه هي أوامره ونواهيه ، يكلف بها الله من آمن به ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٥١)

﴿ ١٥١ ﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ لَفِيكُمْ مِعَاذًا ﴿ ١٥٢ ﴾

وَسِعْهَا وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا لِرَبِّكُمْ وَلِرَبِّكُمْ وَيُعْهَدُ اللَّهُ لِمَنْ أَوفَىٰ ذِكْرًا ﴿ ١٥٣ ﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ ١٥٤ ﴾ [الأنعام]

(٢) وفي هذا يقول رب العزة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧) ﴿ [السجدة]

ويقول في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ .. ﴾ (٦٣) ﴿ [غافر].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤) [يونس]

أى: أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جحد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليدوق من بعد ذلك عذاباً أجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية ^(١) ، وبعد ذلك خص كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وبين فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن تمتنع عنه ^(٢) ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذى أضربه دائماً: هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال: إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول: إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة .

(١) قد جعل الله فى الكون آيات يخاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَکِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِتِّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦٥) [البقرة]

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَمِ آبَائِهِمْ وَإِبَاهِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِبَاهِهِمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَمَا كُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٥١) [الأنعام]

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده ؛ لأنه مُنزَهٌ عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خلقه ليس عندهم نعم يريدونها ، فهو الذى أعطاهم لهم ؛ ولذلك لا يأتى منه سبحانه أى ظلم ، وإن جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١)

﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

فهذه الدنيا التى يتلطف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث فى الدنيا إلا ساعة ، والساعة هى الساعة الجامعة التى تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة فى الدنيا هى جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التى تُعلّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهى تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة فى القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون فى نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير فى بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾

[الروم]

وهم - إذن - يُفاجأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرتت وكأنها مجرد ساعة^(١) ، وهكذا يكتشفون قصر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم يتتبعوا بها أيضاً فهي مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول:

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾

[الأحقاف]

أى: أن الدنيا تمر عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها^(٢) ؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. (٤٥) ﴾

[يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين: قسم من كانوا يتعارفون على البر ، وقسم من كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

(١) الساعة: أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه القلة ، قال تعالى: ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى: مدة قليلة ، وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٤) ﴾ [الأعراف] أى: لا يتأخرون لحظة ، والساعة يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى: القيامة .

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا (١٥) ﴾ [الإسراء] ، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عظم هذا اليوم الأخير .

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا في الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) ﴿ [الزخرف]

وكذلك قال في الذين تعارفوا على الإثم :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) ﴿ [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كَانَ سَبَبًا فِي أَنْ يُؤْوَلَ إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٥) ﴿ [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة^(١) تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجر فيه ، وإما ألا يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته في هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث في الصفقات .

(١) خسر : أى خسر الرجل في تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، غين فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل : ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٢١) ﴿ [الأنعام] . وخسر نفسه : أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .. ﴾ (١١) ﴿ [الحج] .

ومن الفعل اللازم قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ خَسِرْنَا مِثْلَنَا ﴾ [النساء] ، وقد يأتي متعدياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٦٥) ﴿ [الزمر] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية فى الدنيا بقوله :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠)
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

ويقول سبحانه :

﴿ إِنْ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾

[الجمعة]

(١) تجر من باب نصر - تجراً وتجارة : باع واشترى طلباً للربح ، وتطلق التجارة على المال الذى يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذى يترتب عليه خير ، كأن الثواب ربح ، وكان الحرمان منه خسارة ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ .. (٧٨٢) ﴾ [البقرة] ، التجارة هى المتجر فيه ، وقوله : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر] هى الأعمال الصالحة ، وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف] ، هى التجارة بالمعنى المجازى أى العمل الصالح . [القاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك في ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل في ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره .

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هي الجامعة لكل حركات الحياة .

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شىء أن يتموّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشتري شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها .

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحراثها ، وتبذر البذور ، وترويهما ، وتشدّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت في إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع في التجارة يأتي لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضرب المثل في التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن: لا بد أن نعتبر أن دخولك في صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت في أية صفقة قد تعوّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة في الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهي خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدينا ، وأنت في الآخرة إما في جنة ذات نعيم مقيم ، وفي هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هي الخسارة الحقيقية .

والخسران الحقيقي أن يكذب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه:

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. (٤٥) ﴾ [يونس]

أى: أن الله سبحانه لم يكن في بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعَةٍ ^(١) يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً .. (٣٩)﴾

[النور]

والسرّاب كما نعلم يراه السائر في الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير في صحراء شاسعة ، ويرى السرّاب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سرّاب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ .. (٣٩)﴾

[النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك في الآخرة ، وتجد الناس يُكرّمونه ، ويسيّمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فعلتَ ليقال ، وقد قيل» ^(٢) .

(١) السرّاب : ما يُرى في نصف النهار من اشتداد الحر كأنه في الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمّي السرّاب سرّاباً لأنه يسرب سرّوباً ، أى : يجري جرياً ، أى : يتحرك حركة تخدع الرائي من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .

والقِيعَة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفراء : القِيعَة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ^(١٠٦)﴾ [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . . . الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائى في سننه (٢٣ / ٦) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كذبوا بقاء الله تعالى :

[يونس]

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

أى : لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛ هذا المنهج الذى يمثل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدى هذه المهمة .

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين ، أى : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ إِلَى اللَّهِ شٰهِدٌ عَلٰى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِمَّا ﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغومتين ، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعذب الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة .

أى : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن نتوفينك قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر .

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا تُرِيكَ .. (٤٦)﴾ أى : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان فى هذه الحياة ، وإن لم تره فى الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم فى الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم فى أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذى يُرى فى الناس ؛ كحسرة فى النفس ، وكبت للأسى حين يرون نصر المؤمنين .

أما الذى يُرى فهو الأمر الظاهر ، أى : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخذ الأموال ، وسبى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به .

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾ .

وكفك الله سبحانه شهيداً : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)﴾

(١) قَسَطَ يَقْسُطُ - كضرب - قسطاً وقسطاً ، وقسط يقسط قسطاً كنصر : ظلم أو عدل ، من الأضداد ، وتفهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] وأقسط : عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَمْرٌ رَبِّى بِالْقِسْطِ .. (١٥)﴾ [الأعراف] . والقسطاس : الميزان والعدل . « القاموس القويم » .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا
بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا ^(١) فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤)

[فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١)

[الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وبيان لتجريم هذا الفعل أو ذلك ، بإرسال
الرسول ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شيء يحاسب بمقتضاه .
والحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولاً يتعهد بها أمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحدين منذ ذرية آدم - عليه
السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا في الأرض ، وصارت
الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث
في الشرق تراه في لحظتها وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحد الآفات
أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما في
الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن
الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات
البيئة ، أما وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات ^(٢) .

(١) خلا: مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَلْفَقْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِبَةِ ﴾ (٤٣) ﴿ [الحاقة]
أى : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هي جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين
ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر
على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ييب ﴾ (١٧) ﴿ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) ﴿

[يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومن كفروا به هُزِمُوا .

أو أن الآية عامة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أى : تنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) ﴿

يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٤٢) ﴿

[النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاَ جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : «اقرأ علىَّ» فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : «نعم ، إني أحب أن أسمع من غيرى» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) ﴿[النساء] فقال ﷺ : «حسبك الآن» فإذا عيناه تدرقان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد فى مسنده (٣٨٠/١) .

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة فى الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٢٢) ﴿[النساء] وقوله : ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ (٧٨٦) ﴿[البقرة] أى شاهد . والشهيد من قتل فى سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . [القاموس القويم] .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

وما دام فى الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

أى : يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقصى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شىء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا :

﴿ أَئِنذًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١٦) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (١٧)

[الصفات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول :

﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ .. ﴾ (١٥) [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتُم فى التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ (٤) [ق]

أى : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمع كلها ، وليس هذا بغير على الله الذى خلقهم أولاً .

وهم قد كذبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزأؤهم أن استعجلوا^(١) هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨)

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحددين^(٢) فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتهم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

(١) وقد قال رب العزة عنهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ .. ﴾ (٤٧) [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴾ (٤٦) [العنكبوت] .

(٢) الملحدون : جمع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فى آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. ﴾ (٤٤) [فصلت] . [المعجم الوسيط : مادة (لحد)] .

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن يتقمم الله منه^(١).

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وكان المنطق يقتضى أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولا بد أن يجيء اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم فى قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً .

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً

وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩)

والرسول ﷺ يبرئ نفسه من كل حَوْلٍ وطَوْلٍ^(٢) ، ويعلن ما أمره الحق

(١) يقول الحق : ﴿ وَلَا تَحْسَبِ اللَّهُ عَافِيًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٤) مهبطين مقننى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (٤٤) [إبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ : «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» .

(٢) الحَوْلُ : الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف فى الأمور .
والطَوْلُ : الفضل والغنى واليسر . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴾ (٢٥) [النساء] . [المعجم الوسيط] .

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٩٧٧

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ؛ لأن النفع أو الضرر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت رداً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكانهم استبطأوا نزول العذاب تهكماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف من كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١٥) [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

[طه]

رَسُولاً... ﴾ (١٣٤)

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذي جاء بمنهج الله تعالى ؛ فأمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين .

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .. ﴾ (٤٩)

[يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضراً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجل^(١) ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ .. ﴾ (٤٩)

[يونس]

يفيد أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن النبي والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خلق على هيئة القسر^(٢) في أمور ، وعلى هيئة الاختيار في أمور أخرى ، والاختيار هو في الأمور التكليفية

(١) الأجل - مدة الشيء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذي أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ .. ﴾ (١٢٩) [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجل الشيء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ (١٢٧) [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ .. ﴾ (٢) [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء في الدنيا ، والثاني : هو مدة البقاء في القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَئِنَّ ﴾ (١٢٩) [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والأجل ضد العاجل ، والأجلة ضد العاجلة .

[القاموس القويم]

(٢) القسر : القهر والإجبار .

سُورَةُ الْاِنۡشِارِ

٥٩٧٩

مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. (٢٦)﴾
[الكهف]

وأنت حُرٌّ في أن تطيع أو أن تعصى ، وكل ذلك داخل في نطاق
اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع
معصية ، صنع لنفسه ضرراً .

إذن: فهناك في الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك: من يتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتي لنفسه بالضر ، وقد
ينقذه أقرابه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه .

إذن: ففي الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضر أو النفع
لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحدّدوا أنتم آجال
الأمم ؛ لأن آجالهم - استئصالاً ، أو عذاباً - هي من عند الله سبحانه وتعالى .

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور
ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنَزَّهٌ أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو
الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٢٧)﴾

[الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً (١١)﴾

[الإسراء]

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجّل في الأمور . واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى :
﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ .. (١١)﴾ [يونس] والعاجل : السريع ضد
الأجل ، والعاجلة الدنيا ، والأجلة الآخرة ، يقول الحق : ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٦٠)﴾ [القيامة] . أي :
الدنيا ، وعجل الأمر طلبه قبل أو أنه يدافع الشهرة ، وعجل الأمر سبقه . قال الحق سبحانه : ﴿وَلَمَّا
رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا رَّبِّكُمْ .. (١٥٠)﴾ [الأعراف] .

إذن: فالحق سبحانه يؤخر مراداته رحمة بالخلق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده .
لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩) [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذي جاء بعد ﴿ إِذَا ﴾ ^(١) «جاء أجلهم» .. (٤٩) [يونس]
لأن الجواب هو : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ .
فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٥٠)

وهذا ردٌ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فلنتر ماذا سيكون موقفكم ؟
وهم باستعجالهم العذاب يبرهنون على غيائهم فى السؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ . أى : أخبرونى عما سوف يحدث لكم .

(١) إذا : تأتى لمعنيين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (٤٩) [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتخفص بالجملة الاسمية ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَةٌ تَسْمَعُ ﴾ (٦٠) [طه] « القاموس القويم » .

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٩٨١

و شاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان
فقال سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا .. (٥٠) ﴾ [يونس]

والبيات مقصود به الليل ؛ لأن الليل محل البيوتة ، والنهار محل الظهور .
والزمن اليومي مقسوم لقسمين : ليل ، ونهار .

و شاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت ، فإن جاء ليلاً ، فالإنسان في
ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً في الغالب ، وإن جاء نهاراً ، فالإنسان في
النهار مشغول بحركة الحياة .

والحق سبحانه يقول في موضع آخر :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ^(١) بَيَّاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه :

﴿ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) ﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتي في الليل وفي النهار
معاً ؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً ، وفي ذات الوقت يكون
الزمن نهاراً في بلاد أخرى .

وإذا جاء العذاب بغتة ، وحاولوا إعلان الإيمان ، فلن ينفعهم هذا

(١) بأسنا: عذابنا والبأس القوة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] ، أى :
قوة وصلابة ، وقوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٨٤) ﴾ [النساء] شدتهم وقوتهم .
فيصدهم عنكم ، وقوله الحق : ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] ، أى : وقت الحرب الشديدة ، وقول
الحق : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١) ﴾ [النحل] ، أى : شدتكم وقوتكم في الحرب ، فتحفظكم
الدروع من أخطار الحرب . والبأساء : الفقر والشدة ، ويقول الحق : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ..
(١٧٧) ﴾ [البقرة] في وقت الفقر والحاجة .

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ^{٥١} أَكْفَرَ أَكْفَرًا وَمَا كُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

أى : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟

إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون ^(١) حين جاءه الغرق ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

(١) وذلك أن فرعون خرج في جيش كبير يقدر بمائة ألف ولحق بموسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعُدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد قلوا رأيتنى وأنا أخذ من حال البحر (أى : طين البحر) فأدمه في فيه (أى : قمه) مخافة أن تذكركه الرحمة » أخرجه الترمذى في سننه وقال : حديث حسن . وانظر تفسيرى ابن كثير (٢ / ٤٣٠) والقرطبى (٤ / ٣٣٠٥) .

[يونس]

أَمَّنتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ .. (٩٠) ﴿﴾

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه فى اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم فى الدنيا ، وسيلقون العذاب فى الآخرة ، وهو ﴿عَذَابُ الْخُلْدِ﴾ أى : عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

أى : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجزة ، ومعه منهج مفصل مؤيد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزى وهوان ، لكن محدوديته فى الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنيهاً ، قد يكسب خمسة جنيهاً .

وهنا سؤال : هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل ؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

(١) الخلد : الدوام ، والمراد أنه عذاب دائم . [اللسان : مادة (خ ل د)] .

زيادة في التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب^(١) بمفهومه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأمانة ، وهذا يعني أنه ينظر إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات^(٢) تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَبِشُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِي وَإِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾^(٤)

وهم قد قالوا من قبل : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ .. ﴾^(٤٨) [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . ﴿ وَيَسْتَبِشُونَكَ ﴾ أى : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هُوَ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

(١) قال الله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴾^(٢٨٦) [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل تبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السيء جزاء ما اكتسب .

(٢) تبعه الشيء : نتيجته وعاقبته وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (ت ب ع)].

(٣) إى : نعم . حرف جواب .

(٤) أى : أنكم لن تُعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكسبون .

إذن: فقولهم: ﴿وَيَسْتَبِشُونَكَ^(١) أَحَقُّ هُوَ...﴾ (٥٣) ﴿ لها أكثر من مرجع ، كأنهم سألوا: هل القرآن الذى جئت به حق ؟

وهل النبوة التى تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع - التى تقول: إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق ؟

وهل العذاب فى الدنيا حق ؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى .

ويأتى الجواب من الله تعالى :

[يونس]

﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾ (٥٣)

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلًا: هل زيد موجود؟ فأنت تقول: نعم موجود. ولا تقول له: والله إن زيدا موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك ؛ لأنه لا ينكر وجود زيد.

إذن: فأنت لن تؤكد إجابة ما إلا إذا كان هناك فى السؤال شبهة إنكار.

إذن: فأنت تستدل من قول الحق سبحانه:

(١) النبأ: الخبر ، أو الخبر ذو الشأن ، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عن النبأ العظيم (٢) ﴿ النبأ﴾ وهذا النبأ هو البعث . وأنبأه بالشئ ونبأه به : أخبر به ، وأنبأ يتعدى لمفعول به واحد ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَانِهِمْ...﴾ (٣٣) ﴿ البقرة﴾ ، ويتعدى لمفعولين مثل : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا...﴾ (٣٢) ﴿ التحريم﴾ ، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله : ﴿ وَتَبَشِّرْهُم بِإِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر] أى : حدثهم . واستنبأه : طلب أن ينبئه كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبِشُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾ (٥٣) [يونس].

﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ .. (٥٣) ﴾ على أن سؤالهم يحمل معاني الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إي»^(١) وهو حرف جواب يعنى : «نعم» ، وتأتى «إي» دائماً مع القسم .

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِي وَرَبِّي .. (٥٣) ﴾ [يونس]

تعنى : نعم وأقسم بربى إنه لحق . وأنت لا تقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد .

ومثال ذلك فى قوله سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ^(٢) إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا^(٣) بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤) ﴾ [يس]

وماذا كان رد من بعث اليهم الثلاثة؟

﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (١٥) ﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً . فقال لهم الرسل :

(١) إي : حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم . من تفسير ابن كثير (٣/٥٦٨) بتصرف .

(٣) عززنا : أيدينا وقوتنا .

[يس]

﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد .

إذن : فالتأكيد في أسلوب المسئول إنما يأتي على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار ؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد .

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتي مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لاجحة في الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبجحاً في الإنكار فالتأكيد يأتي ثلاث مرات .

وقد عَلمَ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول

[يونس]

﴿إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. ﴿٥٢﴾﴾

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلفه ، ثم يؤكد

﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمن الإنكار والاستهزاء .

وما دام قد قال : ﴿إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون

العذاب ؛ لأنه ليس هناك مَنْجَى من الله تعالى ، ولن تُعجزوا الله هرباً ،

ولن تعجزوه شفاعاة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلَّة

تتقدم لتشفع لكم .

ثم يأتي قوله سبحانه فى نهاية الآية :

[يونس]

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٢﴾﴾

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه

وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعاة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

الفداء^(١) ؛ ولذلك جاء الإيضاح في الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۗ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۗ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

وساعة يأتي العذاب فالإنسان يرغب في الفرار منه ، ولو بالافتداء .

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما في السموات وما في الأرض^(٢) .

ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات والأرض؟

طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأتى . وهب أنه تأتى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما في السموات وما في الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم في الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل البعض إلى مختصين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المذنب . قال تعالى : ﴿ وَقَدِينَاهُ بِذِيحِ عَظِيمٍ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصفافات] .
[المعجم الوسيط : مادة (ف د ي)] .

(٢) ندم علي ما فعل يندم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتمنى أنه لم يفعله ، قال تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس] . وندام اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَأَصْحَبُ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة] .

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنَا بَيْنَهُ ﴿١١﴾ وَصَاحِبِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَبِّئِهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج] .

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم في الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم في مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختل ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها.

وهب أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتي العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة في دنيا الناس .

وهب أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلايبه ^(١) فيقول : خذوا ما عندي واتركوني . ولن يقبل القائمون على القانون ذلك . وإن كان مثل هذا التنازل يحدث في (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث في الدنيا ، لكنه لن يحدث في الآخرة .

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ^(٢) وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨) ﴿[البقرة]

وقال الحق سبحانه في آية أخرى :

(١) التلايب : مجامع ثياب الرجل . والتلايب : هو جمع الثوب الذي يلبسه عند صدره ونخره ، وجرة . [اللسان مادة لب] .

(٢) العدل : الفدية المماثلة ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (٤٨) ﴿[البقرة] أي : لا ينجيها من العذاب دفع فدية مماثلة ولا تقبل منها . وعدل الشيء وعدلته أقامه وسواه ، قال الحق : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) ﴿[الانقطار] وعدل المشرك بربه : جعل له مساوياً . قال تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٧) ﴿[الأنعام] وما كان ينفي أن يعدلوا غيره ، فليس كمثلته شيء ، ومثلها قوله : ﴿إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٥) ﴿[النمل] أي : يجعلون له شريكاً مساوياً . وأما قوله : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (٨٨) ﴿[الأعراف] أي : يحكمون بالعدل [القاموس القويم] .

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٢) [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى في التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقة تتجلى في الآيتين ؛ لأن القارئ لصدر كل آية منهما ، والفاهم للملكة اللغوية العربية يعرف أن عجز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ..﴾ (٤٨) [البقرة]

يرى أنه أمام نفسيين : النفس^(١) الأولى هي التي تقدم الشفاعة ، والنفس الثانية هي المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يقبل العدل .

وفي الآية الثانية لا تقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهي تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتي بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير في الآيتين مناسباً للموقف في كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ..﴾ (٥٤) [يونس]

وفي هذا القول تعدر ملك النفس الواحدة لكل ما في الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ وتكون

النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه :

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضی الله عنه .

[يونس]

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. (٥٤)﴾

أى: أحفوا الحسرة التى تأتى إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظى أو حركى .

إن كلاً منهم يكتم همّه فى قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينهر ويصعق ويُبهِت^(١) من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه فى نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمد كل دم فى عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركى من الصراخ أو الألم .

ونحن نعلم أن التعبير الحركى لون من التنفيس البدنى ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر .

هم - إذن - يُسرون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول :
﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ^(٢) وَهُمْ لَا يظْلُمُونَ (٥٤)﴾ [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فهب أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خلق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقضى الله بينهم بالحق ، أى: يخفف عن المظلوم بعضاً من

(١) يهت : أى: يتملكه هول ما يحدث ؛ فيقطع عن الكلام أو غيره .

(٢) القسط : المراد به هنا العدل .

العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى : عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم - وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿الْإِنِّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنِّ وَعَدَّ اللَّهُ
حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المفاجأ .

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

(١) وعده شيئاً بعده وعداً وعدة : أخيره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به ، قال الحق : ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. (٩٥)﴾ [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ، والحسنى مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتي للخير كثيراً ، وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ .. (٢٦٨)﴾ [البقرة] أى : ينذركم ويخوفكم بالشر ، والفعل متعدٍ لمفعولين «كم» مفعول أول ، والفقر مفعول ثان . [القاموس القويم - بتصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألا يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبهه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتي أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شيء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً .

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ^(١) عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم : تَنَبَّهُوا أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ، وافهموا هذه القضية الكبرى : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريدك الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدر لك ، وكل الأسباب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٨)﴾ [القصص]. وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتعظمه على الناس ، وقوله : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿فَخَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١)﴾ [القصص].

تفاعل لك بعباء وتقدير من الله عز وجل .

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطط به قد تصييه أفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أى منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبب الأسباب .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، ففتبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول .

إذن: فمردُّ كل مملوك إلى الله تعالى .

واعلم أن هناك مُلكاً ، وأن هناك مُلكاً ، والمُلك^(١) هو ما تملكه ؛

(١) الملك : فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ (٢٢) ﴿ [النمل] ، ومن المجاز قوله : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ (٣٦) ﴿ [يونس] .

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿ فَهَمَّ لَهَا مَا يَكُونُ ﴾ (٧١) ﴿ [يس] وعملوك اسم مفعول كقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ (٧٥) ﴿ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ﴾ (٨٧) ﴿ [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمَانَ ﴾ (١٠٦) ﴿ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اتُّرِنِي بِهِ اسْتَحْلِفْهُ لِنَفْسِي ﴾ (٥٩) ﴿ [يوسف] هو فرعون ، وقرىء ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والمملوك : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٨٧) ﴿ [يس] والملك واحد الملائكة « القاموس القويم - بتصرف »

جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك
من له مُلك ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - فى المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ
تَشَاءُ .. ﴾ (٢٦)

[آل عمران]

إذن : فالمُلْك فى الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت فى أول الآية - التى نحن بصدد خواتمنا عنها -
لتنبيه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ
بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف فى بعض الأشياء ؛ ليظل
الإنسان مربوطاً بالمسبب .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

[يونس]

﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ﴾ (٥٥)

والوعد إن كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بشرٌّ فهو إنذار
بشرٍّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعد» .

إذن : ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للثنين : الخير والشر ،
أما كلمة «وعد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشيء سيحدث من الذى يملك أن يحدث الشئ .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها
الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «أتىك غداً فى المكان الفلانى
لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذي تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمره ، والموضوع الذي تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتي لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهب أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلم الله سبحانه خلقه الأدب في إعطاء الوعود ، التي لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ ^(١) لشيءٍ إني فاعلٌ ذلكَ غداً ^(٢٣) إلا أن يشاءَ اللهُ .. ^(٢٤) ﴾

[الكهف]

وحين تقدّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم في نطاق قدراتنا ، وقدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعده ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه ؛ لأنه منزّه عن أن يخلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبى عليه ^(١) ، ووعده حق وثابت .

أما أنت ففتحكم فيك الأغيار التي يجريها الحق سبحانه عليك .

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفدًا منهم إلى أخبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ قائلين لهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : « سلوه عن فتية في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب » فسألوه فقال رسول الله ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن - أي : لم يقل : إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه في ذلك شيء فترلت هذه الآية . ذكره ابن كثير في تفسيره (٧١ / ٣) .

(٢) التابئ : هو الامتناع وعدم الانضياع . والإباء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أبيع] .

وهَبُ أنك أردت أن تبني بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التي تريدها في هذا البيت ، لكن المهندس لم يستطع أن يشتري من الأسواق بعضاً من المواد التي حددتها أنت ، فأنت - إذن - قد أردت ما لا يملك المهندس تصرفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه ؛ فهو الذي يملك كل شيء ، وهو حين يعد يصير وَعَدُهُ محتمّ النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [يونس]

أى : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ .. (٤٨)﴾ [يونس]

أو أن ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تعنى : أن الإنسان يجب ألا يضع نفسه في موعد دون أن يقدم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاءه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمُلك والمُلك ، هي فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حيٌّ ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه ^(١) الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) سلبه الشيء ويسلبه من باب نصر سلباً : فزعه منه قهراً أو اختلسه ، يقول الحق : ﴿وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَقْدِرُوهُ مِنْهُ .. (٧٧)﴾ [الحج] أى : ينزع منهم شيئاً ، وهو فعل يتعدى لمفعولين «القاموس القويم» .

مالك الأشياء ، والأسباب التي تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.. (١٠٤)﴾ [البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ.. (١)﴾ [النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.. (١٨٣)﴾ [البقرة]

ومثل قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ^(١) فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾

[البقرة]

أى: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾

[يونس]

والآية هنا تصور الموعظة وكأنها قد تجسدت وصار لها مجىء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التى تؤثر وتحض على الإيمان .

والموعظة^(٢) هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بلفظ مؤثر ، ويقال : فلان واعظ متميز ، أى : أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة ببسر إلا بمن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء^(٣) ؛

(١) القصاص : هو توقيع العقاب على من قتل أو جرح غيره بمثل ما قتل أو جرح ، وهى شريعة جاءت التوراة بها وأقرتها شريعة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسٌ بِنَفْسٍ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ .. (٤٥) ﴾ [المائدة] .

(٢) وَعَظَهُ يَعْظُهُ وَعَظًا وَعَظَةً : نصحه بالطاعة والعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . قال تعالى مصوراً عناد الكافرين : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٢٦) ﴾ [الشعراء] فهم لعنادهم يتساوى عندهم الأمان . والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل كقوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، والموعظة لها مقدمات بلاغية من منطلق إيمانى . مادة وعظ بتصرف . من «القاموس القويم» .

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى الموعظة الحكيمة ، فعن العرياض بن مسارية قال : قام فينا رسول الله ﷺ ، ذات يوم ، فوعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . . الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢) والترمذى (٢٦٧٦) وأحمد فى مسنده (١٢٧ ، ١٢٦/٤) .

لأن الموعوظ قد يقول فى نفسه : لقد رأيتنى فى محل دونك وتريد أن ترفعنى ، وأنت أعلى منى . فإذا قدرَ الواعظ هذا الظرف فى الموعوظ فهو يستميل نفسه .

ولتذكر الحكمة التى تقول : «النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلًا ، ولا ترسلوه جَبَلًا ، واستعبروا له خَفَّةَ البيان» ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتى له بالأسلوب الجميل المقنع الممتع الذى يعجبه ، وتلمس فى نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه .

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا فى خلاصة حكمة الأشياء ، وهبَّ أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وصيته ، ويوصيهم بعيون^(١) المسائل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾

[يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربى والكفيل ، وإن كفرت به .

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أى : أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تتوزع ما بين قسمين : القسم الأول هو مقومات الحياة التى يعطيها الحق سبحانه من قوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التى ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

(١) عيون المسائل : أى : أصولها ، والمهم منها ، وعين كل شىء : خياره . [اللسان : مادة (عين)] .

إذن: فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذي خَلَقَ من عَدَمٍ وَأَمَدَّ من عَدَمٍ ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق .

إذن: فالموعظة تجيء ممن يُعْطَى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنْزَهٌ عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شيئاً منك ^(١) فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهي غير مرتَّبة ولا منسَّقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يُفسد العاقل الاختيار بين البدائل ^(٢) ؟

إن الذي يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ مما فى النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنها عنها :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ . . (٥٧) ﴾ [يونس]

(١) وقد أعطانا القرآن مثلاً لهذا عن الهدى الذى يذبحه الحجاج ، فيقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٢٧) ﴾ . [الحج] .

(٢) بدل الشيء غيرَه ، وبدل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة] أى : غيرهه بكلام آخر ، ويقول الحق : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل] أى : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشيء من الشيء ، وأبدل الشيء بالشيء جعله بدلاً منه ، وتبدل الشيء بالشيء ومن الشيء جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب] .

أى: أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلٍ يؤثر فى أحكامكم ، وحقّد ، وحسّد ، ومكر ، ويُنقى باطن الإنسان ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدانى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى ؛ ليصحّ ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى تابعة من وجدان طاهر مُصقّى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة^(١) .

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ؛ لتبيّن أن الهداية الحقّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخرج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم . وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب: إن الشفاء هو إخراج لما يُمرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتّساع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى ، وأقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٨٧) [الإسراء]

وهكذا يتبيّن لنا أثر الموعظة: شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن: فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرب العجول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض .

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

ومثال ذلك: طيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بثوراً؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقتاً، لكنها تعود بعد قليل، أما الطبيب المدرب الفاهم فهو يعالج الأسباب التي تُنتج البثور، ويزيلها بالعلاج الفعال؛ فيقضى على أسباب ظهورها.

وفي القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام، فقد قال له الحق سبحانه:

﴿ارْكُضْ^(١) بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص]

أى: اضرب برجلك ذلك المكان يخرج لك منه ماء بارد، تغتسل منه؛ فيزيل الأعراض الظاهرة، وتشرب منه ليعالج أصل الداء.

إذن: فالموعظة وكأنها تجسدت، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجيد^(٢) التي تصدر عنها الأفعال، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة، لا تحلّل فيها، وهدى إلى الطريق الموصل إلى الغاية الحقة، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأى داء، وهذه الموعظة تؤدي إلى العمل المقبول عند الله سبحانه.

ولكن إن صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة: الشفاء، والهدى،

(١) ابتلى الله سبحانه عبده ونبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض في جسده وفقد ماله وأولاده. واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله، ولم يبق معه إلا زوجته التي اضطرت للعمل في خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام، ولما دعا أيوب ربه: ﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] استجاب الله له وأزال عنه الضر إذ قال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل، فأنبع الله في الأرض عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره أن يضرب الأرض في مكان آخر ففعل فأنبع الله له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها؛ فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً. [ذكرها ابن كثير في تفسيره ٣٩/٤، ٤٠] وقال عنه سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص].

(٢) المواجيد: المقصود بها أعمال القلب التي إن استقامت استقامت الجوارح.

والرحمة ، والعمل الصالح ، فإياك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ ﴾

﴿ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا في تطبيق منهج الله ، فكلنا بعباداتنا لن نؤدى حقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّفَ ، وعلينا أن نتدبَّر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى ^(١) الله برحمته ^(٢) » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد في دنياه ، وهو لن يؤدى بطاعته حق كل النعم التى أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكَلَّفَ إلا عند البلوغ ، أى : فى سنِّ الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التى أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السنِّ ، فهو لن يحصيها ^(٣) ، فما بالنعم التى تغمرنا فى كل العمر ، وحين يجازينا الحق فى الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صلَّيتُ كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التبعيُّدى ، وتذكَّر القول

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمَّدنى » : يُلبسنى ويتغشَّبنى ويسترنى . [لسان العرب : مادة (غ م د)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ . [التحل] . وقد أفرد سبحانه النعمة هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرتها واحدة فى نظرك فهى مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعدُّ ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رَبِّ مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَانْكَسَارًا ، خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

إن تمتع الإنسان في الحياة بالملك والمملك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذي يهبنا الحق سبحانه إياه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذي يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحريمه^(١) ؛ لأن الحق سبحانه حدّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعامل نفسك كما تعامل الآلة التي تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدي مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التي تنفعك وتستفيد منها وتؤدي حركات الحياة بالطاقة التي يمدّك بها ما حلّله الله لك .

وكذلك حرّم الله عليك ما يضرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّني فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِفَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴾ (١١٣) [النحل] .

ما فى الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُضجِج لك الطعام .
إذن : فهناك شىء مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حَلَّلَ لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرَّم عليك لحم الخنزير ^(١) ، فلا تسأل : لماذا خلق الله الخنزير ؟ لأنه خلقه لمهمة أخرى ، فهو يللملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التى أرادها الله لها .

وبعض الناس قد حرَّم على نفسه أشياء حلَّها الله تعالى ^(٢) ، وهم بذلك يُضيقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلّل ما حرَّم الله أنه يوسّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ... ﴾ (٥٩) ﴿ [يونس]

أى : أخبرونى ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما مباشرة ، وإما بالوسائط ، فكيف تندخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنزل الرزق قد بيّن لكم الحلال والحرام !؟

وكلمة ﴿ أنزل ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى ^(٣) ، وكل ما ترونه

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴿ [المائدة]

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَنزِلُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٦) ﴿ [آل عمران]

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ [الذاريات] فتزول المطر من السماء هو رزق ينزله الله سبحانه ، فتحيا به الأرض الميتة فتنبت الزرع فيأكل منه كل كائن حى على الأرض من إنسان أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ... ﴾ [يونس]

حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذي تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشتري به ما يأكله .

وكلمة ﴿ أَنْزَلَ ﴾ تعني : أَوْجَدَ ، وخلق من أعلى ، وما دام كل شيء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿ أَنْزَلَ ﴾ من جهة العلوّ الحسية ، بل خُذها من جهة العلوّ المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّرٌ مَن خَلَقَ ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ^(١) ۝ (٧٥) ﴾ [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذي نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أي : الإيجاد من هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذي أنزل الرزق ، وبيّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم في الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

(١) البَيِّنَات : الآيات الواضحة . والقسط هنا : العدل . والبأس : القوة . [لسان العرب].

وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجعل لمن خَلَقَ وهو سبحانه أدرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. ﴾ (٤٩) [يونس]

أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعَلَ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٤٩) أى : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبيِّن لنا مدى قُبْح السلوك فى تحريم ما أحلَّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - فى إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى فَصَّلَتْ الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرننا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٣) [المائدة]

والْبَحِيرَة - كما ذكرنا - هى الناقة التى أنجبت خمس بُطون آخرها ذَكَر ، وكانوا يشقُّون أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة^(١) غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أى حَمَل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزَّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَام الآلهة التى كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها «بَحِيرَة»^(٢) ؛ لأنهم كانوا يشقون أذناها علامةً على أنها أدَّت مهمتها .

(١) السائمة : الغنم والماشية ترعى حيث شاءت . والسائم : الذاهب على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سوم].

(٢) وسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذنها يكون شقاً واسعاً فأشبه البحر فى سعته . (بتصرف من أحكام القرآن للجصاص ٦٠٨/٢) ؛ وفى تحديد المقصود بالبحيرة - هل هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن أم بنتها التى ولدت فى آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر فى هذا تفسير ابن كثير (١٠٧/٢ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل فى بعض الأقوال أن السائبة هى أم البحيرة .

أما السائبة فهي غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً ^(١) وَهَبَ أَنْ يَجْعَلَ نَاقَةً لِحَدَّامِ الْأَصْنَامِ ، واسمها سائبة ، وهي أيضاً لا تُرْكَبُ ، ولا تُحْلَبُ ، ولا يُحْمَلُ عليها ، ولا أحد يتعرَّض لها .

والوصيلة : هي الأنثى تلدها الناقة في بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : « وَصَلْتُ أَخَاهَا » ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

﴿ وَلَا حَامٍ ﴾ والحام : هو الفحل الذي يحمى ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبطن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَلُ عليه ، ويترك لحدَّامِ الأصنام .

هذه هي الأنعام المحللة التي حرّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها حدّامِ الأصنام ، وفي ذكر عدم تحريم تلك الأنعام رافة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حرّموا بعضاً مما أحلّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

(١) كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برىء من علة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقتي سائبة أى : تسيب فلا يتنفع بظهرها ، ولا تحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلاً ، ولا تركب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة (سيب)].

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ^(١) مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ^(٢) وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ [يونس]

وهكذا تدخلوا في تحريم بعض الحلال وحلّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا تعدّ ما كان يجب أن يقتضوه ^(٣) ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ [يونس]

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

(١) ذرأ: خلق. والحرت: هو الزرع والثمار.

(٢) بزعمهم ، أى: بقولهم الكذب. [لسان العرب].

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من المطاعم في قوله: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ [الأنعام].

ولو استحضروا ما أعدّه الله لهم من العذاب والنكال^(١) يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦٠) [يونس]

إن الله سبحانه مفضلٌ على كل خلقه - وأنتم^(٢) منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾



(١) النكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة] .
 (٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالِاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِنِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص] .
 (٣) تفيضون فيه : تدفعون فيه وتنسبونون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أى : ما تكون يا محمد فى شأن والشأن : هو الحال العظيم المتميز الذى يطرأ على الأمر .

ونحن فى حياتنا اليومية نقول : ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب السامع بالشىء الهام الذى حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور .
ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٦٩)

[الرحمن]

أى : لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ، وقال لها : اعملى أنت ، لا فهو سبحانه كل يوم فى شأن .

ولذلك حين سئل أحد العلماء^(١) : ما شأن ربك الآن ؛ وقد ضحَّ أن القلم قد جَفَّ؟ فقال : «أمور بيديها ولا يبتديها» .

أى : أنه سبحانه قد رسم كل شىء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيوم ، أى : مُبَالِغٌ فى القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئنا سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث فى الآية التى نحن بصددنا موجه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ .. ﴾ (٦١)

[يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذى يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج بـ «افعل و» «لا تفعل» .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ .. ﴾ (٦١)

[يونس]

(١) هو : الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليفسر له ثلاث آيات أشكلت عليه ، منها هذه الآية ، فقال : إنها شئون بيديها لا شئون يبتديها . ذكره القرطبي فى تفسيره (٦٥٦٧/٩) .

سُورَةُ يُوسُفَ

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلوه ^(١) ، وتعنى تأييداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ^(٢) أُغْرِقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبي ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأييداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوِّضَ رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمْ ^(٣) الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصاب ^(٤) الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرع .

(١) ما تتلوه : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهاء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شيئاً ، فيتلى من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبي فى تفسيره (٣٢٨٣/٤) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بإبلاغ عن الله بالنص القرآني ، وإما تطبيق فعلي للنص القرآني بالحديث النبوي ، وبالأسوة التي تركها لنا ﷺ في سنته .

والحُجَّةُ على الحُكْم - أي حُكْم - يأتي بها القرآن ، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة ، فيكفي فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرع .

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حدُّثوا بشيء من حديث رسول الله ﷺ قالوا: «بيننا وبينكم كتاب الله» ^(١) ، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله ﷺ - فعلاً ، أو قولاً ، أو إقراراً .

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جلَّ شأنه :

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا .. ﴾ (٦١)

[يونس]

وفى هذا انتقال للسامعين للقرآن ، المبلِّغ إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

والعمل هو مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنية القلب - يسمَّى عملاً ؛ لأن عمل القلوب هو النية . ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولاً ، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً .

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين : قول ، وفعل .

(١) عن المقدم بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل يتكلم على أريكته يحدث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله .» أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطني (٢٨٦/٤) في سنتهم ، واللفظ للدارقطني .

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلغه الرسول ﷺ .

والإقبال على العمل التكليفى بهذا الشوق ، وتلك اللهفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعانى يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أى : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ^(١) مِنْ عَرَفَاتٍ .. (١٩٨)﴾ [البقرة]

أى : شَرَعْتُمْ^(٢) فى الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدَيْتُمْ نُسْكَأ أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على نُسْكَ ثَان .

إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيات وما يَبِيَّت فيها من خواطر؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .

يقول الحق سبحانه :

(١) يسن الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة رفقا بالناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة . انظر فقه السنة (١/٥١٨) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يضم إليه زمام ناقته «حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) شرعت فى الأمر : بدأته ودخلت فيه .

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٦١) ﴿

[يونس]

أى: أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ، وكلمة «يعزب» تعنى: يغيب ويختفى .

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلّة .

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذرّة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهباء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهباء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكونات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها .

وأنت لا تدرك الشئ ولا تحسه لأمرين : إما لتناهيه فى الصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المجاهر التى تُكبر الشئ المتناهى فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات .

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصغر بحيث

لا تستطيع عينك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كُبرت فترى فجوات وتعاريج وعلُوءاً وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذي تراه تحت المجهر ناعماً .

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طولُه في عينيك .

إذن: لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأى شىء .

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى: النملة الصغيرة .

وأنت إذا وطأت نملة في أرض رملية فهى لا تموت ، بل تدخل فى فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى .

قد بين الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدّث عن سليمان - عليه السلام - فى وادى النمل ، فقال تعالى :

﴿ .. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

[النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهى فى الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة فى الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير^(١) .

إذن: الذرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .
وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه
مثقال ذرة .

ويعزب ، أى: يغيب ، ويقال: «هذا البئر ماؤه عازب» ، أى: قادم من
عمق بعيد ، ويحتاج استخراجَه إلى دَلْوٍ وحبالٍ طويلة .
ونسَمَى الرجل الذى يبعد عن أهله «عَزَبٌ» .

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يَعْرَبُ﴾ . أى: لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر
شئ ولا أكبر شئ .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان
إنما يشهدها الله ، ويعلمها ، وهو المُجَازِي عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعْمَى على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعْمَى
على قضاء السماء^(٢) .

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه :

- (١) قال تعالى : ﴿وَحِشْرَ سَلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنَ النِّجْنِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ [النمل] وسار سليمان
بموكبه العظيم هذا : ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَآءَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ . . (١٨)﴾ [النمل] أى : مرَّوا على وادى النمل فقالت
نملة لإخوانها : ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سَلِيمَانَ وَجُنُودَهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل] فهى
خافت على النمل أن تحطمها الحبول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان :
﴿فَتَسَبَّمُ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِي وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخُلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل] . أى : ألهمنى أن أشكر نعمك التى أنعمت
بها على من تعلمنى منطق الطير والحيوان وعلى والدى بالإسلام لك . [ابن كثير : ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩] .
- (٢) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون
ألحنَّ بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً
فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

[الزلزلة]

يَرَهُ (٨)﴾

هذا للمتساوى فى الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها فقال :

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ.. (٦١)﴾

[يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هى الجزء الذى لا يتجزأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل فى زمن نزول القرآن .

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلة لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجواهر الفرد . أى : الشىء الذى لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتى عَصَّارَة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرى ، وحين حطمت ألمانيا ما قيل عنه «الجواهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتتت الذرة .

وقد جعل الحق سبحانه المقياس فى الصغر هو الذرة .

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجس المتصلون بالدين وخافوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ

[يونس]

ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾

و﴿ مَا يَعْرَبُ ﴾ أى : لا يبعد أو يغيب ﴿عَنْ رَبِّكَ ﴾ أى : عن علمه
﴿ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ . أى : وزن ذرّة .

وقديماً قلنا : إن البعض يقول : إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى
اللغة ، كقولنا : «ما جاءنى من رجل» وتعرب كلمة «من» : حرف جر
زائد ، و«رجل» : فاعل مرفوع بالضمّة الظاهرة التى منع من ظهورها
اشتغال المحل وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد .

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد ^(١) ، ف«من» فى قوله :
﴿ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ . أى : من بداية ما يقال له «مِثْقَال» .

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالَمِ الْغَيْبِ
لَا يَعْرَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ . . (٢) ﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿ وَرَبِّي ﴾ مُقْسَمٌ به ، وحرف «الواو» هو حرف الجر ، ولم يأت
هنا بالشهادة ، وجاء بالغيب ، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن
بصدد خواطرنّا عنها .

وعالم الشهادة ، تعنى : أنه عالمٌ بكل ما يشهد ، ويظن البشر أنها غير
مُحَاطٍ بها لعظمتها ؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب ، لكن الحق
سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة .

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام . والحق أن حروف الجر
«الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية . فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد
تأكيد معنى النفى . وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته ، بضرب هذه الأمثلة ؛
لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً . فيقول : «ما معى مال» و«ما معى من مال» . فكلمة «من»
فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفى وجود أى مال مع المتكلم ، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما
معى مال» .

سُورَةُ الْيُونُسِ

٦٠.٢١

لقد قال الحق كلمة «مِثْقَالِ ذَرَّةٍ» ثلاث مرات:

مرة حين قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ (٧)

[الزلزلة]

ومرة حين قال هنا:

﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ...﴾ (١١)

[يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مِثْقَالِ».

وقال الحق سبحانه في موضع آخر:

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾ (٣)

[سبأ]

وجاء بالسّموات أولاً ، وجاء في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب^(١) ، فيأتي بمِثْقَالِ الذرة ويقدم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكَةِ الأداء البياني .

وإن عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قدّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض:

(١) غاب الشيء يغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المنعوى . والغيبية : اسم مرة من غابه ، أى : ذكره في غيبته بالسوء كماغتابه ، قال الحق : ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا...﴾ (١٦) [الحجرات] والغيبية : اسم هيئة منه . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ (٢) [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب . يقول الحق : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ...﴾ (١٠٣) [المائدة] .

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ .. ﴾ (٦١) [يونس]

وجاء أيضاً بالسماء ، وهي السماء الدنيا التي يراها أهل الأرض .
أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ
لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٣) [سبأ]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من
السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلفين في الأرض : قوموا
ها هي الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند
ربِّي ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم
في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرة ،
والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب
مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٦١) [يونس]

ولنا أن تلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخرج ما قبله ، بل كل شيء

(١) بان الشيء بين بياناً ظهر واتضح ، فهو بين وهي بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل بين والبينة
بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (٦١) [البقرة] والبينة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ،
وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥) [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان
المتعدى ، وقوله : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرِ مُبِينٍ ﴾ (١٨) [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من :
القاموس القويم] .

مكتوب في الكتاب المبين ، ونحن في الدنيا نجد الإنسان إن كان له دين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجّل ما له وما عليه . ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟ إنه سبحانه يعلم أولاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿الآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْرِ رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أَنْ اللَّهُ قَدِ امْتَنَ عَلَيْكَ بِنَفْحَةٍ ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد علم غيباً لأنه وليُّ الله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلِّمٌ غَيْبٌ» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذي سُرِقَ منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرِقَ منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التي كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ،
والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب ^(١) لينزل الماء ،
كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدّد لكل أمرٍ منها
ميعادَ كشفٍ ؛ فصارت أموراً مشهورة ..

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجهّد ليكشف أسرار
الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف
كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ،
وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية
فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات
السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو
صدفة .

إذن: ففى الكون غيب قد يصير مشهداً ، إما بمقدّمات يتابعها خلقُ الله
بالبحث ، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شيء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُعطى يغلى فيه
الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

(١) يقول سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر] .
والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب
لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تَجِرُّ العرَبات التي تسير على عَجَلٍ ،
وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده
لكى يتأمل ؛ ليكتشف سرّاً من تلك الأسرار^(١) .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها -
دون مقدمات من الخلق - أكثر مما وُصِلَ إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائي فى القرآن عن لَوْنَى الغيب ،
تعبيراً دقيقاً لفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له
مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا
يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا

[البقرة]

شَاءَ .. (٢٥٥) ﴿

هذا هو الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ،
أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا
هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذى لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيهِ
إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

(١) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمة
لل بشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَنى أَمَرَ اللّٰهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (١) [النحل] ، وهناك غيب لله
لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ^(١) عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ ۖ

رَسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

إذن: فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خلقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت فى القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبات وحدد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة^(٢) ، وقال فيه الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به ؛ يهبه الله تعالى هبة يراها الناس فيعرفون أن من يتبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية ، ولكن هذه الهبة ليست وظيفة ، وليست (دكناً) للغيب ، بل هى من عطاءات الله تعالى .

(١) ظهر الشيء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى تبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ .. (٣٣)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْحَمُوكُمْ .. (٢٥)﴾ [الكهف] أى : إن يتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكن منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٢٣)﴾ [التوبة] أى : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم) .

(٢) الأسوة: القدوة . [لسان العرب : مادة (أ س ي)] . أى : الاقتداء بفعل الغير واتخاذة مثلاً يحتذى ، سواء أكان فى الخير أو فى الشر ، وشاع استخدامها فى الخير .

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ^(١).. (٥٩)﴾ [الأنعام]

أى: أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد ، والولى من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس]

نجد أن كلمة «ولى» من وكيه ، يليه ، أى: قريب منه ، وهو أول مَفْرَع يفرع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على من والاه .

وَمَنْ يَقْرُبُ عَالِماً يَأْخُذُ بَعْضاً مِنَ الْعِلْمِ ، وَمَنْ يَقْرُبُ قَوِيًّا يَأْخُذُ بَعْضاً مِنَ الْقُوَّةِ ، وَمَنْ يَقْرُبُ غَنِيًّا ، إِنْ احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قَرْضاً .

إذن: فالوكى هو القريب الناصر المعين الموالى .

وتطلق «الولى» مرةً لله سبحانه ، وقد قال القرآن:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ^(٢).. (٩)﴾ [الشورى]

(١) قال الزجاج: جاء فى التفسير أنه عنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرَى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرَى نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٢٣)﴾ [لقمان]. قال: فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن؛ لأنه قد خالفه. [لسان العرب: مادة (ف ت ح)].

(٢) تقول اللغة: الولى: هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة، أو الولى الصديق، وهو ضد العدو، والولى: المطر بعد المطر والولى من يلى أمر إنسان، ويقوم على شئونه، كالوكيل، ويجمع على أولياء، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، يقول الحق: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [يونس] والولى: من تولاه الله بالرعاية، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ [يونس] [حرف الواو - القاموس القويم].

لأنه سبحانه القريب من كل خلقه ، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولي المطلق ، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الولي الحق ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. (٤٤) ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقّة فليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية .

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٢) ﴾ [يونس]

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإن قيّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين .

والحق سبحانه لا يحكمه قوانين ؛ فبطلاقة قدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خصلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك .

وتسمع من يقول : إن فلاناً قد خطف من المعصية أي : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خصلة خير فيه ، فهداه .

ومثال ذلك : الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملاً خفه

بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له سيئاته^(١) .

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قدرته سبحانه تقدر كل موقف كما قدرت اختلاف الخلق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ^(٢)

[الروم]

وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجي ، وهذا بعض من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خلقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقربُه قُرْباً أكثر فيعطيه هبة اصطفاوية يراها الذين حولهم وقد يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خلق الله ، فإذا علم سيئة عن إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السر ويحب من يستر .

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر ، فملاخفه ، ثم أمسكه بفيه (بفمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له » . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألا يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألا تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخصلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌ فبحقّي عليك كن لي محباً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وفي هذا القول يضع مسئولية القرب من الله في يد الخلق ، ويضيف الحق سبحانه :

« وإن تقرب إلي شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »^(١) .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يُقرّبه الله منه أكثر وأكثر .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهي ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ سنتيمتراً . [المعجم الوسيط : ذرع] . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً ، والمراد : المبالغة في الاتساع [المعجم الوسيط : ب وع] . والهرولة : الإسراع .

إذن: فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فيفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً.

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنساناً يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعباء الحق لعباده ؟

إذن: فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد في معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً.

وقد قال أبو العلاء المعري^(١) لمحبوبته:

أنت الحبيبُ ولكني أعوذ به
من أن أكون حبيباً غير محبوبٍ

أى: أنه يستعيز بالله من أن يكون محبباً لمن يرفض حبه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحب الله يقربك أكثر وأكثر ، ويسمى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خلقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجح واحد منهم متفاخراً بعباء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذي يتبجح بها

(١) هـ أ. ح. ١٠٠٠. ش. ١٠٠٠. ا. ا. شاعر فيلسوف، ولد ٣٦٣ هـ ومات في معرة النعمان (٤٤٩ هـ) عن

١٠٠٠ سنة، عسى في الرابعة من عمره. وهو ابن إحدى عشرة سنة. ولما مات وقف على

قبره ٨٤ شاعراً يرثونه. [الأعلام للزركلي (١/١٥٧)].

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيته ، وهو سبحانه الذي بدأ ويبيّن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور^(١) . فقال :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ ﴾ [البقرة] [٢٥٧]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتي بالمحسّات ليبيّن المعنويات ؛ لأن إلف الإنسان أولاً بالمحسّات ، وهي أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهوميك .

وإذا كنا نتجنّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شيء فنحطّمه أو نصطدم بأقوى شيء فيحطمننا .

إذن : فَحَجَبَ المرائي سبب الكوارث ، أما حين يأتي النور ؛ فهو يبيّن ملامح الأشياء فتسير على هدى وأنت مطمئن .

وهب أنك في مكان مظلم ويوجد شيء آخر في مكان منير ، فأنت في الظلمة ترى من يوجد في النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا الذُّكْرَ اللَّهُ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [٤١] وَسَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [٤٢] هُوَ الَّذِي يُصَلِّي

عَلَيْكُمْ وَمَلَأَنَّكُمْ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا [٤٣] ﴾ [الأحزاب] فقد عبر القرآن

بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هي بلاغة الإعجاز في كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئي ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامي واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي ؛ لرأى الإنسان في الظلام .

إذن: أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوي أقوى من النور الحسي ، فعالم القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر في عالم الحس يمكن أن يحدث ، أما في عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر:

جراحاتُ السنان^(١) لها التئامٌ ولا يلتأمُ ما جرحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجيء في الخطاب .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ .. ﴾ (٦٢) . أى : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) . أى : أن الحزن لن يأتي منهم ، والخوف يكون من توقع شيء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان: السهام والرماح . وجراحاتها: آثار الجروح نتيجة الإصابة بها . والانتئام: هو اندمال هذه الجروح . [انظر لسان العرب] .

يحدث في المستقبل .

وفي حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه في الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى ولياً من أولياء الله وقد أصيب ابنه في حادث أو مات الابن ، تجد الولي في ثبات لأنه يعلم حكمة الله في قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن : فالخوف يأتي من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء فات .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ۗ ۝٢٣ ﴾ [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومن لا يعرف حكمة الله تعالى في الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله .

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الورع الذي يتجلى في قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا» .^(١)

(١) الأسي : الحزن الشديد . وتام الآية : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ ۝٢٣ ﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون

متوازناً ، فلا يحزن على شيء فاته ، ولا يفرح بشيء جاءه قد يذهب بعد حين .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك

وبيّن الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٦٣)

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر في الأمر ، والنهي في النهي، والإباحة في الإباحة .

والتقوى - كما علمنا - هي اتقاء صفات الجلال في الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ في صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين :

«هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلّى نور»^(١) .

وقد سئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرْباً من الله». وكأنه-رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ^(٢) فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. ﴾ (٢٩) [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكرك بالخشوع^(٣) ، والخضوع^(٤) ، والسكينة ، ورقّة

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب ، وقامه: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلّى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور في وجوههم .

(٣) خَشَعَ (خشوعاً) إذا خضع ، وخَشَعَ في صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَت) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغيره (يخضع) خضوعاً : ذَلَّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر : أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل في الصوت ومنه : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ .. ﴾ (١٠٨) [طه] والخضوع في الأعناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير .

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد في هذا الكون أى خلل ، بل يرى كل شىء فى موضعه تماماً ، ولا يرى أى قبح فى الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول : إن هذا القبح بيّن لنا الحُسن ، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقَّ ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق .

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال : كُنْ جميلاً فى دينك ترَ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهيات من الفيض الأعلى ، وكلما تقرّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق^(١) .

ومثال ذلك : العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلم موسى عليه السلام^(٢) ، فحين قارن بين خرق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غصباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل : كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بيّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين^(٣) .

وحين قتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

(١) ويقول رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) عن أبى هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى وقتاه فى لقاءهما بالخضر عليه السلام : ﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا أتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ (٦٥) قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً (٦٦) قال إنك لن تستطيع معى صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً (٦٨) قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً (٦٩) قال فإن أتبعنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً (٧٠) ﴿ [الكهف] .

(٣) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال : ﴿ أخرفتها لخرق أهلها لقد جئت شيئا إمراً ﴾ (٧٨) ﴿ [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ (٧٩) ﴿ [الكهف] .

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله ^(١) ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص ^(٢) الجنة .

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصرأ ، ولا يطبق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أى صحابى جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط فى تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبد الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد ؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجروا أهل القرية اللثام على السطو عليه ^(٣) .

(١) قال موسى : ﴿ أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ (٧٥) ﴿ [الكهف] فنبأه الخضر بتأويل ما لم يستطع فهمه أ . استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرُوهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٨٥) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ (٨٦) ﴿ [الكهف] .

(٢) دعاميص : هم صغار الأطفال ، فسر بالدوية التى تكون فى مستنقع الماء ، قال : والدعْمُوصُ : الدخَالُ فى الأمور ، أى : أنهم سيأحون فى الجنة دخالون فى منازلها ، لا يُمنعون من موضع . كما أن الصبيان فى الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرْمِ ، ولا يحتجب منهم أحد . [لسان العرب : مادة (دع م ص)] .

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة فى كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٧٧) ﴿ [الكهف] . فقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي .. ﴾ (٨٦) ﴿ [الكهف] .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مثل هؤلاء العباد كالصواري المنصوبة التي تهدى الناس ، أو كالفئار الذي يهدى السفن في الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۗ

لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُمْ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

﴿ ٦٤ ﴾

والبُشْرَى^(١) : من البشر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهي الجلد ؛ لأن أي أنفعال في باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيئ تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هي أول منفعال بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : « بشري » فهذا يعني كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشر بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشري ، قال : « إنها الرؤية الصالحة ترى للمؤمن أو يراها » ، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »^(٢)

(١) بشر بكذا ، وبشر ، مثل : فرح ، ورتناً ومعنى ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من المخفف : بشير ، وهو البشير في الخير أكثر من الشر ، والبشر : والبشري : فعلى من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبشر : طلاقة الوجه . والبشرة : ظاهر الجلد . وبين البشري بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعل يظهر مرتباً في السرور وغيره . [المصباح المنير - بتصرف]

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وقد أوحى للنبي ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه في اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً .

والرؤيا ليست هي الحُلْم ؛ لأن الرؤيا هي شيء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل .

والمثل العامى يقول : «الجوعان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان^(١) .

إذن : فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام^(٢) .

البشرى - إذن - هى الرؤيا الصالحة ، أو هى المقدمات التى تُشعر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى فى السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام : « إني أحب فلاناً فأحبه » . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول فى الأرض^(٣) .

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابي جاءه فقال : إني حلمت أن رأسي قطع فأنا أتبعه ، فزجره النبي ﷺ وقال : « لا تُخبرُ بتلعب الشيطان بك فى المنام » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٨) .

(٢) أضغاث الأحلام : الرؤيا التى لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتباسها ، والضغث : الحلم الذى لا تأويل له ولا خير فيه ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ ﴾ [يوسف] ٤٤ . أى : رؤياك أخلط ليست برؤيا بينة ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ [يوسف] ٤٤ . أى : ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل . [لسان العرب : مادة (ض غ ث)] . وهم قالوا هذا لعجزهم عن تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك ، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة . واللفظ لمسلم ، وقامه عنده « وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضونه . ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » .

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن في رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هي البشرى .

أو أن البشرى تأتي لحظة أن يأتي ملكُ الموت ، فيُلقي عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٢) [النحل]

أو ساعة يبيضُ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى في الدنيا وفي الآخرة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا .. (٣١) [فصلت]

إذن : فهؤلاء الأولياء^(١) يتلقون من فيوضات^(٢) الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هي أقل القليل في التكليف .

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلَّوا عن المعاصي وتحلَّوا بالطاعات فتجلَّى سبحانه عليهم بالفيضات ومن هذا الفيض القبول والرؤيا الصالحة .

(٢) من عطاءات القبول باقى الآيات في قوله تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ (٣١) نزلنا من غفور رحيم (٣٢) [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا تعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب .

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلى - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود^(١) مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء فى الحديث القدسى :

«من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، وإن سألتنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيدنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته»^(٢) .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [٦٤] [يونس]

(١) ودّ : أحب . والاسم : المودة . وودود ، أى : مُحبّ ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .
 (٢) المساءة : نقيض المسرة ، وأصلها : مسواة ، على مفعلة ، ولهذا ترد الواو فى الجمع فيقال : هى (المساوى) لكن استعمل الجمع مخففاً ، وبدت مساويه أى : نقائصه ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وسميت سوءة لأنها بانكشافها تسوء صاحبها . [المصباح المنير] .
 والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) عن أبى هريرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومن كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد يبشرى الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبشريات في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾

تجىء هذه الآية بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاّ يفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا: ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَرٌ ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسخرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن: كَذَّبَ قَوْلُهُمْ فِي أَنَّهُ ﷺ سحر عبيدهم وأولادهم .

وقالوا: مجنون ، ولم يكن في سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وفند أقوالهم هذه بقوله سبحانه:

سُورَةُ يُونُسَ

٦٠٤٣

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ^(١) ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴿ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خُلُقٍ عَظِيمٍ أبداً .

وحين قالوا : إنه افتري القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل
ما قال ^(٢) ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون ^(٣) للشعر والأدب
والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (٦٥) ﴿ لَأَنْ أَقْوَالَهُمْ لَا حَصِيلَةَ لَهَا مِنَ الْوَقُوفِ
أَمَامَ الدَّعْوَةِ ؛ لِأَنَّ .. الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٦٥) ﴿ والعزة هي القوة ،
والغلبة ، ويقال : هذا الشيء عزيز ، أى : لا يوجد مثله ، وهو سبحانه
العزیز المطلق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغَلَبُ ولا يُقَهَرُ .

وتلاحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ ^(٤)

وتعنى : ضرورة الوقف هنا .

(١) مَنْ عَلَيْهِ بِالْعَتَقِ وَغَيْرِهِ (مَنْ) مِنْ بَابِ قَتَلَ . وَامْتَنَ عَلَيْهِ بِهِ : أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهِ . وَالاسْمُ الْمُنْتَهَى ، وَالْجَمْعُ (مَنْ) وَالْمُنْتَهَى بِالضَّمِّ : الْقُوَّةُ ، وَهِيَ مِنَ الْأَضْدَادِ . وَمُنْتَهَى عَلَيْهِ : أَيْ : عَدَدَتْ لَهُ مَا فَعَلَتْ لَهُ مِنَ الصَّنَائِعِ . وَفِي هَذَا تَكْدِيرٍ وَتَنْبِيهِ تَنْكَسِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ . لِهَذَا نَهَى الشَّارِعُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُثَقِّقُ مَالَهُ بَيْنَ يَدَيْ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَفَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٤) ﴿ [البقرة] . وَمُنْتَهَى الشَّيْءِ أَيْضًا إِذَا قَطَعْتَهُ فَهُوَ مَمْنُونٌ . وَالْمَنْ : شَيْءٌ يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ . فَيَجْنَى . [المصباح - بتصرف] .

(٢) وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦٨) ﴿ [يونس] .

(٣) مَرْتَاضُونَ لِلشَّعْرِ : أَيْ : لَهُمْ ذُرْبَةٌ عَلَى قَوْلِ الشَّعْرِ وَتَنْظُمِهِ .

(٤) وَهَذَا هُوَ الْوَقْفُ الْإِلْزَامُ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَعْثُبُهُمُ اللَّهُ .. ﴾ (٦٦) ﴿ [الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنيٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف في كل سورة تجده مُنَوَّنًا ، وليس في القرآن ما يُلزم الوقف للقارئ ؟

وأقول ردًّا على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف ملكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارئ - الذي لا علم له بالبيان العربي - كيف يقرأ هذه الآية ، فهبُّ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٦٥) إلى ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (٦٥) . ويخطيء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هي أمر يُحزن النبي ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لتدقق القراءة ونُحسِن الفهم .

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (٦٥) ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٦٥) ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألا تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغير في مجرى حتمية انتصارك عليهم . ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ في أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هي البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيِّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن بما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا ^(١) أَنفُسُهُمْ .. ﴾ (١٤)

[النمل]

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم . واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين . [لسان العرب: مادة (ى ق ن)].

وأقولهم لن تقف في سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ اللهُ نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجبر ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هي القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجَّة ، وقد تكون عزة حَلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة في كل محيط وفي كل مجال ، شاملة لكل شيء وأي شيء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر^(١) في هذه الآية ؟

أى: أن تأتي الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول: «لزيد مالٌ ليس لغيره». وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلّق - فنقول: «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلان ليس له كذا.

وإن قلنا: «فلان له كذا» فيصح أن نقول: «ولفلان كذا ، ولفلان كذا ، ولفلان كذا».

أما إذا قلت: «لفلان كذا» فمعناها: امتناع أن يكون لغير فلان شيء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ . . . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . . ﴾ (٦٥) ﴿ وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائي يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر بأخر بطريق مخصوص ، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ١٤٩ / ٣] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتى قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزِل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم ^(١) العزة لنفسه وقالوا:

﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعرض منها الأذلَّ . . (٨) ﴾ [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين . إذن : فالعزة قد ادُعيت ، وما دامت قد ادُعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر؟

نقول : لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول :

﴿ . . وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . (٨) ﴾ [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ . . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . ﴾ أى : فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ،

إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإن كانت عزة القبض على الأمور فهو

(١) هو عبد الله بن أبى رأس النفاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال : « قد نافرنا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول : سَمَنَ كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعرض منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .

العزیز ، وإن كانت عزة الحلم فهو الحليم ، وإن كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكل ألوان العزة لله تعالى :

﴿ . . هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٥) [يونس]

وما دامت العزة هي الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجيء بالسمع ، وإن كان فيه فعل ، فهو يأتي بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهى عنه هنا هو : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (٦٥) [يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ .. أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلل على هذه القضية دلالة كونية في آيات الله تعالى في الكون ، وليس في الوجود أو الكون من يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلاحظ أن قانون «العزة لله جميعاً» محكوم بأن الله تعالى ما في السموات وما في الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَا آيَاتُ اللَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ

وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ

إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يخرج كائن من كان عن ملكه .

وساعة تجد الحق سبحانه يبين الشيء وضده ، فهو يأتي بالقانون والإطار

(١) يخرصون : يتبعون ظنونهم وكذبهم وإفكهم [تفسير ابن كثير (٢/٤٢٤)].

[البقرة]

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ (٢٨٤)

ومثال ذلك: حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال

[الشعراء]

﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦١)

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبين لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انفلق البحر ، فكان كل فرق كالطود العظيم^(١) .

فلا شيء يخرج عن ملكه سبحانه تعالى ؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالتقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فرق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : ﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ

[الدخان]

مُغْرَقُونَ ﴾ (٢٤)

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبين الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَامَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَرْزَقْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ [الشعراء] .

والفرق : الفلق أو الجزء منه . والطود : الجبل الكبير . [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٢٣٦) ، ولسان العرب : مادة (ف ر ق)] .

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه:

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا .. (٤٢) ﴾ [هود]

فيرد الابن قائلاً:

﴿ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣) ﴾ [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه ، ولكن ابن نوح نسي أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج ؛ فكان من المغرقين .

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على «الجودي»^(١) ، وأن من يركبها لن يغرق ، وكذلك من يأوي إلى الجبل العالى ، لكنه لم يفطن إلى الموج الذى حال بينه وبين الجبل ؛ فكان من المغرقين .

إذن: فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى ، وما دامت العزة لله جميعاً فمصدقها أن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، وليس هناك كائن فى الوجود يتأبى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه ، فيكون جندياً للإهلاك ، وجندياً للنجاة فى نفس الوقت^(٢) .

وقول الحق سبحانه هنا: (ألا) نعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرّة ، ولا تفوته حكمة من حكم الكلام ، وينتبه إلى أن

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ (٤٢) ﴾ [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤس الجبال ، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق . [تفسير ابن كثير ٤٤٦/٢] .

(٢) الجودي: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة ، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام . [تفسير ابن كثير ٤٤٦/٢] . وقيل : إنه جبل أرارات فى شرق تركيا بالأناضول .

(٣) يقول تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤١) ﴾ [الفتح] ويقول أيضاً: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] .

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما في هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

ولقائل أن يقول: هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿من﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن تتساءل للردّ على هذا القائل :

وهل هناك أى شىء فى الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ [الزلزلة]

إذن: فكل الكائنات فى عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء بـ «من» أو بـ «ما» ، وكل من فى الوجود يفهم عن الله .

ونلاحظ أن الحق سبحانه يأتى مرة بالقول: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴾ (٨٤) [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

كما جاء فى هذه الآية التى نحن بصددنا الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً فى الوجود يوجد فى السماء ويوجد فى الأرض ، وهم الملائكة المُدَبَّرَات^(١) أمراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما فى السموات والأرض .

(١) المُدَبَّرَاتُ أمراً: هى الملائكة تُدَبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس فى السموات لا يوجد فى الأرض وهم الملائكة المهيمون^(١) العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً فى الأرض ليس لهم وجود فى السماء ، فإن لاحظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٢٨٤)﴾ [البقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين فى السماء ، وجنوداً فى الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ.. (٦٦)﴾ [يونس]

وما دام كل شىء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شىء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمى بصر من يرقب الغار^(٢) .

إذن : فلن يجير^(٣) شىء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

(١) المهيمون : الذين يهيمنون فى عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم القائمى فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم أقرب الملائكة لحملة العرش الشمانية ، قال عنهم سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧)﴾ [غافر].

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿وَأِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ .. (٦٦)﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿.. وَهُوَ يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] أى : أنه يتكفل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجير من يريد الله عقابه . [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث فى هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار وأثبت الله على بابه شجرة وأوجد حمامتين ترقدان على البيض ، وعنكبوتاً كبيراً قد سد باب الغار بخيوط علاها تراب وكانه تراب السنين .

لا يخذشها خادش من وجود الله فى الكون.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ.. (٦٦) ﴾ [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء ، رغم أن الأصل والحقيقة ألا شركاء له سبحانه .

إذن: فهم يتبعون غير شىء ؛ والدليل على ذلك موجود فى طى القضية ، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى ، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهى ، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهى ؛ فليس هناك منهج جاءوا به .

إذن: فلا ألوهية لهم .

إذن: فالأصل ألا شركاء لله تعالى ، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر ، وكان لهم نواه ؛ لأن الذى يقول: «اعبدنى» إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة . وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج ، ولن يستطيعوا ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ

سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى: أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التى تضىء والقمر الذى ينير ، والمطر الذى ينزل من السماء ، والملائكة التى تدبر الأمر ، لو صدقنا أن كل هؤلاء آلهة ، فهم سيبحثون عن الإله الواحد الأحد ؛ ليأخذوا منه القوة التى ظنتم أنها لهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١)

[المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. ﴾ (٥٧)

[الإسراء]

وهم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم ؛ إذن : فأنتم تتبعون الظن .

لذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ^(١) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ^(٢) ﴾ (٦٦)

[يونس]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يوجدوا في القرآن ظاهر تعارض ليشككوا فيه ، قالوا: إن هذه الآية مثال على ذلك ؛ فيقولون: في بداية الآية يقول: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

فينفى أن المشركين يتبعون شركاء لله ، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتبعون الظن والخرص ، ففي أولها ينفي الاتباع ، وفي آخرها يبثته .

(١) الظن: ما يحصل في النفس عن أمانة ، فهو شك راجع وفعله من أفعال الرجحان ، من باب نصر . والظن مصدر ، والظن: اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس . قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٧٨) [النجم] وجمعه: ظنون ، ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ ﴾ (٤٠) [الحاقة] بمعنى تيقنت . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٢) الخرص: الكذب والقول بغير علم . وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ (٤٢) [الذاريات] قال الزجاج: أي: الكذابين . [لسان العرب: مادة (خ ر ص) - بتصرف] .

وهذا جهل عن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً في الآية ، فالله سبحانه ينفى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله في ملكه ، فقلته من في السموات ومن في الأرض ، ولكنه ثبت أنهم يتبعون الظن والخرص والتخمين .

ونقول: ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراحح كما أوضحنا من قبل في النسب من أن هناك نسبة إن لم تكن موجودة فهي مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإن كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك . وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً .

الظن - إذن - حكم بالراحح . والخرص : هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٦٦)

[يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتي بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتبعون الظن والخرص .

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغير الحقيقة إلى إفك^(١) وإلى خرص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

(١) أفك ، يَأْفِكُ وَيَأْفِكُ - من باب « فرح » و« ضرب » : كذب وافتري باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب : وأفك صيغة مبالغة أى : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ ﴾ [الجاثية] . [القاموس القويم] بتصرف .

إذن : فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبِع - بفتح الباء -
المُتَّبِع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتبس ، يشوه الحقيقة
ويزينها ، أما المُتَّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ
كلامهم بتصديق .

إذن : فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته ، أما المتبع (بفتح الباء)
فيكون الخَـرْصُ والكذب والافتراء من ناحيته ؛ ولذلك يقول لنا الحق
سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)

[البقرة]

هؤلاء - إذن - يصدِّقون ما يقال لهم ؛ لأنهم أميئون ، والكلام الذي
يقال لهم راجح ، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح .
أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

[البقرة]

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. ﴾ (٧٩)

وهؤلاء هم الذين يأتي منهم الخَـرْصُ والإفك وقول الزور والبهتان^(١) .

إذن : فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن ، وينطبق عليهم
قول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ .. ﴾ (٦٦) .

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق
سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٦٦) .

(١) البهتان : الافتراء والكذب . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِهِتَانٍ بِفَتْرِينِهِ .. ﴾ (٦٦) [المتحنة] [لسان العرب

: مادة (ب ه ت) .]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَةَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾

و شاء الحق سبحانه بعد أن بيّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدعيه الكافرون في نبيّ الرسالة ، وبعد أن بيّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتي بالكلام عن آياته سبحانه في الكون تأييداً للمطلوب بالموجود .

فالمطلوب أن تؤمن برسول يبلغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعا لنا ، وإن أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التي وجدت للإنسان من قبل أن يكلف ، أهي في مصلحته أم في غير مصلحته؟

ومادامت الآيات الموجودة في الكون - والمسخرة للإنسان - تفيد الإنسان في حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلفاً .

إذن : فالله سبحانه لم يكلف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فقس ما طلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونية التي سبقت التكليف نافعة لك قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فخذ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طلب منك تكليفاً ، فكما نفعك في الأولى ، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبل حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد^(١) .

ونحن نعلم أن الأصل في الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت في مراداتك ، ثم تجيء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يُصلح لك كل أحوالك .

وإذا تخان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمني للراحة ، وأنت في حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذي تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبين لنا أنه كما قسم الوجود الإنساني إلى مرحلتين :

الأولى : هي ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هي ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..

[يونس]

﴿ ٦٧ ﴾

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿ ٦١ ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة في الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يرد فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله^(١)

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك في أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيئه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها^(٢) ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقاً فى الراحة .

وكذلك عُمر الإنسان ، لم يكلف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذب» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنة والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللجام ، وضرب فاهاه ؛ كى تقف ولا تجرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

وَيَبِّئُ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا الْأَمْرَ فَيَقُولُ: «مَرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ» ^(١).

والذي يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذي يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذي يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة.

وحين يكلف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذي يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهي من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول في النفس .

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه .

إذن : فالأمر والنهي قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهي من ربه ورب أبيه .

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة في «افعل» و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبين لنا الله سبحانه أنه جعل في «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكل مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شيء مكان شيء آخر ؛ حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل في المخازن ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه في آية ثانية :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) وأبو داود في سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٦٣) [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم أولاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذي يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام^(١) بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .
ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطيَّ القدرى ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. ﴾ (٦٧) [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخلق» ، و«الجعل» ، و«الملك» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خلق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً^(٢) .

إذن : فالجعل هو توجيه شيء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنزّه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

(١) نام فلان نوماً : اضطجع أو نكس وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوم فلان : أرقده . والتناوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات فى التفكير والتركيز .

[المعجم الوجيز - بتصرف]

(٢) يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمِداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِكُمْ بضياءَ أَفلا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمِداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِكُمْ بليلاً تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣)

[الفصص]

إبريقاً أو أصصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحول مخلوقاً إلى شيء له مهمة .

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجهه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه .

أى : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدي مهمة للمخلوق .

وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه ملك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملك ؛ فمن عمل قدراً من الطين هو ماله ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه .

وهكذا نجد الخلق والجعل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (٢١)

[يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلها لنا ، وملَّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «ملك» فملكته سبحانه لا تنتهي لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ﴾ [٦٧] [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتي هنا بالأداء القرآني المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .

فهل النهار هو الذى يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصر أم مُبصر فيه؟

وقديماً لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التي وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء^(١) يخرج من العين إلى المرئى فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربى المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئى إلى العين ، بدليل أن المرئى إن كان فى النور وأنت فى الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه .

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيّن لنا أن النهار إنما يأتي بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرئى إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

(١) الضوء - بفتح الصاد والضوء - بضمها والضيء ، والضوء : النور الذى ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخصّص الضوء لما كان صادراً من شيء مضيء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصّص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ۗ﴾ [٥٠] [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

[فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. (٣٧) ﴾

ويقول:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا^(١) آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ

[الإسراء]

مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾

وهي مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت في ظاهر الأمر مُبْصِرٌ فيها .

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك في قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) ﴾

[طه]

و شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿ .. خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) ﴾

[طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هي تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

(١) جعل الله لليل آية وهي القمر، وجعل للنهار آية وهي الشمس، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . بتصرف من تفسير ابن كثير (٢٧/٣) .

(٢) أى : سعيدها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ۙ (١٢) ۙ ﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلاباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلاباب ، مثل جيب (الصديرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمى الجيب الذى نضع فيه النقود جيبياً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ۙ (١٢) ۙ ﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا

جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ۙ (١٣) ۙ ﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة ^(١) وكأنها تقول للعين : أبصرينى .

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿ وَلِيضْرَبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۙ (٣١) ۙ ﴾ [النور] .
 (٢) بَصُرَ بِهِ : رآه بصره ، فهو بصير ، وبَصُرَ بِالْأَمْرِ : علمه كأنه رآه بصره . وقوله : ﴿ فَصَرَّتْ بِهِ عَنِ جَنبِ ۙ (١١) ۙ ﴾ [القصاص] أى : رآته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ۙ ﴾ [الصافات] أى : انظر وترقب . وأبصره : جعله يبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ۙ ﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : من له عينان يبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۙ (٥٠) ۙ ﴾ [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضى . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ تَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۙ (١٧) ۙ ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۙ (١٦) ۙ ﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ۙ (٥٩) ۙ ﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿ .. إِذَا مِنْهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٦٠) ۙ ﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القويم - بتصرف] .

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ ﴾ (٦٧) [يونس]

ولم يقل : لتتحركوا فيه ، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة ، فقال سبحانه : ﴿ مُبْصِرًا ﴾ لأن الضوء الذي ينعكس على الأشياء هو الذي يحفظ للإنسان سلامة الحركة .

ولكن البعض من الناس في زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء في الإسراف في السهر ، وحين يأتي الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التلفزيون) أو (الفيديو) أو في غير ذلك من أمور الترفيه ، ثم ينامون في النهار ، وينسون أن الليل للرقود ، والنهار للعمل . وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر في الكائن الحي ، وقد سبق النبي ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال :

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»^(١) ؛ وذلك حتى لا يشغل الجسم بإشعاعات الضوء التي تتسبب في تفاعلات كيميائية في الجسم .

لذلك أقول دائماً : خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها ؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه ؛ لأن السهر ضار ، وإذا ادعى الإنسان أنه هو الذي تحضّر ، فليحترم قيمة العمل الذي يصنع الحضارة ؛ لأن الآلة التي يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هي إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة ، واحترام قيمة العمل في النهار ، وقيمة الترفيه في الوقت المخصص .

نحن نساء استخدام أدوات الحضارة ، فالزمن الذي وفرته الثلاجة للزوجة ؛ حتى لا تقف في المطبخ نصف النهار لتعد الطعام ، وصارت

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها في الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهى الغسيل في ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضع أمام (التلفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسيء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفي هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها في طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملاً صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان في الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء .

ويجب ألا نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا في تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى : تغطيته للمرئيات) وتجلّى النهار (أى : كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

[الليل]

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ (٣)

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق

سبحانه بنوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

[الليل]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ (٤)

أى : أن حركتكم هى الموصلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار .

(١) شت الجميع يشت شتاً ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمرشت متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. ﴾ (٦٦) [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحسن ومنه السيء وقوله : ﴿ .. أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (٥٧) [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿ نَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ .. ﴾ (٦٩) [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان في الزمان أو في الإنسان ، واقراً جيداً قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) ﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين .
وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهي الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: لم يقل «إن في ذلك لآيات لقوم يبصرون» .
ونقول: لنتبته إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن في هذا الزمان مهمته ، وهو القائل في صدر الآية ووسطها :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٦٧) ﴾ [يونس]

فالعلَّة في هذه الآية هي سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين في الليل لا تؤدي مهمتها ، بل السمع هو الذي يؤدي مهمته .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا^(١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص]

أى: أن أحداً لن يستطيع الحركة في مثل هذا الليل السرمدي ولا أحد سيتبين شيئاً .

(١) السرمد: دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد: طويل . قال الزجاج: السرمد الدائم . [لسان العرب: مادة (س ر م د)].

والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

إذن: فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع^(١) ، وجاء في آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة في الليل ، يأتي الكلام عن الينبوع الذي يجب أن تصدر عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك في النهار ، وترتاح في الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الأمر الواحد ، وهو الله تعالى الذي تعبد به بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة .

والله سبحانه يقول:

﴿إِذَا لُدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ.. (٩١)﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ
لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِّنْ
سُلْطٰنٍ بِهٰذَا تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

(١) وهنا يلتفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآني في أسراره ، حيث وضع الحاسة في مكان وظيفتها التي تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدي مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار في كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرفى .

ونفس نص الآية الكريمة يكذبهم فيما يدعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : «اتخذ فلان بيتاً» أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً .. ﴾ (٦٨) ﴿ [يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزيز ابن الله وهم اليهود ^(١) وقد كذبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله ^(٢) ، وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك ^(٣) .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استفد قوته حتى يساعده الولد!؟

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه!؟

مثلاً يقال حين يواجه شيخ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغي أن يكون

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٦٨) ﴿ [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. ﴾ (٦٩) ﴿ [التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتِلِهِمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٦٩) ﴿

[التوبة] .

المحرّك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض في تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبديد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من أمر واحد يُسَلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه في ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزّه في صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزّه في أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله ^(١) .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. ﴾ (٦٨) ﴿ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد .

ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ^(٢) ﴾ (٢٢) ﴿ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتي ؛ ولذلك يأتي في وسط الآية

ويقول تعالى :

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١٧) [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

(٢) ضاز في الحكم : أى : جار . وقسمة ضيزى وضوزى أى : جائزة ليس فيها حق ولا عدل . [لسان العرب : مادة (ض ي ز) - بتصرف] .

[يونس]

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. ﴾ (٦٨)

وسبحانه تعنى: التنزيه ، وهو الغنى أى: المستغنى عن مُعَيَّن كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر :

* ابني يا أنا بعد ما أفضى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر في الحياة في ولده .

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسُرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذَّكر في جيلين .

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنىٌ عن الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أى لون من ألوانها .

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾^(١) لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتَّبَع ذلك بقوله : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ لأنه

(١) سَبَّحَ يَسْبُحُ مِنْ بَابِ فَتَحَ : سَبَّحًا ، وَسَبَّاحَةٌ : عَامٌّ وَمَرَّ فِي الْمَاءِ . وَمِنْ الْمَجَازِ سَبَّحَ الْجَوَادُ ، أَيْ جَرَى كَأَنَّهُ يَسْبُحُ فِي الْمَاءِ ، وَمِنْ الْمَجَازِ سَبَّحَتِ النُّجُومُ ، أَيْ : سَارَتْ فِي أَفْلَاكِهَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ .. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ ﴾ [الأنبياء] (٣٣) ﴿ وَعَوْمَلَتْ مَعَامِلَةَ الْعُقُلَاءِ لِانْتِظَامِهَا فِي سِيرِهَا . وَسَبَّحَ اسْمٌ رَبِّكَ : نَزَّهَ اسْمُهُ عَنِ كُلِّ نَقْصٍ وَصَفِهِ بِكُلِّ كَمَالٍ أَوْ قُلْ : سَبَّحَانَ اللَّهِ وَمَعْنَاهَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَنْزِيهًا عَنِ النَّقْصِ وَأَصْفَهُ بِالْكَمَالِ ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ ، وَمَصْدَرُ نَائِبٍ عَنِ فِعْلِهِ . [القاموس القويم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنزَه عن مشاركة شيء له - فى الذات أو الأفعال .
وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقِه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى فى البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه .

وأنت حى^(١) والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتى ، ووجودك وجود عَرَضِيٌّ .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التى

(١) حَيٌّ يَحْيَا ، كَرَضِيٌّ يَرْضَى وَحَيٌّ بِالْإِدْغَامِ يَحْيَا حَيَاةً وَحَيَوَانًا ضِدَّ مَاتَ فَهُوَ حَيٌّ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِكُلِّ ذِي رُوحٍ ، وَيَطْلُقُ مَجَازًا عَلَى الْأَرْضِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٦) ﴾ [فاطر] وَيَسْتَعَارُ أَيْضًا لِمَعْنَى الصَّلَاحِ وَالْإِيمَانِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ .. (١٧٢) ﴾ [الأنعام] وَالْحَيُّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَقَابَلُهَا الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ .. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ [آل عمران] وَالْمَحْيَا : مُصَدَّرٌ مِمَّا يَمَعْنَى الْحَيَاةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] أَى : حَيَاتِي وَمَوْتِي .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التي يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهنأ بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا يتقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتي بمسألة في الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ في المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُتَزَّهٌ عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذي لا يتقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شيء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية في الله تعالى ، قبل أن يوجد شيء ، وبعد أن خَلَقَ الخَلْقَ ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق في التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضي ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن في السور التنزيهية ^(١) تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

(١) فتجد التسبيح في الماضي : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحديد] وفي المضارع : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن] وفي الأمر : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى] وفي المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضي يسبحه ، والمستقبل يسبحه وأحال يذكره ، والكون مع الزمن في تسبيح مستمر : ﴿... وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] .

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا

الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ..﴾ (١) [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذي أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان .

وأنت إذا سررت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة في أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ في الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة في ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق .

أى : أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذي أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببعد أو قُرب المكان أو كيفية الزمان الذي تعرفه .

وإياك أن تفهم أن إسرائ الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يحد أفعاله بزمن .

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم في أدق شيء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسرى به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس ^(١) قد خُرق له ،
وحدثنا عما نعلم لنصدق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم
على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم .

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أولاً قبل أن يخلق
الخلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ،
ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه
مُنزّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبّحوا ،
ففي سورة الحديد يقول سبحانه :

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحشر]

فهل سبّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى
الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿ يَسْبُحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

﴿ يَسْبُحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن]

(١) نواميس الكون : الأسرار التي أودعها الله - سبحانه وتعالى - في الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه
ومكوناته .

سُبُوحُ الْأَيْوَاتِنِ

٦٠٧٧

إذن: فالسبحانية لله أولاً ، وسبَّحَ ويسبَّحُ الخَلْقُ وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ .. (٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القائل في آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ

قَاتِنُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت^(١) معناه: الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته .

ويقول سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إن» قد تأتي للنفي في مثل قول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ .. (٢) ﴾ [المجادلة]

وفي قول الحق سبحانه هنا :

(١) قنوت يقتصر - ذل وخضع ليد ، وقنوت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقنوت في صلاته خشع واطمأن ، وقنوت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَاتِنُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] أى : خاضعون معترفون بألوهيته

مطيعون - [القاموس القويم - بتصرف]

[يونس]

﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا .. (٦٨) ﴾

أى: ليس عندكم حُجَّةٌ تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.
ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله:

[يونس]

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

أى: أنكم لا تملكون إعلماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد أن يُعلم عن ربه ، فهو سبحانه من يُعلم عن نفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتي بالفلاح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل :

[الشمس]

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ^(١) (٩) ﴾

وهو سبحانه القائل :

[المؤمنون]

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾

ويقول أيضاً :

[الأعراف]

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى ، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفْسٌ ، وماء ، وطعام ،

(١) زكاهَا: طهرها وبرأها من أقدار البدن والنفس.

والتنفس يأتي من الهواء الذي يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُسْتَنْبَط مما تسرب في باطن الأرض . والطعام يأتي من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُسْتَخْرَج بالفلاحة .

لذلك نقول : إن الفلاحة هي السبب الاستبقائي للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويهها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال : أفلح ، أى : أنتجت زراعته نتاجاً طيباً .
وشاء الحق سبحانه أن يسمي الحصيصة الإيمانية الطيبة بالفلاح .

وبين لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد .

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً في الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّي لك ما عندك ^(١) .

والمثل الذي أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نجد الفلاح حين يزرع فدانا بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور في الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له : «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردب القمح المُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردباً من القمح .

كذلك مطلوب الله سبحانه في الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۚ ﴾ [النحل] وقوله : ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ ۗ ﴾ [الأنفال] وقوله : ﴿ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ۗ ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ ﴾ [التغابن]

إذن: الفلاح مادة مأخوذة من فلاح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة .
وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن
العمل ، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك: الفلاح الذي يحرق الأرض ، ويحمل للأرض السماد
على المطية^(١) ، ثم يستيقظ مبكراً في مواعيد الري ، تجد هذا الفلاح في
حالة من الانشراح والفرح في يوم الحصاد ، وأمره يختلف عما يهمل
الأرض ويقضى الوقت على المقهى ، ويسهر الليل أمام التليفزيون ،
ويأتي يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذي لم يحسن زراعته .
وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾^(٢) [يونس]

أى: هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو في الله تعالى بغير علم من
الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعلم عنه إلا عن
طريق الله . لكن ما الذى يحملهم على الافتراء؟

نعم ، إن كل حركة في الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ،
وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه ، فالطالب الكسول المتسكع في
الشوارع ، الراض للتعلم ، نجده راسباً غير موفق في مستقبله ، أما التلميذ
الحريص على علومه ، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به في المجتمع ،
والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته ، بل قصر
النفع على لذة عاجلة مُضحياً بخير أجل .

(١) المطية : الدابة ، وهى الناقة التى يُركب مطاها أى : ظهرها . وجمعها : مطايا . [لسان العرب : مادة
(م ط ي)] .

(٢) يفترون الكذب : يكذبون ، أو يقولون بغير علم . لا يفلحون : لا يفوزون ولا يتصرفون . قال تعالى :
﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افترى ﴾^(٦١) [طه] .

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه .

والمثل الذى ضربته من قبل بحلّاق الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تخرّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالاثم ، فهو يعاند ويكابّر ، ولكنه لن يقدر على دفع علم الطبيب .

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجأون بمقدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة^(١) لنفسه ، رغم أن أى رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مقدّمُ النبي ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبى ليكون ملكاً^(٢) ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أوأهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) .

(٢) أورده ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوجه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصرّاً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يسوي بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افتراءهم الكذب :

﴿ مَتَّعْنَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا رَغَبُوا وَرَبَّاهُمْ ثُمَّ نَدَيْتَهُمْ

عَذَابَ الشَّدِيدِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داع جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعي الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعي إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذات أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذي يدافعون عنه أنه :

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوي عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد في الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» .

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبي نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته» .

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا .. (٧٠) ﴾ ؛ لأن كُلاًّ منهم يحب أن يقنع نفسه ، بِحُمُقِ تقدير المنفعة ، وكلمة «الدنيا» لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه .

والأسماء - كما نعلم - هي سمات مسميات ، فحين تقول : إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول .

وحين تقول : «دنيا» فهي من «الدنو» أو «الدناءة» .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى في الوصول إلى الأعلى هي الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد علوآ وارتفاعاً إلى الآخرة .

إذن : فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له : لا ، بل هي دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هي الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذي أفلح باتباع منهج الله تعالى .

إذن : فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» في الدنيا ، والآخرة هي دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إن جعلتها مزرعة للآخرة .

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا^(١) عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعينك كعائش في الدنيا إن طال عمرها أم قصراً ، بل يعينك في الدنيا مقدار مكثك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى .. (٧٧) ﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلُّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى . وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خلقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا . ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالمآب والمآل^(١) إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذب ، فإن كان المعذب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإن كان المعذب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنى الذي له ما في السموات والأرض ، وبين لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضحّم مسألة من

(١) المآب والمآل : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أى : شديد الألم .

المسائل في داء اجتماعي ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أي : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيّن الأمر النظري في واقع متخيل .
ويقص علينا الحق سبحانه في القرآن قصصاً من الموكب الرسالي ؛ ليبيّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أهمهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق في أن يكون لهم أمل في الانتصار على رسول الله ﷺ^(١) .
ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالي . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِثَابِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ^(٢) ﴾

(١) وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث الكافرين وغيرهم على النظر في عاقبة المكذبين والجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [الأنعام] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل] .

(٢) كبر : عظم وشق عليكم . مقامي : إقامتي بينكم . تذكيري بآيات الله : دعوتي إياكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمت على قتالي وطردى ، فبالله أمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم . غمة : ملتبساً مبهماً ، أي : كونوا جميعاً بدأ واحدة ضدى ، واقضوا إلي : أي : امضوا إلي ما في أنفسكم وافرغوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته في نصرته إياه هي التي دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدي ؛ فكان نصر الله له ، والغرق والهلاك لأعدائه بالطوفان . [مختصر تفسير الطبري - بتصرف] .

ولقائل أن يقول: ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم - عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهما من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولاً ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفتن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يرسل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مرسل لنفسه ، ثم يبلغ من سوف يأتي بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - في الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ... ﴾ (٣٥)

[البقرة]

وحذرّه من الشيطان^(١) ، ثم وقع آدم عليه السلام في إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباؤه^(٢) ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

(١) الشيطان : كل عاد متمرّد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ (١٧) [الحجر] أى : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... ﴾ (٦) [فاطر] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ... ﴾ (١١٢) [الأنعام] [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباؤه : اصطفاه واختاره ، ومصادقه قوله تعالى عن آدم : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١٢٢) [طه] .

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته في الأرض ؛ في نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده .

وكما علّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا: وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلّمه المنهج ؛ ليحسن العمل في الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة .

واقراً قول الحق سبحانه وتعالى :

[طه]

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ﴾

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى :

[طه]

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ .. (١٢٢) ﴾

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

[البقرة]

﴿ فِيمَا يَأْتِيكُمْ مِّنِّي هُدًى .. (٣٨) ﴾

والهدى: هو المنهج المنزل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

[الإسراء]

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابني آدم في قول الحق سبحانه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ^(٢٧)﴾ [المائدة]

وهما قد قدما قربان إلى الله تعالى .

إذن : فخير الألوهية موجود عند ابني آدم بدليل قول الحق سبحانه :

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقِيلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ^(٢٧)﴾ [المائدة]

إذن : فهم قد أقرؤا بوجود الله تعالى ، وأيضا عرفوا النهي ؛ لأنه في

إحدى الآيتين قال :

﴿لَنْ يَسْطِيَ ^(٢٨) إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ^(٢٨)﴾ [المائدة]

إذن : فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد ،

وعلموا المنهج .

إذن : فالذين يقولون : إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولا ، نقول

لهم : افهموا عن الله جيدا ، كان يجب أن تقولوا : هذه مسألة لا نفهم

فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْرِ ليفهموا عنهم أن آدم - عليه

السلام - رسول ، وأن من أولاده قاييل وهابيل ، وقد تكلموا في التقوى .

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح ، عليه السلام ، فلنا أن

نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول ، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

(١) القربان : هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الآلهة المزعومة ، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم ،

فقرب أكرم غنمه وأسمها وأحسنها طيبة بها نفسه ، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشد حرثه غير

طيبة بها نفسه ، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذي قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه . انظر تفسير ابن

كثير (٢/٤٢) .

(٢) بسطت : مدت .

المُبَلَّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن ونشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام .

وهنا يأتي لنا الحق سبحانه بخبر نوح - عليه السلام - في قوله :

﴿ وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧١) ﴾ [يونس]

والنبا: هو الخبر الهام الذى يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح .

والحق سبحانه يقول :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾

[النبا]

إذن : فالنبا هو الخبر الهام المُلْفِت ، وقد جاء هنا خبر نوح - عليه السلام - الذى يُبَلِّغ قومه أى : يخاطبهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً .

وكلمة ﴿ قَوْمٌ ﴾ لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال ^(١) ، يوضح القرآن ذلك

فى قول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ

[الحجرات]

عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ .. (١١) ﴾

إذن : فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على السر ، والحركة فى الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك فى حديث الحق سبحانه لآدم - عليه

السلام - عن إبليس ، فقال تعالى :

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمَل الأمة كلها رجالاً ونساءً ، مثل

قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛

لأن قوم كل نبي رجال ونساء» .

﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (١١٧)

[طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿ فَتَشْقَى ﴾ (١١٧)

[طه]

ولم يقل: فتشقى؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التي خارج البيت والتي تتطلب مشقة، فالمرأة تقر^(١) في البيت؛ لتحتضن الأبناء، وتُهيئ السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار.

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (١١٧)

[طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام:

﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .. ﴾ (٧١)

[يونس]

وهنا يُحنن نوح قومه بإضافات التحنن، أي: جاء بالإضافة التي تُشعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله، مثل قول النائب الذي يخطب في أهل دائرته الانتخابية: «أهلي وعشيرتي وناحبي» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣)

[لقمان]

(١) القر في البيت: الاستقرار فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (٣٣) [الأحزاب].

وقوله :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ^(١) فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان]

وقوله :

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للمحق .

﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .. ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

و«الكاف والياء والراء» تأتي لمعنيين :

الأول : كبر السن ، وهى : كبر يكبر .

والثانى : العظمة والتعظيم ، إلا أن التعظيم يأتى ليبين أنه أمر صعب

على النفس ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. كَبُرَتْ ^(٢) كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥٠﴾ ﴾

[الكهف]

أى : أن هذه الكلمة التى خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق ، وهى

قولهم :

(١) مثقال حبة من خردل : زنة حبة من خردل . والخردل : نبات عشبي ينبت فى الحقول وعلى حواشى

الطرق ، تستعمل بزوره فى الطب ، ومنه يزور يتبل بها الطعام . الواحدة خردلة . ويضرب به المثل فى

الصغر ، فيقال : ما عندى خردلة من كذا . [المعجم الوسيط : مادة (خ ر د ل)] .

(٢) ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى

عما يقولون - ولداً ، قول فيه خطأ كبير ؛ لأن الله سبحانه منزه عن الصاحبة والأولاد ، وعن الشركاء

والأنداد . قال تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] . وقال

سبحانه : ﴿ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس] من إثبات الولد له ، والولد يقتضى المجانسة

والمشابهة ، والله تعالى لا يجانس شيئاً ، ولا يشابه شيئاً .

﴿.. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤)

[الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهى مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..﴾ (١٣)

[الشورى]

أى : عَظُمَ على المشركين ، وصَعُبَ على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهى تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهى تشق عليهم .

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ^(١) ..﴾ (٧١)

[يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(١) المقام : مصدر ميمي بمعنى القيام واسم مكان القيام الحسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ، وقوله : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..﴾ (١٢٥) [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله : ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٥٨) [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿ وَمَا مِنْآ إِلَآهَ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٦٤) [الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِى بِآيَاتِ اللَّهِ ..﴾ (٧١) [يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمي .

والمقام (بالضم) مصدر ميمي من أقام الرباعى المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٤) [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين فارجعوا إلى بيوتكم .. [القاموس القويم - بتصرف] .

أى: أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تفريره للكافرين جعله ثقيلاً عليهم .

أو أن : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .. (٧١) ﴾ [يونس]

تعنى: أنه حملهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك .
إذن: فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم .

أو أن الأصل فى الواعظ أو المبلِّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة .

إذن: فقول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه .

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى: أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً .

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمّى من يخلُقه من بعده ، قال له بعض الناس: لماذا لا تولى علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب: بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُمْ حُكْمِي ؛ لأنى شديد^(١) عليكم .

إذن: فقد أحس نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين: هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾

[يونس]

أى: أننى لن أتنازل عن دعوتى ، ولنلحظ أنك إن قلت: «توَكَّلْتُ على الله» فقد يعنى هذا أنك قد تقول: وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكنك إن قلت: ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾

[يونس]

فأنت قد قصرت توَكَّلْت على الله فقط .

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه ، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]

ومعنى جمع الأمر: (أى: جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ، أى: اتفقوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لن تضرونى . وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجليل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة .

(١) فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يردّها مُلْكاً وإنما أرادها للرأى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستقرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ .. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريد ، وما يراد منه .

وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ،
 أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟
 إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين^(١)
 بحمل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج -
 أيضاً - مع القوم الكافرين ، وناداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن
 يؤمن ، فرفض ، وأثر أن يظل في جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم
 الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ،
 ولم ينظر ابن نوح إلى جندي آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة في سبيل
 الوصول إلى الجبل ، وهو الموج .

إذن : فقول نوح عليه السلام :

[يونس]

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾

له رصيد إيماني ضمنى ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن
 الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما ينصاع لأمر الله تعالى في نصرة
 نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شىء .

هكذا كان توكل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما فى هذا التوكل
 من الرصيد الإيماني المتمثل فى :

[المائدة]

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٢٠) ﴾

[البقرة]

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾

(١) ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ قَلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود] فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل غير ذلك . وأياً كان عددهم فهو قليل جداً بالنسبة لمدة مكث نوح فيهم .

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه .

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في «كن» إلا الإنسان المختار ،
لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون
مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ،
ولكان كل البشر من جنود الحق .

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ۖ ﴾ (٧١) [يونس]

والإنسان حين يهيمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ،
ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان
خواطره كلها في خاطر واحد ، فهذا يعنى استقراره على رأي واحد ،
وجمع أمره عليه .

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأى ، فإن اجتمعوا
وقرروا الاتفاق على رأى واحد ، فهذا جمعٌ للأمر .

والاتفاق على رأى واحد إنما يختلف باختلاف هوية المجتمعين ، فإن
كانوا أهل خير فهم يتزلون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر .

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين
أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا :

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها :

١- مفعول به لفعل مضمّر تقديره : وادعوا شركاءكم .

٢- مفعول معه ، أى : أجمعوا أمركم مع شركائكم .

٣- معطوف على أمركم ، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشيء وكذلك جمع الشركاء .

وفى ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره فى تفسير القرطبي (٤/٣٢٩٠) .

﴿ اَقْتُلُوا يُوسُفَ اَوْ اَطْرَحُوهُ اَرْضًا يَخْلُ^(١) لَكُمْ وَجَهٌ اَبْيَكُمْ .. ﴾ (٩) ﴿ [يوسف]

أى: أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض:

﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ^(٢) ﴾ (٩) ﴿ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفذوا القتل ستصبح مقبولة.

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر ؛ لأنهم أبناء نبوة ، وما يزالون هم الأسباب^(٣) ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحد منهم: لا تقتلوه بل ﴿ اَطْرَحُوهُ اَرْضًا .. ﴾ (٩) ﴿ [يوسف]

أى: أنه خفف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة فى نزول الأخيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح : ﴿ وَالْقُوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ^(٤) إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (١٠) ﴿ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة .

(١) يخل: فعل مجزوم لأنه جواب الأمر، معناه: يخلص ويصفر. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٢)].
 (٢) قوماً صالحين: أى: تائبين. وقيل: ﴿ صالحين ﴾ أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبي (٤/٣٤٥٢)].
 (٣) الأسباب فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل ، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. انظر تفسير ابن كثير (١/١٨٧).
 (٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً. والسيارة: الجمع الذين يسبرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٣، ٣٤٥٤)].

إذن: فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل.

ومثال ذلك: رجل طيب رأى ابنه وهو يُضْرَبُ من آخر ، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده ، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير.

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه ، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترضيه فكرة الصفع ، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترضيه هذه الفكرة ، فيقول لنفسه: «سأطلق عليه الرصاص» . وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم ، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم ، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه ؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه ، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم.

أو أنه مثلما يقول العامة: «أعلى ما في خيولكم اركبوه» أى: أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى.

ولا يكتفى بذلك بل يضيف:

[يونس]

﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾^(١) .. (٧١) ﴿

والغمة: منها الغمام ، ومنها الإغماء ، أى: فقد الوعى وسُتِرَ العقل ،
أى: أنه قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم ، بل
افعلوا ما يحلو لكم ، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون .

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون
عليهم ، وتعبدونهم ، أو شركاؤكم فى الكفر ، ولم يَأْبَهُ نوح - عليه
السلام - بتقوية العصبية المضادة له ؛ لأنه متوكل على الله فقط .

[يونس]

لذلك يقول: ﴿ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (٧١) ﴿

أى: أنه يُحَفِّزُهُم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم -
سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا
على المضىّ فى تنفيذ ما اتفقوا عليه .

و«قضى» أى: حكم حكماً ، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار
بحيث ينفذ ، فقد يُقضى على إنسان بحكم ؛ ويوقف التنفيذ .

لكن قوله: ﴿ أَقْضُوا إِلَيَّ ﴾ يعنى: أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ
ما قضيتم به .

ثم يقول: ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به علىّ .

والتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً ، فهو أولاً يطلب أن
يجتمعوا على أمر واحد ، هم وشركاؤهم ، ثم لا يكون على هذا الأمر

(١) غُمَّةٌ وَعَمٌّ سِوَاءٌ ، وَمَعْنَاهُ: التَّغْطِيَةُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ: غَمَّ الْهَلَالُ إِذَا اسْتَرَّ ، أَيْ: لَيْكُنْ أَمْرُكُمْ ظَاهِراً مَنْكُشِفاً
تَمَكِّنُونَ فِيهِ مِمَّا شِئْتُمْ ، لَيْسَ كَمَنْ يَخْفَى أَمْرُهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى مَا يَرِيدُ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ثِقَةِ نُوْحٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ مِنْ رَبِّهِ سَبْحَانَهُ ، وَنَصْرِهِ إِيَّاهُ عَلَى قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ . [تفسير القرطبي: ٤ / ٣٢٩٠] .

عُمَّةٌ^(١) ، ثم اقصوا إلى ما انفقتم عليه من حكم ونفدوه ولا تؤجلوه ،
فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم
ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ،
ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقى في التحدى ،
فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم
الإبطاء في تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى
قبول تنفيذ الحكم .

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ،
وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على
الأرض ، تجد الشاعر العربى يقول عن «بنى ذهل» الذين أتعبوا قوم الشاعر
كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر^(٢) :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ	وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ	مَنْ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعَدَا	نَ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشِينَا مَشِيَةَ اللَّيْثِ	عَدَاً وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ

(١) غم الشيء يغمه - كنصر - غمًا : أخفاه وغطاه وستره وغمه الأمر : كربه وأجزته ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٨٨] ﴿ [الأنبياء] والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [٧١] ﴿ [يونس] وقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴾ [١٦٧] ﴿ [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيان ويلقب بالفند الزماني ، توفى نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى
سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند . (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩) .

سُورَةُ يُوسُفَ



بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ وَتَخْضِيعٌ^(١) وَإِقْرَانٌ
 وَطَعْنٌ كَفَمِ الزَّقِّ^(٢) غَدَاً وَالزَّقُّ مَلَانٌ
 وَفِي الشَّرِّ نَجَاءٌ حَيْثُ مَنْ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانٌ
 وَبَعْضُ الْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ حِلٌّ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانٌ^(٣)

إذن: فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد ، لعل بشريتهم تلين ، ولعل جبروتهم يلين ، ولعلمهم يعلنون الإيمان بالله تعالى ، ولكنهم لم يرتدعوا .

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٤)

أى: إن توليتم عن دعوتى لعبادة الإله الحق ، فأنا لا أدعوكم إلى مثل لكم هو أنا ، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم ، فأنا لا أريد أن أستولى على السلطة الزمنية منكم ، ولا أبحث عن جاه ، فالجاه كله لله تعالى .

(١) التخضيع: تقطيع اللحم .

(٢) الزق: الإناء .

(٣) أورد هذه الأبيات أبو على القالى فى الأمالى (١/٣٠٩ ، ٣١٠) ، وهى من بحر الهزج .

(٤) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ : أعرضتم عما جتكم به ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى : فليس ذلك لانى سألتكم أجراً؛ فيثقل عليكم مكافأتى . [تفسير القرطبي (٤/٣٢٩١)] .

(٥) إن - هنا - نافية بمعنى (ما) أى : ما أجرى إلا على الله - سبحانه وتعالى .

(٦) ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ أى : الموحدين لله تعالى . [تفسير القرطبي (٤/٣٢٩١)] .

والله لا يحتاج إلى جاه منكم لأن جاهه سبحانه ذاتي فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبرُكم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ .. ﴾ (٧٦) ﴿ فهل يُمَالِيءٌ ^(١) نوح - عليه السلام - أعداءه .

إن الإنسان يُمَالِيءُ العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلُّهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفعٌ سيعود على نوح - عليه السلام - ويمنع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم - إذن - لا يقدرُونَ على ضُرِّه ، ولا يقدرُونَ على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذي أرسله مركزٌ قوياً .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر» ^(٢) تعني : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة في المعاضات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب في شراء «شقة» في بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

(١) يماليء : يعاون ويساعد . قال أبو عبيد : يقال للقوم إذا تابعوا برأيهم على أمر : قد تمالؤوا عليه . [لسان العرب : مادة (م ل أ)] .

(٢) الأجر : الجزاء على العمل ، والجمع : أجور . والأجر : الثواب ؛ وقد أجره الله بأجره وأجره أجرأ وأجره . أي : أعطاه الثواب . [لسان العرب : مادة (أ ج ر)] .

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة في البيت ، أى: يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلحّة .

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا فى أصول التقويم للأشياء ؛ لأنه يقدم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول: إن عملى كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه .

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (٧٢) ﴾ [يونس]

فهذا التولّى والإعراض لا يضرّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضرّاً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأنى لن آخذ منكم أجراً .

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (٨٦) ﴾ [ص]

إلا فى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتى قول الحق سبحانه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾
[الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضاً في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)﴾
[الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾
[يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام ، حيث يقول الحق سبحانه:

(١) العكوف على الشيء هو الإقامة والاستمرار عليه، أي: أنهم مقيمون مستمرين على عبادة الأضنام [تفسير ابن كثير (٣/٣٣٧)].

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً في قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٩) ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام في قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (١) الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ [الشعراء]

إذن: فغالبية الموكب الرسالي يأتي على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

(١) أصحاب الأيكة: هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبي الله شعيب، عليه السلام، من أنفسهم، وإنما لم يقل سبحانه هنا: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة كانوا يعبدونها. [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤٥)].

[الشعراء]

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٦٤) ﴾

فكان الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما تقدمه لكم من منفعة ، لكننا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما سنأخذ أجراً من رب العالمين ؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقومها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُنزله على رسله .
وها هو القرآن الكريم يأتي على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .. (٢٣) ﴾ [الشورى]

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة .

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذي قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكره بذلك ، وقال :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ^(١) فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

أما هنا في دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتي قول القرآن على لسان نوح بما يوضح الأمر لقوم نوح :

فإن توليتم فلا حزن لي ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تصيبوني بضرٍّ ، ولن تمنعوا عني منفعة ؛ لأنكم لم تسألوني أن آتي لكم بالهدى لأخذ أجرى منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذي بعثني ، وهو الذي سيعطيني أجرى ،

(١) لبثت : عشت ومكثت بيننا .

وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حقاً وصدقاً.

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي وطبيعي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١)
﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٧٣)

وكان الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله ؛ لأنه لا يقال : نجيتك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ^(٣) (١١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. (١٢٧) ﴾

[القمر]

(١) الفلك : السفينة .

(٢) خلفه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه - خَلَفًا وَخِلَافَةً وَخَلْفَهُ خَلْفًا : صار خَلْفَهُ قال تعالى : ﴿ قَالَ بِسْمَا خَلْفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي .. ﴾ (١٥٥) [الأعراف] والخلف : القرن من الناس بعد القرن ، أى الجيل بعد الجيل ، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح . قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. ﴾ (١٦٦) [الأعراف] والخلف بالفتح : البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح . والخليفة من يخلف غيره ، أو يتوب عنه ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ (٣٠) [البقرة] ، وخليفة جمعها خلفاء وخلائف يقول تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خَلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٦٩) [الأعراف] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ .. ﴾ (١٦٥) [الأنعام] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) ماء منهمر : مطر غزير .

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجرت بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (١٢) [القمر]

أى : أن ذلك الأمر كان مقدراً ؛ حتى لا يقولن أحد : إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية .

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود :

﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا .. ﴾ (٣٧) [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ^(١) مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨) [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كلِّ نوع اثنين ذكراً وأنثى .
وقول الحق سبحانه :

﴿ فَنجِينَاهُ وَمَنْ مَعَهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

نقول: إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسَخَّرَةٌ لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد في السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخَّرة تسبِّح الله ^(١) ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذي علَّم «قاييل» كيف يوارى سوءة أخيه ^(٢)؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدددها الآن :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ﴾ [يونس]

وكلمة «الْفُلْكِ» من الألفاظ التي تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعْنَاهُ ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتى مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ^(٣) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) يوارى سوءة أخيه : يخفى جسد أخيه «هايبيل» الذى قتله أخوه بغير حق . أى : يدفنه .

(٣) الذِّكْرُ : القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾

[النحل] .

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتي بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ﴾ (١٤) ﴿ [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجَجِّنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ .. ﴾ (٧٢) ﴿ [يونس]

كلمة «أنجى» للتعددية ، وكلمة «نجى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافًا .. ﴾ (٧٢) ﴿ [يونس]

تعنى : أن الخليفة هو من يجيء بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين .

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتي كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ

﴿ .. ﴾ (٥٩) ﴿ [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خُلَافًا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤) ﴿

[يونس]

(١) خلافت : جمع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه . وتجمع أيضاً على «خلفاء» . قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٦٦) ﴿ [الأعراف]



ولأن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فسوف يلقى مكانته على ضوء ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُدْخِلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. (٥٥) ﴾ [النور]

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالح ، وإما أن يكون صالحاً يخلفُ فاسداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّك على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء في هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً .

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما لديك فيه دخلاً ، وما ليس لديك فيه دخل ؛ ستجد كل ما ليس لديك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ ^(١) يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

(١) الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوي . والجمع : أفلاك . [المعجم الرسيط : مادة (ف ل ك)] .

أما ما لديك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .
وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهي
مناط الاستدلال العقلي على وجود الإله ، أو أن الآيات هي الأمور
العجيبة التي جاءت على أيدي الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم
صادقون في البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التي يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

[آل عمران]

الْكِتَابِ .. (٧) ﴾

وهي الآيات التي تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

[يونس]

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾

فهو يعلمنا أنه أغرق من كذبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع
صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها^(١) ، وهم
أيضاً كذبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذبوا بآيات الأحكام التي جاءت
بها رسلهم .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

[يونس]

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ^(٢) (٧٣) ﴾

والخطاب هنا لكل من يتأتى منه النظر ، وأولهم سيدنا محمد ﷺ ،

(١) رتابتها : أى : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس] .

(٢) عاقبة : عقاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح الذين أنذرتهم نبيهم ، فلم يؤمنوا ؛ فاستحقوا العقاب والعذاب .

وهو أول مخاطب بالقرآن .

وأنت حين تقول : «انظر» ؛ فأنت تُلفت إلى أمر حسّي ، إن وجهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، كيرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه .

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهي أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه .

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهي تلقف الحبال التي ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفى الأكمه والأبرص^(١) ويُحيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفي القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمي ؛ لأننا آمنّا بصدق المبلّغ عن الله تعالى .

ونحن نفهم أن الرسائل السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسائل موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة .

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب في أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول : محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هي معجزته .

وساعة يقول الحق سبحانه : ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

(١) الكمه: العمى الذى يولد به الإنسان. أما البرص فهو: مرض جلدى عبارة عن بقع بيضاء تكون فى الجسد. انظر اللسان.

وتعالى لرسوله ﷺ :

[الفيل] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١)

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذة على أنه أقوى من رؤية العين .

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول:

[الفيل] ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ ؟

وأقول: ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبى عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين .

إذن: ﴿فَانظُرْ﴾ تعنى: اعلم الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومبْلَغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً .

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يقل الحق: «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه:

[يونس] ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾^(٧٣) ؟

(١) أصحاب الفيل ، هم جيش «أبرهة» الحبشى حين قدموا لهدم الكعبة ، فمزقهم الله شراً ممزقاً وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول . ووافق ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمس وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادث بعينه ، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق ، فكانه قد رآه بعينه فعلاً .

وهنا نقول :

إن الحق سبحانه وتعالى قد بين أنه لن يعذب قبل أن يُنذِر^(١) ، فهو قد أُنذِر أولاً ، ولم يأخذ القوم على جهلهم .

«فانظر» - كما نعلم - هي خطاب لرسول الله ﷺ ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً ، وجاء هذا الخبر تسلياً لرسول الله ﷺ ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلم أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح .

وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ (١) فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ (٢) (٣)﴾

الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (١٤) ﴾ [فاطر] ويقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعْتَدِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر ، قال تعالى : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ .. (١٥) ﴾ [المائدة] .

والنذير هنا : هو الرسول المنذر بالعذاب . والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى : ﴿ فَالْمَلَقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عَذْرًا أَوْ نَذْرًا (٦) ﴾ [المرسلات] وقوله : ﴿ .. وَمَا تَعْبَىٰ الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ [يونس] [يونس] [يونس] [يونس] . أو المنذرون من الرسل جمع نذير ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .. (١٦) ﴾ [الأحقاف] ، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون .

(٢) بالبينات : أي : بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به . [ذكره ابن كثير في تفسيره (٢) (٤٢٦/٢)] .

(٣) الطبع : هو الختم على القلب ، ولكنه لا يُمَحَى ولا يُفَك أبدًا . أما الختم فقد يفك ، وقد تكون له مدة معلومة ، وقد يقبل مع التوبة الخالصة . وبكلا الأمرين ورد القرآن : ﴿ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ (١٨) ﴾ [النحل] . وقال سبحانه : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً .. (٧) ﴾ [البقرة] .

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتتا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج^(١) هو إماتة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشئ منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليدكر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليعثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل^(٢) المبلغين عن الله تعالى .

(١) نَهَجَ الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهَجَ الطريق له : أوضحه ، والنهَجُ والمنهَجُ والمنهاجُ : الطريق الواضح والمذهب حسيباً ومعنوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ (٤٨) [المائدة] أي : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوي .

(٢) الرسالة : اسم لما يُرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يشي ولا يجمع . قال الزمخشري : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن بُدُّ من تشيته . يقول الحق : ﴿إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ...﴾ (٤٧) [طه] أما في آية الشعراء فيمعنى الرسالة ، فجازت النسوية فيه إذا وصف به بين المفرد والمثنى ، فلهذا قال : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] وأرسل تأتي لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ [الأعراف] (الزمخشري - بتصرف) .

سُورَةُ يُوسُفَ



وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

[يونس] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ .. (٧٤) ﴾

أى : من بعد نوح ، فمساءلة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الركب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عام للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاَ عاماً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاَ لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبيهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاَ عاماً بخصوصية من بقوا وهم المرسل إليهم بخصوصية الزمان والمكان ^(١) .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[يونس] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ .. (٧٤) ﴾

فهل قصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام ؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل :

[غافر] ﴿ مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهي لعامة الزمان والمكان ، وهذا مما خصَّ به الله رسوله ﷺ وأمه ، وبدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساَ لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليُصل ، وأحلت لى المغنم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

وجاء الحق عز وجل بقرصص أولى العزم منهم^(١) ، مثلما قال سبحانه :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ^(٢)﴾ (١٤٧)

[الصفات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتي ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتي للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فتحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوى في العصر الحديث ، وقد توجد مناطق في العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت^(٣) في الأرض ؛ لأن الأقوات التي كانت تكفي ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفي بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق في رقعة الأرض التي كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القاتل :

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً^(٤)﴾

[النساء]

.. (١٠٠) ﴿

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . .﴾ (٣٥) ﴿ [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أجنأه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل «نينوى» بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين . [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٢٢/٤)] ، و[صفوة التفاسير للصابوني (٢٤/٣)] . يتصرف .

(٣) انساح : من السياحة وهي الذهاب في الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . [لسان العرب : مادة (س ي ح)] .

(٤) مراغماً كثيراً : المراغمة الهجران والتباعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها . [اللسان - يتصرف] .

وسعة : أى : بعيداً عن تضييق المشركين ، وقيل : سعة ، أى : كثرة في الرزق . [مختصر تفسير الطبري] يتصرف .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث^(١) ،
فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة .

ويلاحظ مؤرّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب
الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق في الصحارى ، مثلهم مثل
العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد
وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العَدُوِّين اللذين لم يقدر
عليهما البشر هما النار والماء .

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التي
أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا في قوة
المواجهة مع الماء .

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت في بقية
الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق
سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ^(٢) . . ﴾ [فاطر]

وقصّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض
الآخر .

يقول الحق سبحانه :

(١) الغيث : المطر .

(٢) إن : نافية بمعنى (ما) . أى : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذرهم . خلا : مضى وسبق . قال
تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ .. ﴾ [الرعد] .

نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أى : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به . قال تعالى : ﴿ قَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ .. ﴾ [المائدة] .

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ

[غافر]

بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٧٨) ﴿

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٧٤) ﴿ [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح - عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا بخبر عيون الرسالات ^(١) .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة «قوم» ^(٢) في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة أحاداً ، مثلما نقول : هياً اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعنى : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أى : بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

(١) عيون الرسالات : أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .
(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ .. ﴾ [الحجرات] ، ثم قال : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ .. ﴾ [الحجرات] فدل على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [القاموس القويم] وانظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ

[يونس]

المُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالى ، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة^(١) ، وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين . والطبع - كما نعلم - هو الختم .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا منسوب لله تعالى .

وبعض الذين يتلمسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم .

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه يبين أنه قد طبع على قلوب المعتدين ، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب فى الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى هو القائل فى الحديث القدسى :

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»^(٢) .

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يسدر^(٣) فى غيئه : ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به .

(١) الغفلة : سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ..

﴿٧٤﴾ [ق] ، أى : غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت . [القاموس القويم]

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) السادر فى غيه : المعنى فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم لشيء ولا يبالي ما صنع . [اللسان مادة : سدر] .

ومثل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَهُ بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيَٰ سُؤْلُكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجا موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْتَلِلْ عُقْدَةً ^(٢) مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه]

(١) ملته : قومه . وقيل : هم أشرف القوم ووجوههم ورؤسائهم الذين يرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملا] .

(٢) العقدة : تطلق على رثة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْتَلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام .

وقال الحق سبحانه : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ﴾ (٢٤) [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة في تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينضم إليه هارون ، لا بد - إذن- أن يصبح هارون رسولاً .

ولذلك نجد القرآن معبراً عن هذا : ﴿ إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ .. ﴾ (٤٧) [طه]

أى : أنهما رسولان من الله .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَآتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان في مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر ، فيقولون : نحن رسل الملك فلان .

وفى رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى . ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا رَسُولًا .. ﴾ (٤٧) [طه]

(١) طغى : تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر] أى : ظلموا وتجاوزوا الحد في العصيان . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة] .

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمَجاً^(١) رَذَل^(٢) الخَلْقَ^(٣) ، فإن تكلم هارون ليشد أزر^(٤) أخيه ، فقد يقول الفرعون: وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى تغلق الباب على من يريد أن يتورك^(٥) القرآن متسائلاً: ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا»؟ وفي هذا ردٌ كافٍ على هؤلاء المتوركين .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ بآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا .. (٧٥) ﴾ [يونس]

والملا: هم أشرف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقربون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملا» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أى : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملا ؛ لأنهم هم الذين نصبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله .

(١) سَمَجُ الشَّيْءِ : قَبِيحٌ . وَالسَّمَجُ وَالسَّمِيحُ : الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ [لسان العرب : مادة (س م ج) - بتصرف] .
(٢) الرَّذَلُ وَالرَّذِيلُ : الدُّونُ مِنَ النَّاسِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْخَسِيسُ . وَقِيلَ : هُوَ الرَّدِيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : [لسان العرب : مادة (ر ذ ل)] .

(٣) الْأَزْرُ : القُوَّةُ وَالشَّدَّةُ ، وَأَزْرَهُ وَأَزَرَهُ : أَعَانَهُ وَسَاعَدَهُ . [لسان العرب : مادة (أ ز ر)] .

(٤) التَّوْرِيكُ : إِضَافَةُ الذَّنْبِ أَوْ النِّقْصِ إِلَى الشَّيْءِ ، وَحَمَلُهُ عَلَيْهِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ ، وَتَحْمَلُ مَعْنَى إِسْقَاطِ عَيْبِهِ عَلَى غَيْرِهِ [انظر : لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يُحْمَلُونَ الْقُرْآنَ تَنَاقُضَاتِهِمْ .

ولكل فرعون ملاً يصنعونه ، والمثل الشعبي في مصر يقول : «قالوا لفرعون من فرعونك ، قال : لم أجد أحداً يردني» .

أى : أنه لم يجد أحداً يقول له : تَعَقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن .

والآيات ^(١) التي بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملائه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هي المنهج الذي يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملائه استكبروا . والاستكبار : هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى : طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى : طلب الفهم . ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) ﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة ^(٢) له ، وإجرام فرعون وملائه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفي عذاب عظيم ومهين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَا قَالَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠٦) ﴾ [الإسراء] والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنى الجذب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .
(٢) المندوحة : اتساع الأمر . والمراد : أن فعلهم هذا لا سبب معقول له ، ولا مبرر . [لسان العرب : مادة (ن دح) بتصرف] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا
لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٦)

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبى^(١) على الرسول ، لا يتأبى على مساو له ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجيء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

(١) اللام فى كلمة «لِسِحْرٍ» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته بالتصويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا بَلْ أَقْتُوا إِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يَخِيلُ إِلَيْهِمْ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [طه] .

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ي)] .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾

[الرحمن]

أى : إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير في إطار هذا المنهج الربانى .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا .. (٧٦) ﴾

[يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا دخل لها فى الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق فى ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ ، فهُمْ من قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ (٢) .. (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن^(٣) فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخذ الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن اعتدال الموازين ثبات للحق ، وإذا ثبت الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القرىتان هما : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة ، وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/١٢٧) .

(٣) وقد نقلت لنا السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته « سيرة ابن هشام (١/٢٦٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسأيرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جحد القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أخذتها. لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك^(١).

والحق هو الشيء الثابت، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق، وأن الباطل تغلب عليه، فهذا يعنى ظهور المفسد؛ فيصرخ الناس طالبين الحق.

.انتشار المفسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحق، وتتحمس له؛ لأن الباطل حين يعرض الناس، تجدهم يتجهون إلى الحق ليمسكوا به. والحق سبحانه هو القائل:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ^(٢) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعِ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^(٤) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ^(٥) ﴾ [الرعد]

- (١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها» أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه فى سننه (٤١٦٩). قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل، يضعف فى الحديث من قبل حفظه.
- (٢) الزبد: هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه. وبحر مزيد، أى: مانع يقذف بالزبد. وزيد الماء: طفاوته وقذاه. وجمع: أزيد. [لسان العرب: مادة (زب د)].
- (٣) رابياً: مرتفأ؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء. [اللسان: مادة (رب ي)].
- (٤) جفأ السيل: هو ما يقذفه من الزبد والوسخ ونحوهما. [اللسان: مادة (ج ف ي)].
- (د) المثل: الصفة العجيبة يشبه بها غيرها. فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص، لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالجواس. وأمثلة القرآن قسمان:
- قسم ظاهر مصرح به، مثل قوله تعالى: ﴿ مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدْنَا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة]
- قسم كامن، مثل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل «خير الأمور أوساطها». [انظر: الإتقان فى علوم القرآن ٤/٤١].

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ،
 فيأخذ كل واد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى
 الأرض ، لكن السيل في أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من
 الطمي ، والقش ، ويستقر الطمي في أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ،
 أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية
 زَبَدًا ، وساعة تضعها في النار ، فهي تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة) .

ومثال ذلك: حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذي
 يطفو ، ويبقى الحديد النقي في القاع .

هذا الزبد الذي يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك: ما
 نراه على شواطئ البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطئ ، هذه
 القاذورات التي ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب
 جُفَاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل
 يترك الباطل ؛ ليحفز غيره الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار
 هو عليه ^(١) .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التي جاءت مع
 موسى - عليه السلام - هي السحر المبين ، أي : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك
 مدح نفسه ، وليس أحد أغبر من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم في صحيحه
 (٢٧٦٠) ، والبخاري في صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا
وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا .. ﴾ (٧٧) [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتى القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبین ، ثم يأتى فى الآية التى بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا ؟

وفهم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر فى حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا استفهام استنكارى ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خبر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذب له سيجيب بلجلجة^(١) .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ، والباطل لجلج » . أى : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات له . [لسان العرب : مادة (ل ج ح) - بتصرف] .

النار في خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعي ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقي يا رجل ؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. ﴾ (٧٧)

[يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر ميين ؟

إن القول الحكيم الوارد في الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ ..أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التي جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه - التي صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل ما صنعوه من سحر ^(١) .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (١٧٧) فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿ (١٧٨) ﴾ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة^(١) من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً في المجال الذي لهم به خبرة ودرية^(٢) ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبنى لك هرمأ ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه في أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التي يقوم بها الفلاح من جهد في حرث الأرض ووضع البذور ، ورى الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أى : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ .. ﴾ (٧٧)

[يونس]

هو لفتُّنا أن السحر نوع من التخيل ، وليس حقيقة واقعة .

ولذلك قال الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

(١) المعجزة هي : الأمر الخارق للعادة يُجرىها الله على يد النبي أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص .
وخصَّ ﷺ بمعجزة القرآن الخالدة ، وله ﷺ معجزات حسية كنبوع الماء من بين يديه ﷺ .

(٢) درية : عادة وخبرة أو تدريب .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ .. فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (١١٦) ﴾ [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط ^(١) وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدت كل القدرات ^(٢) ؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذي هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر ^(٣) .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا جبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف ^(٤) ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة طه :

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) ﴾ [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون جبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطيء ويشغل بالشئ المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (١١٦) ﴾ [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشئ بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعانه عليهم بقدرته التي لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكروه جعل الملا من حوله هم الذين يصعدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٦٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٦٥) ﴾ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٦٦) يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٦٧) ﴾ [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول . [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخيلاً ، بل وجدها
السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خروا^(١)
ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

[طه]

﴿ بَرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى .. ﴾ (٧٠)

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو من فعل خالق
أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - في تلك اللحظة نابعاً من التدريب
الذي تلقاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (٧١) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ^(٢) عَلَيْهَا وَأَهْسُ^(٣)

[طه]

بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي .. ﴾ (٧٨)

وقد أجمل موسى وفصّل في الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة
للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

[طه]

﴿ .. وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ^(٤) أُخْرَى (٧٨) ﴾

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب
التخاطب مع الله تعالى ، ودرّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أسرعوا بالسجود لله رب العالمين .

(٢) أتوكأ عليها : أتحمّل وأعتد وأستند عليها . [اللسان : مادة (وك أ) - بتصرف] .

(٣) ﴿ وَأَهْسُ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي .. ﴾ [طه] أي : أهرز بها الشجر لتساقط أوراقه لترعاه غنمي . نقله ابن كثير

في تفسيره (١٤٥/٣) .

(٤) مآرب أخرى : أي : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

أولاً أن يلقبها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس^(١) منها خيفة ولرأها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخيّل إلى الناس من سحرهم أن عصيهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - في إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا - كما نعلم - أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً .

و شاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهي المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا أَاجْتَنَّا لَتَأْفِنَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ

لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨)

(١) أوجس : أوى : وقع في نفسه وقلبه الخوف والفرع . [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لاثنتين من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة في صورة بشر ليشروه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا في القرآن مرتين : الأولى في سورة هود : ﴿ وَقَدْ جَاءَتْ رَسُولًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالُوا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيثٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود] . أما الثانية ففي سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما النبي الثاني فهو موسى عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى بِإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه] .

(٢) لتفتنا : لتثينا وتبعدنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٤٢٦/٢] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول ^(١) .

ولو قال فرعون لموسى : « جيء بك » لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

(١) فيما قاله فرعون عن موسى يطعن في شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَتَادِي فرعون فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) ﴾ [الزحرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا ينطلق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحِلِّ عِقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾ [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلد ، فلا يُعْمَلُ عقله أو فكره في شيء ليقنع به ، ويبنى عليه سلوكه^(١) .

والمثل العامي يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش في الزفة » أى : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أى جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له اتجاهًا .
والمقلد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذى يطيل أمد^(٢) الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمَلُ عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من

يحيا بينهم .

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ فى حديثه ، فمن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسناً ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٠٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايتها . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ [الجن] أى : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ . [آل عمران] أى : فى غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف] أى : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذي يأتي إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته . لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلتفت إلى قانون التربية ، فالنشر ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ في التمرد ، وقد يقول للآباء: أتمم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشربَّ النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نجد أبناء الأسر التي لا تتبع منهج الله في تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران^(١) السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آباءهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل في كل الأمور ، فهذه هي التنشئة التي تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذي سوف تقلده ، لن يكون مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو النظير والمثل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرذائل . [لسان العرب : مادة (قرن) - بتصرف] .

﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا.. (٣٢)﴾ [لقمان]

إذن: فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعمل عقله بين البدائل^(١) .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قَلَّدُوا الْآبَاءَ :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا^(٢) عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠)﴾ [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه :

﴿..أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشتركون أسرة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور في الأشياء والأدوات التي تسهل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفي إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فَلتَهْتَدِ بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السمو نحو الحياة الفاضلة .

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهي مواضع الاختيار في التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس] .

(٢) أَلْفَيْنَا : وجدنا . أَلْفَى الشيء وجدته . قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٣)﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿وَأَلْفَيْاً سَيْدَهَا لِدَا الْبَابِ .. (٤٥)﴾ [يوسف] أى : وجدناه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا ۚ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (١٠٤)

[المائدة]

أى : أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فردّ عليهم القرآن :

﴿ .. أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤)

[المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلّدين :

الآية الأولى : هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧٠)

[البقرة]

والآية الثانية : هى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤)

[المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آبائهم .

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره .

(١) حسبنا : يكفيننا . وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلّدين لأبائهم هنا ، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة : ﴿ حَسْبُنَا ﴾ ، فالمؤمنون قالوا : ﴿ .. حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١٧٣) [آل عمران] ، وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولَهُ .. ﴾ (٥٥) [التوبة] ، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم عن الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم ، فهم قد نظروا إلى الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات .

إذن: فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا:

[المائدة]

﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤) ﴾

هؤلاء هم الذين غالوا في الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء في آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أى : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون في ظلمات من الجهل .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي

[يونس]

الْأَرْضِ .. (٧٨) ﴾

أى : هل جئت لتصرفنا ، وتحوّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم ؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء فى الأرض؟ وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذى لهم فى الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمر هنا يشمل نقطتين :

الأولى : هى تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء .

والثانية : هى الكبرياء ^(١) والعظمة فى الأرض .

ومثال ذلك : حين يقول مقاتل لآخر : « أرم سيفك » وهى تختلف عن قوله : « هات سيفك » ، فَرَمَ السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعنى إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذى أمر بذلك .

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم » : هى العظمة والتجبر والسلطان والسيطرة ، وهى فى حق الله سبحانه العظمة الحق ، والسلطان القوى ، والسيطرة الكاملة بتصرف .

وهم هنا وجدوا في دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هي ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هي سلب الكبرياء ، أي : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار ^(١) ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة ^(٢) الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهي به الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصدددها :

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨)

[يونس]

أي : أن قوم فرعون والملاأ أقرؤا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها ، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون - عليهما السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴾ (٧٦)

وكان فرعون يعلم تقدم السحرة في دولته ، ويكفي أنه شخصياً خيّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتي أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جيء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه في الآية التي بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠)

(١) الائتمار : التشاور في الأمر والتواصي به . ويسمى التشاور ائتماراً لأن التشاورين يقبل بعضهم أمر بعض . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ... ﴾ (٢٥) [القصص] . [القاموس القويم . وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٣] .

(٢) بطانة الرجل : خاصته . [لسان العرب : مادة (ب ط ن)] .

وكان المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هي أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ في التنفيذ .

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتي بأشياء تفسد الصورة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠) [يونس]

وفي هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم في ورطة ^(١) تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه .

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف ؛ لأن القصة تأتي بنقاطها المختلفة في مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التي تأتي بذكرها ^(٢) .

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا : إن أعوان فرعون نادوا في المدائن ^(٣) ليأتي السحرة ، مثلما جاء في مواضع أخرى من القرآن ^(٤) .

(١) الورطة : الرجل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت في ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان في الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك فيه ، فلم يسهل له المخرج منه . [لسان العرب : مادة (ورط)] .

(٢) وهذه ميزة القصص القرآني في الإشارة إلى قصصه عدا قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهي القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع في القرآن خاصاً بقصة موسى ثلاث مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠١ ، ١٢٠] [الأحزاب : ٦٠] [المنافقون : ٨] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (١١١) [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (٦٦) [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون ^(١) :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٢) [الأعراف]

ووضع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخيراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون فى أزمة ؛ طالبوا بالأجر . ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرّبين ^(٢) ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى ؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للملك ، ولا بد أن يضحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى ؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا فى هذه الآية - التى نحن بصددهم - خواطرنا عنها - وجاء ببقية اللقطات فى المواضع الأخرى من القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠) [يونس]

(١) فرعون : الفرعة الكبير والتجيز ، وفرعون الذى ذكر فى كتاب الله ترك صرفه فى قول بعضهم ؛ لأنه لا سمى له وكإبليس فىمن أخذه من أبلسه . وقال ابن سيده : إن فرعون علم أعجمى ، ولذلك لم يصرف . الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل عات فرعون ، والعناة الفراعة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعة أى دهاء وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة القبط : التمساح (لسان العرب) وقيل فى القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك فى مصر فى الزمن القديم ، وفرعون موسى هو مفتاح ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بذات فرعون ، قال تعالى : ﴿ أَهْبِ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (١٤) [طه] والله أعلم .

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر بقولهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٢) [الأعراف] قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ (١١٤) [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وَألقى السحرة عصيهم وحبالهم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ^ط

إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴿٨١﴾

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه يبين بالتفصيل ما

حدث ، فى آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضى من كل خصم أن يدخل بالرعب على

خصمه ؛ ليضعف معنوياته .

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد

تخييل .

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن عصاه ستصير

حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخييل ^(١) للعيون .

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى فى ذلك التخييل :

﴿ .. مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

[يونس]

﴿ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(١) والخيال ما تشبه لك فى اليقظة أو فى النوم من صورة . والظل : ما يتصوره ذهنك من شيء - والخيال

إحدى قوى العقل التى يتخيل بها الأشياء ، ويتصورها .

قال تعالى : ﴿ .. يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تُسَمَّىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] أى : تشبه له ، ويصور له بسبب

سحرم أنها تسمى كالحيات ، والحقيقة أنها ليست حيات ، ولكنه توهم وتخييل (القاموس القويم) .

وهكذا جاء القول الفصل الذي أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون وملأؤه^(١) والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد في الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولا مؤيِّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا في السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا في التخيل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كُنْ» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخيلات .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾^(٢) (٨٢)

فالمسألة التي يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشيء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٣) (٨٢) [يس]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشيء يوجد قبل كلمة «كن» ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز بإرادة الله تعالى .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبين لنا أن الحق إنما يأتي على السنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين في الرِّغَامِ^(٣) ،

(١) ملأؤه : آل فرعون ومن يرجع إليهم .

(٢) يحق : يثبت ويظهر . بكلماته : بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

(٣) الرِّغَامُ : التراب . والمراد : إذلالهم وعقابهم على عصيانهم وإجرامهم .

وليريح العالم من إضلالهم ومن مفسادهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١)
﴿فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَىٰ إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٢)

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا
الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

[طه] ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ..﴾ (٧١)

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛
ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

[يونس] ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِذْ ذُرِّيَّتُهُ ..﴾ (٨٢)

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذي كان
منتشراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون في خُلُوٍّ
من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحْرَصُ عليها ،
ومع ذلك فهم قد آمنوا :

(١) ذرية : طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦]. وقيل : من بنى إسرائيل
[مختصر تفسير الطبري : ص ٢٣٩].

(٢) ملتهم : آل فرعون والمقربون منه والموافقون له .

(٣) يفتنهم : يصرفهم عن دينهم بتعذيبه لهم .

(٤) عال في الأرض : جبار مستكبر . والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

(٥) المُسْرِفِينَ : المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].

[يونس]

﴿ عَلَى خَوْفٍ ^(١) مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٢) ﴾

وكلمة ﴿عَلَى خَوْفٍ﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : «على الفرس» أو «على الكرسي» ويكون المستعلى في هذه الحالة متمكناً من «المستعلى عليه» ؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء .

ولكن من استعملات «على» أنها تأتي بمعنى «مع» .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

[الإنسان]

﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حِبِّهِ .. (٨) ﴾

أى : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتي الحق سبحانه يحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ

[طه]

النَّخْلِ .. (٧١) ﴾

جاء الحق سبحانه بالحرف «في» بدلاً من «على» ؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) الخوف هو الفزع لتوقع حدوث مكروه ، أو فوت أمر محبوب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢) ﴾ [البقرة] أى : فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوفاً جعله يخاف . قال تعالى : ﴿ .. وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٦) ﴾ [الإسراء] وخوفه فلاناً أى : جعله يخافه يتعدى للمعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. (١٧٥) ﴾ [آل عمران] .

[الإنسان]

﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْبٍ .. (٨) ﴾

فكانهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .
وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

[يونس]

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ .. (٨٣) ﴾

أى: أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقع الآلام ^(١) .

وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زوّار الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه ، بل يقوم به زبانيته .

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم .

وقال الحق سبحانه هنا : ﴿ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل : «يفتنوهم»؛ ليدلنا على

ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون .

(١) من معانى الحرف (على): الاستعلاء؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً، نحو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] . والظرفية؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥) ﴾ [القصص] أى: فى حين غفلة . والمصاحبة؛ نحو قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] أى: مع ظلمهم؛ ونحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْبٍ مِّسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان] . أى: مع حبهم للمال . ومن معانيها أيضاً: أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى: ﴿ وَيَلِ لِلْمُطَفِّفِينَ (١٤) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (١٥) ﴾ [المطففين] أى: من الناس . ومن معانى (على) أيضاً: المجاوزة، والتعليل، والإضراب، وأن تكون بمعنى الباء . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى: (٥٠٩/٢ - ٥١٢)] .

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً ؛ ليكون كل لفظ في القرآن جاذباً لمعناه .

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا ^(١) : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومن آمن من قوم موسى - عليه السلام - وكنتم إيمانه .

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى ؛ لأن فرعون كان جبّاراً في الأرض ، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يחדش ادعائه للألوهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة .

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم ^(٢) ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفذوا ما أراه فرعون .

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَلَّتْهُمُ .. (٨٢) ﴾ [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الأمر في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَنْ يَفْتَنَهُمُ .. (٨٢) ﴾ [يونس]

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبي في تفسيره (٢٢٩٦/٤) وعلى هذا يكون الضمير في ﴿ قَوْمَهُ ﴾ عائداً على فرعون . وقد ذكر القرطبي قولاً آخر - ونسبه للقرءاء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون في نفس الوقت ، باعتبار أن الذرية أقوام أبائهم من القبط أى : آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل .

(٢) استحياء النساء : أى : تركهن أحياء . وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى ، فبطش فرعون بهم كان مستمراً ، ولذلك قالوا لموسى : ﴿ قَالُوا أَوْدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا .. (١٢٩) ﴾ [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبنى إسرائيل قبل مجيء موسى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُقْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص] .

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذي يقوم به أعوانه .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٣) [يونس]

والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود . وهو قد تجاوز في إسرافه وادعى الألوهية .

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون :

﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٢٤) [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ﴾ (٣٨) [القصص]

وعلا فرعون في الأرض علوً طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ^(١) وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي .. ﴾ (٥١) [الزخرف]

إذن : فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا

إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴾ (٨٤)

(١) المصّر : البلد العظيم ، قال تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا .. ﴾ (٦٦) [البقرة] أي : بلداً عظيماً كبيراً . ومصّر بغير تنوين هي بلادنا العزيزة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لَامْرَأَتِهِ .. ﴾ (٦٦) [يوسف] [القاموس القويم] .

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

[يونس] ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ .. (٨٤) ﴾

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

[يونس] ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطف بقوله : « إن جئت يوم السبت القادم قبلك فى المدرسة إن كان معك ولى أمرك ؛ ومجئ ولى الأمر هنا مرتبط بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلى ذلك فى قول الحق سبحانه :

[يونس] ﴿ .. إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ^(١) (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام ^(٢) ، وقد ينفك مرة أخرى من

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقى لبلوغ المراد .

(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفِكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١١٠) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

ونجده سبحانه يبيِّن هذا الأمر بتحديد قاطع في قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتي الأمر الإلهي :

﴿ قُلْ لَمْ تَزَلْ تَكْفُرُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

[الحجرات] .. (١٤) ﴾

أى : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه في كل أمر إلى مَنْ آمَنَ به ؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله في التكليف إلى الله في «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الأخير هو المقدم ؛ لأنه شرط في الشرط الأول ^(١) ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٢)

أى : أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْرٌ وَحَصْرُ الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه .

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥) [يونس]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة .

ويقال : فتنت الذهب ، أى : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب . أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها . أما باقى الأدوات التالية فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى : ٤ / ٤٨٩ ، ٤٩٠] .

(٢) فتنة : موضع عذاب . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيفتنونا بنا . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

الشوائب ، ونحن نعلم أن صنّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك .
والفتنة التي قالوا فيها :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس] هي فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذّبهم ، وكأنهم يقولون : يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد .

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين ؟

إنهم في هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقي لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقي .

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم في النبوة ، يقول :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا . . ﴾ (٥٠)

[المتحنة] ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه .

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدي الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ^(١) . . ﴾ (١٢٤)

[البقرة] أي : أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان ؛ لأنه أسوة ^(٢) ، فلم يقم بعمل

(١) ابتلى : اختبر . بكلمات : بأوامر ونواه كلفه الله بها .

(٢) أسوة : قدوة حسنة .

إيماني بظهر سطحى .

إذن: فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير فى أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضللاً .

وجاء قول الحق سبحانه :

﴿ .. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس]

ليدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا فى إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان .

ورسول الله ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١)

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم .

وهكذا يعلم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُقق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوّه بالشر؛ لأن الذى يتعبك من عدوك هو شره ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فسوف يتعدى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدى إلى الغير .

وهم حين دعوا ألا يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملاؤه كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ . . إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣)

[لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق . وفرعون وملؤه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدقته من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم فى الكبائر ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

[يونس]

أى : اجعلنا بنجوة^(١) من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفق ، ولا ينجو إلا من كان فى ربوة عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة " النجاة " .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

[يونس]

(١) النجوة: المرتفع من الأرض . ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه برىء سالم . [المعجم الرسيط : مادة (ن ج و)].

والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلَّهِ ۙ (٨٦) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجِدَ الدَّاءُ ، والرحمة هي ألاَّ يجيء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه

فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمَا مِمَّصْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَكُونُوا يَحْسَبِينَ ﴾ (٨٧)

الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة ، وأن الوحي قد جاء للثنتين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعة يختار نبياً رسولاً ، فإمّا يختاره بتكوين وفطرة تؤهله لحمل الرسالة والنطق بمراتات الله تعالى .

وإذا كان الخلق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

(١) تبوءاً: اتخذوا واجعلوا . قبلة: مصلى تصلون فيه لتأمنوا من الخوف . وكان فرعون قد منعهم من

الصلاة . أقيموا الصلاة: أمّوها . وبشر المؤمنين: بالنصر والجنة . [تفسير الجلالين: ص ١٨٦] .

وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٢٨ ، ٤٢٩) : أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن

يتبوءا أى: يتخذوا لقومهما بمصر بيوتاً ، واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَهُ ۙ ﴾

.. (٨٧) ﴿ فعن ابن عباس : قال : أمروا أن يتخذوها مساجد . وعن إبراهيم النخعي قال : كانوا اثنان

فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم ، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير ، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم

البلاء من قبل فرعون وقومه وضيّقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا مِنْ قِبَلِكُمْ ۗ ﴾ (البقرة) .

وقال سعيد بن جبیر فى تفسير هذه الآية : (قبلة) أى: يقابل بعضها بعضاً . [من تفسير ابن كثير . . . بتصرف] .

ولا رَوِيَّةٌ^(١) ، مثل الساعة التي تُؤدِّن ، أو المذيع الذي يذيع في توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدي المهمة الموكولة إليه في أى ظرف من الظروف .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

يبين لنا أن الوحي شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم في نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا في مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .

ولكن لنا أن نسأل :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا .. إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا: هل هو تحتمس الأول؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنى هنا قد غرق ، ألا يعنى ذلك مجيء فرعون جديد؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالى ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوة وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

(١) الروية: النظر والتفكير فى الأمور، وهى خلاف البديهية [المعجم الوسيط: مادة (روى)].

وقول الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا^(١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر »^(٢) وهي إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .
ونحن هنا في بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .
ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات في القاهرة : « محطة مصر » .
وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]

نفهم منه أن التبوء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءة^(٣) ؛ أى : مرجعاً بيوء الإنسان إليه .

التبوء - إذن - هو التوطن في مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

(١) تبوأ: نزل وسكن.

(٢) ورد اسم « مصر » في القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢٦) ﴾ [يوسف] . وفي قوله تعالى : ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ (٢٦) ﴾ [يوسف] . وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَادِيں فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف] . أما قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِن لَّكُمْ مَا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر منوثة، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العلم الأعجمى الذى يُمنع من الصرف والتنوين، فهي مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة: المكان الذى ينزل به الإنسان ويسكن فيه . [لسان العرب: مادة (ب و أ) - بتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة^(١) .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

والقبلة هى المتجه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد تنجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا يتتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

(١) البيتوتة: مصدر للفعل بات بيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ي ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْ تَبَّوْءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بِيوتًا وَاجْعَلُوا بِيوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة .

وإلى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات^(١) اليهود في أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حياً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى . .

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه ، ويسمى باسم «حى اليهود» . وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود» .

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. ﴾ (٦١) [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفرعهم ؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا .

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بِيوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) [يونس]

أى : أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة .

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربية بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات : جمع ساحة وهى الناحية من البيوت . وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى . وساحة الدار : باحتها . [اللسان مادة : س وح] ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَعِدَّابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٧٦) فإذا نزل بساحتهم فسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿ (١٧٧) [الصفات] أى : بالمحلة أو الديار التى يسكنونها .

الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين في أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر.

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة ، ثم ينحنى الصف .

وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة .

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام : إن معنى قول الإمام : «سوا صفوفكم» أى : اجعلوا مناكبكم^(١) فى مناكب بعضكم البعض ، أما خارج الكعبة فىكنفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة ؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ﴾ .. (٨٧) ﴿ [يونس]

أى : خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) المناكب : جمع منكب ، وهو مجتمع عظم العضد والكتف . [لسان العرب : مادة (ن ك ب)] .
(٢) القبلة : الوجهة . قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُرِيدَنَّ قِبْلَةَ تَرْضَاهَا فَأُولَٰئِكَ نَسُفِّرُ
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ .. ﴾ [البقرة] ، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا . ومعنى الآية هنا أن بينوا بيوتهم ، مواجهة للقبلة . أو : اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير .

[يونس]

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٨٧) ﴾

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء^(١) لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونزكّي - إن كان عندنا مال - مرة واحدة في السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة في العمر .

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيُزِدْ ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهي الصلاة .

ولكن مَنْ الذى اختار المكان فى الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلاحظ هنا أن الأمر بالتبوء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

[يونس]

﴿ .. وَيَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين .

ونلاحظ هنا فى هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالثنية فى التبوء ، وجاء بالجمع فى جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد فى نهاية الآية لينبهنّا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى الرسالة إلى بنى إسرائيل .

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدِّقُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٤) ﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى : التبشير بالجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ
زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ
رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ^(١) وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ^(٢) فَلَا يُؤْمِنُوا
حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

والزينة : هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ،
فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأى غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى
العطش .

أما إن كان الطعام منوعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس
التي لا تستر العورة فقط ، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسيج والتصميم
والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأثيثه

(١) اطمس على أموالهم : قال ابن عباس ومجاهد : أى : أهلكها . وقال الضحاك وآخرون : جعلها الله
حجارة منقوشة .

(٢) واشدد على قلوبهم : اطبع عليها . وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه ، على
فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء . [ذكره ابن كثير فى تفسيره :
٤٢٩/٢] .

(٣) رأى : نظر بعينه كأبصر . ورأى بفكره وقلبه بمعنى : علم . ورأى : اعتقد . ورأى فى نومه رؤيا :
حلم . والرؤيا : الحلم فى النوم . ورأى : هنا هى البصرية . أى : حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه
معاينة .

بفاخر الرياش^(١) ، ولكن الضرورة فى النوم يكفى فيها مكان على الأرض ، وأى فراش يقى من برودة الأرض أو حرارتها .

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتى من الأموال ، والرصيد الأصيل فى الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية .

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب .

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلص ذهباً مُجمَعاً .

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخرُّون الناس فى كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون فى القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب .

(١) الرياش والريش : الخصب ، والمعاش ، والمال ، والأثاث واللباس الحسن الفاخر . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلبَاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف] .

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية في الجمال ، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التي صنعت منها دهانات الحوائط في تلك الأيام؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات .

وفي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۗ ﴾ (٨٨)

[يونس]

وهم لم يضلُّوا فقط بل أرادوا أن يضلُّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووزر إضلال غيرهم .

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء ، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنتك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير . وقد ينزل هذا الابن ليشتري شيئاً غير مفيد ولا يشتري - مثلاً - كتباً تفيده .

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هدته إلى اللعب . وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتي لبيان عاقبة الفعل^(١) .

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجي موسى - عليه السلام - في طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى :

(١) أى : أن فرعون لم تكن علة التقاطه لموسى أن يكون عدوآ له بل ليتخذ ولدأ ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها وفرعون ، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أى : أن ما حدث كان عكس ما كان يريده فرعون .

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ^(١) وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. ﴾ (٧)

[القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق ؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاءه في الماء فليس فيه موت مظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنجاه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد في الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهي تجد ألف منازع لها في النفس ، وكذلك هو اجس النفس .

ولذلك نفذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال ^(٢) ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى في قلوبهم ، قال :

﴿ .. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ (٣٩)

[طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحيوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعدته لأمه :

﴿ .. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧)

[القصص]

أى : أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

(١) اليم : الماء الكثير المجتمع . والمراد به : نهر النيل في مصر .

(٢) كان فرعون وزبانيته يذبحون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوة التي قيلت عن أن ولداً من بني إسرائيل سيقتضى على فرعون . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿ .. وَتَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص] .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ (١) فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ (٢) . . (٣٩) ﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿ قُرْتُ عَيْنَ (٣) لِي وَلَكَ . . (٩) ﴾ [القصاص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذى التقطه سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدواً ؛ ولو كانت العلة هى العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى فى كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذ فرعون وربّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدددها : ﴿ لِيُضِلُّوْا ﴾ نفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهِمُ الْمَالَ لِيُضِلُّوْا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالا وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

(١) التابوت : الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ابنتها قبل إلقائه فى اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطئ النهر القريب من قصر فرعون .

(٣) قرة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف].

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس]

ومعنى الطمس أى : إخفاء المعالم ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَن قَبْلَ أَن نَّطْمِسَ ^(١) وُجُوهًا فَتَرُدَّهَا عَلَيَّ أَدْبَارَهَا .. ﴾ (٤٧) [النساء]

ومعنى الطمس هنا : إخفاء معالم تلك الوجوه ؛ فتكون قطعة واحدة بلا جهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

إذن : فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشئ . ودعوة موسى - عليه السلام - هنا :

﴿ اطمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس]

أى : امسحها .

وقال بعض الرواة ^(٢) أنها مُسخت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً .

أو أن ﴿ اطمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس]

أى : أذهبهما ؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال .

(١) وردت مادة «الطمس» بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع ، هى قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَيَّ أَعْيُنَهُمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ . ﴾ (٦٦) [يس] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُرُّوا عَذَابِي وَنُذِرُ ﴾ (٤٧) [القمر] ، وقوله تعالى : ﴿ فَبِذَا نُجُومٌ طُمِسَتْ ﴾ (٨) [المرسلات] ، وقوله تعالى : ﴿ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا .. ﴾ (٤٧) [النساء] ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس] .

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى : صارت أموالهم ودرامهم حجارة منقوشة كهيتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم يتفجع به أحد بعد .

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

أى : أحكمم يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم ؛ حتى يروا العذاب الأليم .

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يدعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» ؟
والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان .

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم .

إذن : فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء فى هذه الآية :

﴿ .. رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ

الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. ﴾ (٨٥) [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر^(١) وبين إيمان الاختيار^(٢) .

(١) القصر والقسر : الإلجاء على كره . ومنه : قصرت نفسى على الشيء إذا حبستها عليه وألزمته إياه . انظر [لسان العرب مادة : قصر ، قسر] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .. ﴾ (٢٤) [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٢)

فحين يأتي الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان .

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان ^(١) . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩٠)

[يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام في مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن في قوله :

﴿ .. رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (٢٧)

[نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام :

(١) قال تعالى : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٩١) [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . فرعون الذي قال : ﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٢٤) [النازعات] وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ﴾ (٣٨) [القصص] جاء الآن عندما عاين الموت وأية الله على صدق موسى فطلق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِعَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ (١٥٨) [الأنعام] .

(٢) دياراً : أحداً . أى : استئصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٤٢٧/٤) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة » . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ

سَكِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

ويلاحظ أن الذى دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه :
﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ ﴾ .. (٨٩) يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا
مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الأصالة فى الرسالة لوجدنا موسى -
عليه السلام - هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده^(١) ، وإن نظرنا
إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد
منهما لشيء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشيء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع
أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء
نفسه ، أو أنه - أى : هارون - قد دعا بهذا الدعاء سراً .

والدعاء معناه : أنك تفرع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ،
فأنت لا تدعو إلا فى أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول : إن لى رباً أو من
به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى
بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ
آمن به ، وهو المسبب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطئ
البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون
والمساعدة . قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا .. ﴾ (٢٥) [القصص] .

[الشعراء]

﴿ .. إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦١)

فَرَدَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ :

[الشعراء]

﴿ .. كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢)

أى : لا ترتبوا الأمر بترتيب البشر ؛ لأن معى رب البشر ، فجاءه الإنقاذ :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٦٣)

[الشعراء]

إذن : فالدعاء إنما يكون فرجاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه .

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم ، فلا بد أن يدعوا كل منهما نفس الدعاء ، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر» ، أى : التقاء الخواطر فى لحظة واحدة .

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك ، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر ، فإذا به يقول فجأة : «يا سارية^(١) الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة ، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب ، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر ؛ فانهاز إلى الجبل .

(١) الفرق : الجزء . والطود : الجبل الكبير . [تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٦)].
(٢) هو سارية بن زعيم الدثلى . أمره عمر بن الخطاب على جيش وسيره إلى فارس سنة ٢٣ هـ ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد قد هموا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية : الجبل ، الجبل» ورفع صوته فألقاه الله فى سمع سارية فانهاز بالناس إلى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم وانتصروا . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : ٥٢/٢ ، ٥٣].

ويقال في هذه المسألة: إن الخاطر قد شغل مع الخاطر، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً، وهذا يعني أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصفائية؟ وفي أرقى درجاتها وهي النبوة؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمناً^(١)، والمؤمن هو أحد الداعيين، وما دام الحق سبحانه قد قبل دعوة موسى عليه السلام، فقد قبل أيضاً دعوة المؤمن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقيق المطلوب فور الدعاء، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب، أما ميعاد إنجاز الطلب، فقد يتأجل بعض الوقت، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه، فحين دعا موسى، وأمن هارون، جاءت إجابة الدعاء: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا.. (٨٩)﴾ بعد أربعين عاماً، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال.

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو، وتقبل أى دعاء، ولكن قبول الدعوة يقتضى تحديد الميعاد الذي تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه؛ فالحق سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون منفذاً لدعاء ما، ولكنه هو الذي بيده مقاليد كل أمر، فإذا ما أجيب دعوة ما، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعاد الملائم؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر.

(١) التأمين: هو قولهم أمين وراه الداعي. ومنه التأمين في الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ^(١١) ﴾

[الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع .

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ^(٣٧) ﴾

[الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء ، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً ، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً .

إذن : فالقدرة العليا رقية علينا ، وتعلم ما في صالحنا ؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات ، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه .

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ ^(٣) بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ ^(٤) .. ^(١١) ﴾

[يونس]

(١) عجولاً : صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة . والمراد : أن الإنسان مجبول على حب الخير ، وعلى العجلة في طلبه لنفسه ، ويلج في الدعاء ، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجهله أنه خير . قال تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ .. ^(٣٧) ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى : ﴿ أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ^(١) ﴾ [النحل] .

(٢) عجل يعجل - عجلًا وعجلة . واستعجل استعجالاً . قال تعالى : ﴿ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .. ^(١٥٥) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ^(٨٢) ﴾ [طه] وعجل الأمر : طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه . [القاموس القويم] .

(٤) الأجل : المدة من الزمن ، والمراد : العمر .

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه^(١) ، ألا تسمع أمّا تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس فى ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مغاضباً: يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى . فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

[يونس]

أى : ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدخلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

(١) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى ، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : «من هذا اللاعن بعيره» ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : «انزل عنه فلا تصحبنا يملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ ^(١) أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

[هود]

أى: كُنْ مُؤَدِّباً مَعَ رَبِّكَ حِينَ تَدْعُو وَتَنْفُسُ عَنِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ حِكْمَةَ الْحَكِيمِ الْإِجَابَةَ أَوْ عَدَمَهَا ، وَقَدْ تَكُونُ الْإِجَابَةُ فَوْرِيَّةً أَوْ مُؤَجَّلَةً إِلَى حِينَ أَوَانِهَا ، وَكِلَاهُمَا خَيْرٌ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ
ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٢) ﴿٤٧﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. ﴿٤٧﴾ لَأَنَّ الْاجْتِيَازَ لَمْ يَكُنْ بِأَسْبَابٍ
بَشَرِيَّةٍ ، بَلْ بِفِعْلِ يَخْرُجُ عَنِ أَسْبَابِ الْبَشَرِ ، فَلَوْ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ
حَفَرَ نَفَقًا تَحْتَ الْمَاءِ ، أَوْ لَوْ كَانَ قَدْ رَكِبَ سَفِينًا هُوَ وَقَوْمُهُ لَكَانَ لَهُمْ مَشَارَكَةٌ

(١) الوعظ : النصيح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما
يَلْبِنُ قَلْبَهُ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبي في تفسيره
(٤ / ٣٣٦٦) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود] . أى : إني أنهك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من
الجاهلِينَ . أى : الآثمين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام
الجاهلِينَ .

(٢) أتبعهم : اتبع أثرهم ؛ ليدركهم . وكان موسى وقومه بنو إسرائيل في خروجهم ستمائة ألف وعشرين
ألفاً ، وتبعهم فرعون مصححاً في ألفي ألف وستمائة ألف . بغياً وعدواً : أى : في حال بغى وظلم
واعتماد . وقال المفسرون : بغياً : طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، « وعدواً » في الفعل . أدركه
الغرق : ناله ووصله . قال أمنت : أى : صدقت ، أو أمنت - والإيمان لا يرفع حينئذ ، والتوبة مقبولة
قبل رؤية البأس . [ذكره القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٣٠٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف] .

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

[الشعراء] ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ .. (٦٣) ﴾

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق^(١) هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز .

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صحاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية .

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

[الشعراء] ﴿ .. فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

[الشعراء] ﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجي ويهلك بالشئ الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ^(١) إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

أى : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندي منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ .. (٩٠) ﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتياع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها ؟

لا ، لم تكن هذه هي نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتياع : ﴿ بَغِيًّا وَعَدْوًا .. (٩٠) ﴾ [يونس]

أى : أنه اتباع رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

(١) قال الأزهري : رهوا ساكناً من نعت موسى ، أى : على هيئتك . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرفاه ساكنين فقال لموسى : دع البحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر . [ذكره ابن منظور في اللسان ، مادة : رها] فقوله تعالى : ﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا .. (٢٤) ﴾ [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليغترروا فينزلوا فيه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ .. (٩٠) ﴾ [يونس]

والإدراك: قصد للمدرك أن يلحق بالشئ ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شئ يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندي من الجنود ، وله عقل يفعل ؛ فيجربى إلى الأحداث :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(١١) (٩٠) ﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾

[الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنتم بالله ثم استقم » ^(١٢) . وفي هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى .

لكن لو قلت - مثلاً : « آمنت أنك رجل طيب » فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب :

﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

(١) وأنا من المسلمين ، أى : من الموحددين المستسلمين بالانقياد والطاعة . وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان .

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنتم بالله ثم استقم » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤ / ٣٨٥) .

وهنا يأتي القول على لسان فرعون :

﴿ . . آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩٠)

[يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجبهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجبهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩٠)

[يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ أَءَأْتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١١)



وهذا يعنى : أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء فى غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإيجاب وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد فى الأرض .

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة^(٢) بعيدة عن الشر الذى حاق^(٣) به .

(١) قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل . وقيل : ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن تم قول باللسان ، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة . ونظيره : ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لُوحَهُ اللَّهِ . . ﴾ (٩٠) [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم . والكلام هنا هو كلام القلب . [ذكره القرطبي فى تفسيره ٤/٣٣٠٦] - بتصرف .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) حاق به الشيء يحيق حيقاً : نزل به ، وأحاط به . وقيل : الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فعله . قال تعالى : ﴿ فَرَفَاهُ اللَّهُ سِنِينَ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٤٥) [غافر] وقال تعالى : ﴿ . . إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٤٦) [الأحقاف] .

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأماننا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبة للمعبود .

وهذه المحبوبة للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار في أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار ^(١) .

إذن : فالمرود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا في مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجليه في حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت .. إلى آخر الخرافات التي ابتدعتها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالاله الذي آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالاله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ أَيْمَانِنَا لَغَافِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

ونحن نعرف أن الإنسان مكوّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة .

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول : جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً .. (٣٤) ﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده ، وسخر له الجن والرياح وعلمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهي والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسية بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿ .. ثُمَّ أَنَابَ ^(١) (٣٤) ﴾ [ص]

أى : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاض عليه ، لا أمر تابع من ذاته .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددّها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً ^(٢) .. (٩٢) ﴾ [يونس]

(١) أناب : رجع إلى الله تعالى بالتوبة . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

(٢) تنجيك : تخرجك من البحر . ببطنك : بجسدك الذى لا روح فيه . لتكون لمن خلقك : بعذك . آية : عبرة ؛ فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ اليزيدى وابن السميّع «تنجيك» بالحاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليروك .

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أن يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي . (٢٨) ﴾ [القصص]

وبعض من باحثى التاريخ يقول: إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حللّوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

ونحن نقول: إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا: إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١) ﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْرِصَادٍ (٢) ﴾ [الفجر]

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد: لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى: ص ٥١٣] . وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يتدّ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه . وفى [كلمات القرآن للشخ حسن محمد مخلوف] الأوتاد: الجنود أو المبانى القوية .

(٢) إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها . [كلمات القرآن] .

ونلاحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظيفة «عزیز مصر» - أى : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. (٥٠) ﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَسَفَ الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» في التاريخ المصرى إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيده» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة» إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أى اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقى ، نجد أنه يؤيد كتاب الله .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ [يونس]

(١) وإن كثيراً من الناس : أى : أهل مكة . عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، وينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أذن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر في آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَكَايِنَ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

[يوسف]

وحين نظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذي رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذى تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التى تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صمّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التى تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذى لاحظ أنه كلما غطس شيء في المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

(١) كآين من آية: كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف].

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة في الكون ،
وهم تميّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذي اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً^(١) من
المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التي
تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينته من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها
بعض التجارب في معمله إلى أن اكتشف «البنسلين» .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ [يوسف]

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التي تأتي في القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس
ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛
فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا: «أمنّا» ، لا أن يظلّوا في حالة إعادة
للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر في الأمور المادية قد تواصلت ؛
لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التي توصل إليها من سبقوه ،
فلماذا لا يحدث هذا في الأمور العقديّة ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله
تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولوصل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسر ها ، وبضمها) : الأصل . والأصيص : أصل الدّان (إناء) أي : أسفله
ويقال : هو كهيئة الجوله عروتان يُحمل فيه الطين . وفي الصحاح : الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو
نصف الجر أو الخاية تزرع فيه الرياحين . [لسان العرب : مادة (أ ص ص)] . وتطلق هذه الكلمة على
أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات .

إلى كل من وكَّد بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب نفسه .

ونحن نجد ذلك في أمور ضارة مثل: الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل: لماذا تُحرَّم ؟ وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١)

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى: البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن .

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرى فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة .

(١) يوأنا: أنزلنا . مبوأ صدق: منزل كرامة وهو مصر والشام . فما اختلفوا: بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم . [تفسير الجلالين: ص ١٨٧ - بتصرف].

إذن: فيوجد فرق بين تبوء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوء المواطن هو الوطن .

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَنْ تَبُوءَ لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا .. ﴾ (٨٧) [يونس]

هذا فى التبوء الخاص ، أما فى التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ .. ﴾ (٩٣) [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك فى زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن فى مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴾ (١) [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التى حوله مَبُوءًا صِدْقٍ .

وكلمة «الصدق» تعنى جماع الخير والبر ؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا»^(٢) .

(١) سبحان الذى أسرى عبده: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى مما يقول فيه المشركون ؛ والإسراء والسرى: السير فى الليل . المسجد الأقصى: بيت المقدس . الذى باركنا حوله: لسكانه فى معاشهم وأقواتهم . [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣١٣] .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى موطنه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلًا .

ولذلك فأنت تجد في الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق^(١) ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً. وكل خصال الخير هي مَبُوءاً الصدق.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾^(٢) (٨٠)

[الإسراء]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾^(٣) (٢) [يونس]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلْ لِّيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾^(٤) (٨٤) [الشعراء]

أى : اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهي سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾^(٥) (٥٥) [القمر]

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هي جرائم الحدود ، وهي : الزنا ، والقذف ، والمردة ، والسُّكْر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحي : الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس . ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود) .

(٢) وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، أى : أدخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره . وأخرجنى : من مكة مخرج صدق : إخراجاً لا ألتفت بقلبي إليها . [تفسير الجلالين : ص ٢٥١] .

(٣) قدم صدق : سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

(٤) لسان صدق : ثناء حسناً وذكرأ جميلاً . [كلمات القرآن] .

(٥) مقعد صدق : مكان مرضى . [كلمات القرآن] . عند ملك : ذى مُلك . مقتدر : على كل ما يشاء ،

لا إله إلا هو . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٦٠٧] .

وهو مقعد عند ملك لا يبخل ، ولا يجلس في رحابه إلا من يحبه ،
ولا يرضن بخيره على من هم في رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ،
وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن بوأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مَبُوءاً صدق ، في مصر والشام ،
وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ^(١) .. (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ،
ومنهم من ترقب مجيء النبي ﷺ ليؤمن به ، ومنهم من تمادى في
الطغيان ؛ لذلك قطعهم الله - سبحانه - في الأرض أجمعاً .

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآني نجد أنه يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم
في كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يُذبهم في الشعوب . بل
لهم في كل بلد ذهبوا إليه مكان خاص بهم ، ولا يذوبون في غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ^(٢) لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

(١) اهبطوا: انزلوا. مِصْرًا: من الأمصار ، أى : بلدًا من البلاد.

(٢) من بعده: أى من بعد إغراق فرعون .

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن في غير الأرض؟

ونقول: لنا أن نلاحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم في أية بقعة من الأرض يسكنون، فكان الحق سبحانه قد بين ما أصدره من حكم عليهم بالتطوع في الأرض أماً؛ فهو سبحانه القائل:

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ^(١) .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم في أيامنا هذه وقد صار لهم وطن، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال في آخر سورة الإسراء:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ^(٢) (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

والمجىء بهم لفيفاً إنما يعني أن يجمعهم في وطن قومي لتأتى لهم الضربة القاصمة التي ذكرها الحق سبحانه في قوله:

﴿ .. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ^(٣) (٧) ﴾ [الإسراء]

(١) أى: فرقناهم في الأرض فرقاً. [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أى: إذا أفسدم الكرة الآخرة وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم، أى: يهينوكم ويصهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ .. (٧) ﴾ أى: بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧) ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ .. وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً. بتصرف من تفسير ابن كثير (٢٦/٣) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون، وهذا لا ينفى أن يحدث عدة مرات، ولذلك قال رب العزة: ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا .. (٨) ﴾ [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم في كل بلد من البلاد التي قطعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون في مكان واحد ، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله .

و حين نظر إلى رحلتهم نجد أن «يثرب» كانت المكان الذي اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التي دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا في يثرب صار لهم الجاه ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب .

وهم قد اجتمعوا في المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هي المهجر لنبى ورسول يأتى من العرب في آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش : «لقد أظل زمان يأتى فيه نبى تبعه ، ونقتلكم فيه قتل عاد وإرم»^(١) .

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية .

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرننا عنها :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣)﴾

[يونس]

أى : أن علمهم بمجىء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به .

(١) قال الحق سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهرأ فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيىعت الآن تبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعدوا المشركين من قريش . وما إن أهل الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج : إنه النبي الذي توعدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به .

فكان اليهود هم الذين تسببوا في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم في اختلافهم يأتي عبد الله بن سلام ^(١) إلى رسول الله ﷺ ويقول : إن اليهود قوم بُهتٌ ، وإذا أنا أمنت بك يا رسول الله سيقولون في ما يسىء إليّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامي أسألهم عنى .

وكان ابن سلام في ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبي ﷺ وقال : ما تقولون في ابن سلام ؟

قالوا : حَبْرُنَا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السُّباب ، فقال ابن سلام : ألم أقل لك يا

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبي ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجاية . ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلي ٩٠/٤) .

رسول الله إنهم قوم بُهت^(١) ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. ﴾ (٩٣)

[يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق

ﷺ

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. إِنْ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٩٣)

[يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين من بقوا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلاحظ أن كلمة ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك ..

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد يتزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أجبرنى به جبريل أنفاً . قال ابن سلام : ذلك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى . فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبي ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا : أعاده الله من ذلك . فأعاد عليهم ؛ فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد فى مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم .

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٤)

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

(١) المخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٥) [يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبي ٤ / ٣٣١٠] .

(٢) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك : من أهل التوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام . وقيل : إن رسول الله ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال : «ما أشك ولا أسأل» . وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه : إن كنت ابنى فبرنى - من البر - أى : كن باراً بى . وهو لا يشك فى أنه ابنه . من المترين : الشاكين . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١] .

(٣) امترى فى الشيء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشيء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ (٥٥) [النجم] أى : تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس القويم] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته «^(١)

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يضمّر خطاب الأمة في خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجّه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستكفوا^(٢) عن أى أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك: لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنتين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما: إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيه من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفذ كل ما يؤمر به بدقة^(٣) ؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ

قَبْلِكَ .. (٩٤) ﴾

[يونس]

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبي طالب: يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استهينك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أعلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقي عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستكفاف: الامتناع تكبراً وأنفثه . ومنه قوله تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسُكْرٍ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء] .

(٣) ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ .. (١٥) ﴾ [الشورى] .

سُورَةُ يُونُسَ

٦١٩٩

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيتَه كـمـعـرـفـتـي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد»^(١) .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوب في التوراة^(٢) من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة .

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١٩٤/٢) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدري ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٥٧) ﴿

[الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ إِذَا أُرْسِلْتَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٥) ﴿ [الأحزاب] هي في التوراة : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحزراً للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك : المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً ، وأذناً صمماً ، وقلوباً غلفاً . أخرجها البخارى في كتاب التفسير (٨/ ٥٨٥ فتح) والبيهقى في الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتي على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقق الدقيق أن يقلب أوجه الشهادات التي تقال أمامه في النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتي حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ .. (٩٤) ﴾

[يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذي جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ .. فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾

[يونس]

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجه إلى الأمة المؤمنة في شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك (٦٥) ﴾

[الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبي ﷺ ، وكل الآيات التي تحمل معاني التوجيه في الأمور المنزه عنها رسول الله ﷺ خاصة بأتمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليظن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف . وحبوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [أنظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجه إلى الخير قد يأتي بمقابله من الشر ؛ لتضح الأشياء بالمقارنة .

ونحن في حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد في دروسك ، واستمع إلى مدرسك جيداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذي رسب ، والوالد في هذه الحالة يأتي بالإغراء الخبير ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيِّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدٌ
ضِدَانٌ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حَسَنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ (١)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ
فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهي الأصل في المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتلقت هذه الآيات إلى بديع صنعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرته .

وكذلك يقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول في البلاغ عن الله تعالى .

(١) الأضداد : في ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلا إذا تذوقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل في إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوبنا بنار المظالم .

وآيات القرآن الكريم التي تحمل منهج الله .
وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات .

والخطاب في هذه الآية هو خطاب للنبي ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما في الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيًا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ في التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم في أمته تعليماً وتوجيهاً ؛ لأن المنهج مُنزَّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم^(١) .

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح : إن كنت في شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبي ما أنزل الله سبحانه عليّ .

ألم يَرِدْ في القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهْلُؤَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) ﴾ [سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ .. لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحریم]

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ .. (٤١) ﴾ [سبأ]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِعَ من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك^(١) - كما نعلم - معناه : تساوى كفة النفسى وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وهماً وافتراءً وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط^(٢) .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضمُّ شىء إلى شىء ، ومنه الشكائك^(٣) ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفى ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .

(٢) شك الشىء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٣) الشكائك : جمع شككة ، وهى مجموعة أشياء شُكَّ - أى ضُمَّ - بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح»^(١) أى: الذى ضمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شيء إلى شيء ، وفى النسب تضم النفي والإثبات معاً ؛ لأنك غير قادر على أن ترجح أحدهما .

وكل خطاب فى الشك يأتى على هذا اللون .

والآية التى نحن بصددتها تقول :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته ، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى : إخراج الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ .

والذى يؤيد هذا وجود آية فى آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

دُونِ^(٢) اللَّهِ .. ﴾ (١٠٤)

[يونس]

(١) الشُّكَّةُ : ما يحمل أو يلبس من السلاح . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)].

(٢) دون : نقيض فوق ، وتكون ظرفاً ، وتأتى بمعنى أمام ، وبمعنى وراء ، وبمعنى غير ، وبمعنى قرب أو جهة ، وبمعنى قبل ، وبمعنى أقل . والتمييز بين هذه المعانى يكون بالقرائن . وهى فى الآية ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤) [يونس] بمعنى (غير) . [القاموس القويم] بتصرف .

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ^(١)



وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم علماً أزلياً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان .

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم .

وحُكْمُه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار ، وهو حكم تقديري .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يأتي وزير الزراعة ، ويعلن أننا قدّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة الأراضي المنزرعة قطناً ، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن ، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بأفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورقة .

إذن : ففي المجال البشري قد يصيب التقدير وقد يخطيء ؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطلق ، بل بعلم نسبي .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلي ، وحين يُقدِّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدره .

(١) حقت : وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهري ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّرَ من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره، وهذه هي عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبي لهب^(١)، فقد نزل فيه قرآن يُتلى:

﴿ تَبَّتْ^(٢) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾

[المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة؛ لأن الحق سبحانه قد علم أولاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عني إنني سأصلي النار، لكن ها أنذا أعلن أنني أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب، فقد علم الله أولاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبي ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدَّرُ البشر التقدير، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التي ذُكر فيها، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم. قال: فيأني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبَّتْ: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٤) ﴾ [المسد] أي: سيُسوى بنار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونياً أزلياً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتي الأمر على غير ما يُقدَّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر .

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلي ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ^(١) إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ^(٢) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(٣) (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

(١) الرجس : القَدْر والنقن حسيًا ومعنويًا ويطلق على ما يُستقبح في الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ .. ﴾ (٧٧) [الأعراف] أى : عذاب بسبب الرجس الذى اقترفوه [القاموس القويم] يتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا يتفهم حينئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) ينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها .

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(١) أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ^(٢) أَوْ يَكُونُ لَكَ
بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ ^(٣) أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا
كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ^(٤) ﴿٩٣﴾ [الإسراء]

وكان الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لست أنا الذي يُنزل
الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم
تنزل به تلك الآيات التي طلبوها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴾ ﴿٥٩﴾ [الإسراء]

إذن: فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق في المعاندة والمعارضة ، ويقابل
قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه .

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون
معتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا
الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاماً في الوجدانية ، وكلاماً
في الآيات المعجزات ، وكلاماً في صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

(١) كِسْفًا: قطعاً . والكسف: السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فترى الودق يخرج
من خلاله .. ﴾ ﴿٤٨﴾ [الروم].

(٢) قَبِيلًا: متقابلين . والمراد رؤيتهم عيناً .

(٣) الزخرف هنا: هو الذهب . والزخرف: الزينة ، وقد يقصد به التمويه والتزيير وتزيين الكذب ، ومنه
قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا
.. ﴾ ﴿١٧٧﴾ [الأنعام].

(٤) يَبْسُوعًا: عيناً تنبع لنا بالماء ببلدنا هذا . جنة: بستان . فتفجر الأنهار: بأرضنا هذه التي نحن بها .
خلالها: يعني: خلال التخيل والكروم . وخلالها: بينها في أصولها . تفجيراً: سبلاً يسيل بينها .
كِسْفًا: قطعاً . قَبِيلًا: مقابلة أو جميعاً ، فتعابنهم معاينة . زخرف: ذهب . ترقى: تصعد في درج إلى
السماء . [مختصر تفسير الطبري: ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] يتصرف .

وقصّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصلّ قليلاً في قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب ^(١) ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسائل : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذي سُمِّيَتِ السورة باسمه .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمّس الحكمة في ذلك ، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود ، وشمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلّى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التي انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التي انتهى إليها أمر الرسول ومن آمن به .

ونجد الذين ذكّرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد في الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر .

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفاسة . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقالته . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف .

إذن: فَمَنْ ذُكِرَ هُنَا مِنَ الرِّسْلِ كَانَ لَهُ عِلَاقَةٌ بِالمَاءِ ، أَمَا بَقِيَّةُ المَوْكَبِ الرِّسَالِي فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ عِلَاقَةٌ بِالمَاءِ .

ونحن نعرف أن الماء به الحياة ، وبه الإهلاك ؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء ، ويهلك بالشيء نفسه . وكان الحق سبحانه يبين لنا الحكمة : أنا أهلكت بالغرق هناك ، ونجيت من الغرق هنا .

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هي المستولية على هذه السورة ، كما تظهر طلاقة القدرة في مجالات أخرى ، وبألوان أخرى^(١) .

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس ؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف^(٢) ، وهم الأمة الوحيدة في هذا المجال التي استثناها الحق سبحانه من الإهلاك ، فقد أغرق قوم نوح ، وأغرق قوم فرعون ؛ فكلاهما قد كذب الرسل ، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس^(٣) آمنوا فأنجاهم الله سبحانه .

وسُمِّيت السورة باسم من نجا ؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب ، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب ، فنجوا أنفسهم بالإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) من طلاقة القدرة توظيف الشيء في ضده مثل النار ، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا إبراهيم برداً وسلاماً . والماء به الحياة وفيه الغرق ، وبه النجاة ؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عليه السلام وأغرق به فرعون .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [١١٧] ﴿ [الصافات] وهم من قرية «ينوى» جهة الموصل بالعراق الحالية .

(٣) البأس : العذاب . يقول تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا .. ﴾ [الأنعام] ، ويقول : ﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بَأْسًا بَيَّاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [٤] ﴿ [الأعراف] . والبأس : شدة الحرب ، يقول تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ [البقرة] . والبأس : القوة . يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبأ حين شاورتهم في أمر سليمان : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ .. ﴾ [النمل] .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ ^(١)
لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ^(٢) ﴿١٨﴾ ﴾

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتي بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فقبل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده .

فَمَنْ وَصَلَ إِلَى الْعَذَابِ ، وَأَعْلَنَ الْإِيمَانَ مِنْ قَلْبِ الْعَذَابِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، وَمَنْ أَحْسَ وَاسْتَشْفَىٰ بِوَكَائِرِ الْعَذَابِ وَأَمِنَ فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقْبَلُهُ .

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عندك لأيتك» تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : «أداة تخصيص وحث» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة]

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصل [القاموس القويم] .
(٢) ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنْتَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنّت فنفعها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ قيل : إنهم لما أظلمهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، قذف الله في قلوبهم التوبة ، وفرقوا بين كل أنثى وولدها ، وعجّوا - أي : رفعوا صوتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب . ﴿ .. وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ : لم نعالجهم بالعقوبة ، واستمتعوا بأجالهم في الدنيا ، إلى حين مماتهم وقت فناء أعمارهم . [مختصر تفسير الطبري : ص ٢٤١ ، ٢٤٢] .

أى: أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ .. (٩٨) ﴾

[يونس]

أى: أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس ، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب.

إذن: فقوم يونس هنا مُسْتَشُونَ ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب.

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة ، يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْعَثُونَ ^(١) (١٤٤) ﴾

[الصافات]

أى: أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبين الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

(١) المسبحون: هم المصلون لله تعالى ، قبل البلاء والعقوبة التى نزلت به . وقيل: المسبحون: هم الذاكرون ، بقوله كثيراً فى بطن الحوت: ﴿ .. لألله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (٨٧) ﴾ [الأنبياء].

﴿ .. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة . مختصر تفسير الطبرى ، وتفسير الجلالين].

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ

[يونس]

حِينَ ﴿٩٨﴾

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى: مكاناً مهيئاً ، أهله متوطنون فيه ، فإذا ما مرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قرىً^(١) أى: وجبة طعام .

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد» ، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً ، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة .

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»^(٢) ؛ لأن كل القرى تزورها .

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبى ﷺ فى قصة الذهاب للطائف ، وهى قرية العبد الصالح يونس بن متى^(٣) ، وهى فى

(١) القرى: هو طعام الضيفان . والقرية فى اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر ، مكة ، الطائف ، نينوى ، وغيرها مما أشار إليه القرآن ، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المثنى منها (١) والجمع (١٩) مرة .

(٢) قال عنها الحق سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] ، ويقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى].

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يقال له عداس ، فعندما هم رسول الله ﷺ بالأكل من عنب يستانهما قال: باسم الله . ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له ﷺ: ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك؟ قال: نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبي ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية . (٤٢١/٢) .

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿وَذَا النُّونِ ^(١) إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧)﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة» .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء]

وسمى سيدنا يونس عليه السلام بذي النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذى ابتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجيء إنما يجيء ليقوم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى : أنهم أغضبوه .

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل .

(١) النون: الحوت. و(ذو، ذا، ذى) بمعنى: صاحب. أى: صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام.

وأبو الطيب المتنبي^(١) يقول في هذا المعنى :

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا
أَلَّا تُغَادِرَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

أى : إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم ، فالذى رحل حقيقة هم هؤلاء القوم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً :

﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

أى : أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضَيِّقَ عليه الأرض الواسعة ، وسيهيء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم .

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحَفِّظُ^(٢) وتملأ القلب بالألم والتعب .

وكان عليه أن يُوطِّنَ نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

والقرية التي أرسل إليها يونس عليه السلام هي قرية «نينوى» ، وهي التي جاء ذكرها في أثناء حوار بين النبي ﷺ والغلام النصراني «عداس» الذي قابله ﷺ في طريق عودته من الطائف .

(١) هو : أحمد بن الحسين المتنبي ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل في البداية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفي مقتولاً بالعثمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلي ١/١١٥) .

(٢) تحفظ : تغضب . والحفيظة : الغضب . ويقال : إن الحفائظ تذهب الأحقاد : أى : إذا رأيت حميمك يُظلم حميت له ، وإن كان عليه في قلبك حقد . [اللسان مادة حفظ] .

وكان النبي ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد النصير^(١) ، وجلس النبي ﷺ قريباً من حائط بستان .

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقي من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عدّاس ، فقالا له : خذْ قُطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده ، قال : باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك؟» . قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى» ؛ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن مَتَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي» ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه .

ولما سأل صاحبا البستان عدّاساً عن صنيعه هذا . قال لهما : لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي^(٢) .

(١) لما نبس رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصرة «ثقيف» وكلمهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وأجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة . ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه . وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتيبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . [السيرة النبوية لابن هشام : ٤١٩/٢ ، ٤٢٠] . بتصرف .

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة في السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩/٢ - ٤٢١) .

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غيماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بداية عذاب الله لهم ^(١) ؛ فَهَرُّعُوا إِلَى ذَوِي الرَّأْيِ فِيهِمْ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ هَذِهِ هِيَ بُوَادِرُ الْعَذَابِ ، وَقَالُوا لَهُمْ : عَلَيْكُمْ بِإِرْضَاءِ يُونُسَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ ، فَأَمِنُوا بِهِ لِيُكْشِفَ عَنْكُمْ الْعُغْمَةَ .

وهُرِّعَ النَّاسُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، الْحَيُّ حِينَ لَا حَيٌّ ، وَالْقَيُّومُ وَالْمُحْيِي وَالْمُمِيتُ .

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون في المظالم التي ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جدار له ^(٢) .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ^(٣) وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى

[يونس]

حِينَ (٩٨) ﴿

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولورأوا عين العذاب لما فنعهم الإيمان» واختاره القرطبي في تفسيره (٤/٣٣١٢) .

(٢) نقله القرطبي في تفسيره (٤/٣٣١٢) من قول ابن مسعود .

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدنيوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين :

* الأول : إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة .

* والثانى : كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصفافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان متقد من العذاب الأخرى ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٢٣) .]

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق
بركابها ؛ فألقوا الأمتعة في البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر
اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر من تقع عليه القرعة ، فوَقعت
القرعة على نبي الله يونس عليه السلام .

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن
الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى
العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خلقاً ،
لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين .

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن
تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهِمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ^(١) (١٤١) ﴾

[الصفات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه ^(٢) الحوت وابتلعه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام في بطن
الحوت :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٢) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ

يَعْتُونَ ^(١٤٤) ﴾

[الصفات]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

(١) ساهم : قارع ، أى : اشترك في الاقتراع . المدحضين : المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه . [ابن كثير
٢٠/٤ - بتصرف] .

(٢) التقمه : ابتلعه في سرعة . قال سبحانه : ﴿ فَالتَّمَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مَلِيمٌ ^(١٤٢) ﴾ [الصفات] ، والمليم : هو
مَنْ أتى ذنباً يلام عليه .

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٩٨) ﴾ [يونس]

وعذاب الخزي في الحياة الدنيا يمكن أن تراه مجسداً فيمن افتري وتكبر على الناس ، ثم يراه الناس في هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزي في الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخزى وأشد.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَتَعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى: أنهم نجوا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعي.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا
أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا أنه إن قامت معركة بين نبي مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن ينزل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

(١) تُكره الناس: تلزمهم وتلجنهم . أى: ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضل من يشاء ويهدى من يشاء . كما قال تعالى في ذلك: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (١١٩) ﴾ [هود] . وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. (٢٧٢) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ؛ لعلمه وحكمته وعدله - سبحانه . [تفسير ابن كثير: ٤٣٣ / ٢] بتصرف .

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عز وجل قديم أزلي بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى في ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذي أوجد كل شيء من عدم .

ولذلك يُسمون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول: حيٌّ ، ومُحيٌّ ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف به «مُحيٌّ» بعد أن وجد من يحييه ، لا ، إنه مُحيٍ ، وبهذه الصفة أحيأ .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَه عن كل تشبيه: قد نرى المصوِّر أو الرسام الذي صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التي مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة .

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خلَق الخلق .

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذي ينتفعهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن ^(١)

(١) وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

وأما بقية الكون فمُسَبِّحٌ^(١) مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلُّ نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبة .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبة إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسَبِّحٌ له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾

[الإسراء]

وهذا ليس تسبيح^(٢) دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإن فقهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .. (١٣) ﴾ [الإسراء]. ويقول تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر].

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلاحظه يقيناً فى حركة الجماد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ؛ فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسها قلب .

عَلَّمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ (١) ، وَسَمِعَ النَّمْلَةُ تَقُولُ :

﴿ .. يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ

[النمل]

لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

وَالْهَدَّاهُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا رَأَى عَنْ بَلْقَيْسٍ مَلِكَةَ سَبَأَ :

﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

[النمل]

أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

إِذَنْ : فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَبَّحٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، يَسِيرٌ عَلَى مَنْهَجِهِ
سَبْحَانَهُ مَا عَدَا الْمَخْتَارَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ : الْإِنْسَانَ وَالْجَانَّ ؛ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا فِيهِ
عَقْلٌ ، وَهُوَ مَيِّزَةُ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْبَدَائِلِ .

وَمِنْ عَظَمَةِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ خَلَقَ لِلْإِنْسَانِ الْإِخْتِيَارَ حَتَّى يَذْهَبَ
الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ اخْتِيَاراً ، وَلَوْ شَاءَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُجْبِرَ الْإِنْسَانَ عَلَى
الْإِيمَانِ لَفَعَلَ .

أَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ : وَلِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنْ خَلْقٍ وَإِرْسَالِ
رُسُلٍ ، وَتَكْذِيبِ أَنَاثَ ، ثُمَّ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ ؟

وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

[يونس]

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

(١) فَرَبُّ الْعِزَّةِ سَبْحَانَهُ يَقُولُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ

الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهَوُ الْفُضْلِ الْمُبِينِ ﴿٦٦﴾ [النمل].

إذن: فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(١) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ محبباً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فبينه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلف نفسه شططاً ^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هي مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيرة إن وجد من يعارض فيها فهذا ما شاء الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .

وإن غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتخلَّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) باخِع : أى : مهلك نفسك ، أى : مما تحرص وتحزن عليهم لعدم إيمانهم . وهذه تسليية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار . كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ .. (٨) ﴾ [فاطر] . وكقوله سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ .. (٦) ﴾ [الكهف] .

قال مجاهد وعكرمة وآخرون : باخِع نفسك : أى : قاتل نفسك . وقد قال الشاعر :

ألا أيهدا الباخِعُ الحزُنُ نفسه
لشيء نَحْتَهُ عن يديه المقَادِرُ

[ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٣١)] بتصرف .

(٢) الشطط : الجور ومجاوزة القَدْرِ فى كل شيء ، والمقصود : لا تنظلم نفسك ، ولا تتجاوز الحد فى الحزن عليهم . ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللذين طلبا حكم داود بينهما ، فقالا له : ﴿ .. فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَأَهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) ﴾ [ص] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩)

[يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٠)

هكذا يُبَيِّنُ لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛
لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات
أبراج^(١) ، وأرض ذات فجاج^(٢) ، وبحار تزخر^(٣) ، ورياح تصفر^(٤) ، كل
ذلك يدل على وجود الخالق سبحانه .

لكن أترك الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

(١) الرجس : الخيال والضلال . [ابن كثير ٢ / ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استقدر
من عمل ، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسمَّاهما رجساً . وللرجس معانٍ أخرى ، فهو العذاب
كالرَّجْز ، وهو المائم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ . إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (١٣٦) ﴿ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهي منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [انظر لسان
العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا
(١٦) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (٢٠) ﴿ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا
فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٣٦) ﴿ [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ . . . وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ
كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧) ﴿ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أي : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لثفير أو حرب . [لسان العرب ،
مادة : زخر] وهذه الجملة من خطبة خطبها قس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية ، كان أولها : « أيها
الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت » انظر : البيان والتبيين -
للجاحظ (١ / ٣٠٨) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكروهم بالآيات الموجودة في الكون ، وليتنبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبين لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن ملكي إلا بإرادتي ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبة .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن من خلقه مختاراً علم برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعةً يأتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدّل لى حياتى ، فلا بد أن أرهف^(١) له السمع .

وساعة يُقبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمان .

إن العبد منّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدخّلوه . وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد . والرهافة فى اللغة : الرقة والल्प . [اللسان : مادة رهف] .

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاقٍ .

أما إذا دقَّ بابُه عبدٍ آخر ، فتجده يأمر معاونه أن يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبةٍ ورجبةٍ فى صدقِ اللقاءِ والمودةِ .
إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالناس بالحق سبحانه وتعالى ؟

والله سبحانه هو القائل فى حديثٍ قدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملائخه خير منه» .

ما بالناس بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .
إذن : أقبل على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إن ذكرت الله فى نفسك ، فالله يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملائخه فى ملائخه خير منه ، فالملأ الذى ستذكره فيه ملائخه خطأً ، والله سبحانه سيذكرك فى ملائخه طاهر .

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى ^(١) : «إن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً» .

والذراع أطول من الشبر .

ويقول : «وإن أتانى يمشى أتيتته هرولة» .

فالمشى قد يتعب العبد ، لذلك يسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إن يعلم أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وقامه : «أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله ، لله أفريح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهول» .

شئ ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق في كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق، وهو الحق القائل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۗ ﴾ (١٧) [محمد]

ونلاحظ أن الحق سبحانه يؤكد في الآية التي نحن بصدد خواطرننا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ في الأرض جميعاً ؛ ليبين لنا أنه حتى إبليس الذي دخل في جدال مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ لِيُحْكِمَ الْأَمْرَ حَوْلَ كُلِّ خَلْقِهِ ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ .. أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ (٩٩) [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هي المطلوبات الظاهرة فقط التي تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أَنْكَ أَكْرَهْتَ قَالِباً أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُكْرَهُ قَلِباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب ^(١) .

وهكذا لا يصلح الإكراه في قضية الدين ، ولكن على الإنسان أولاً يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (٢٨٥/٢ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم . والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكراهة ، والقوالب مادة تسيير حسب الإدراك الذي انفعَل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويسمى (الزروع) .

لا يصلّي فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه في الدين . وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطيء ؛ لأن الإكراه في الدين إنما يكون ممنوعاً في القضية العقدية الأولى .

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإن أخلّ بحكم من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه في الدين ، فيما يخصّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حرٌّ في أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإن دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرت محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرهما ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإن زנית تُرجم أو تُجلد^(١) ، وإن شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلت قواعد الإسلام وشريعته .

وإن رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرق ، ولكن إن رآه يعاقب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم .

إذن : ﴿ لا إكراه في الدين .. ﴾ (٢٥٦) ﴿ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفريعات الدين ، وتعاقب إن خرجت على الحدود .

والرسول ﷺ يقول : «مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا^(٢) على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

(١) للزنا في شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد . أما الرجم فيعاقب به الزاني المحصن الذي قد أحصن بالزواج . أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (٢) [النور] .

(٢) استهموا : اقرعوا .

فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً»^(١) .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإن خدش حكماً من الأحكام يعاقب .

وهناك ما هو أشد من ذلك ، وهو حكم من ارتد عن الإسلام ، وهو القتل^(٢) .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إن آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلم أنك إن دخلت على الدين ثم تخلّيت عنه فسوف تُقتل ، وفي هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيماني ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس]

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٢٦٨/٤) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد فى مسنده (١/٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) .

- وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث آخر عن ابن مسعود : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأتى رسول الله ﷺ بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوَى ؛ لا بُدَّ أن ينتهي العقل إلى الإيمان .

ولذلك تجدد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذي يشفى الغُلَّةَ ^(١) ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم .

وبعض القمم الفكرية في العالم التي اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسويين للإسلام في زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادئ الإسلام ، وفرَّقوا بين مبادئ الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف في البحث العقلي ؛ لأن الدين حين يُجرَّم عملاً ، فليس في ذلك التجريم إذنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا .. (٢٨) ﴾ [البائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا ^(٢) ،

(١) الغلّة في اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفة ودرسه كالظمان يطلب الماء .
(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٦) ﴾ [الإسراء] . ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [النور] .

وغير ذلك من الجرائم التي جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكّر العقاب الذي أوقعه الإسلام على السارق ، وإن رأيت مسلماً يزني ، فتذكّر العقوبة التي حددها الحق سبحانه للزاني .

وهكذا الحال في جميع الجرائم .

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادئ الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادئ الدين الحنيف .

وها هو ذا «جينو» المفكر الفرنسي يقول : « الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنت قد عرفت المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة في النفس تجعلني أتردد في الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام . »

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدي إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مَنْاطُ التكليف .

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفي الرجس ؛ لأنهم سيقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سألتني سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنْاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقّال البعير ، وهو ما يُشدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن ينهضه فهو يفكُّ العقال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (عُتْرَة) ويشبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطَيِّرَه .

إذن : فالعقل أرادَه اللهُ سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى في تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل .

فحين يفكر الإنسان في تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك ؟
إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أرادَه اللهُ سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التي فيها هوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبتها ^(١) متعبة .

ويخطيء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مناط التكليف ، وهو الذى يوضح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك .

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل .

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُستوفٍ للملكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثل له .

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طعمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

(١) غِبَّ الأمر مَغْبَةً : عاقبته وأخره . [لسان العرب : مادة (غ ب ب)] .

أن تثبت منها شجرة إن زرعناها في الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لبّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذي صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضجِ البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبّ وترعه ينتج لك بطيخاً .

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يزنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكروه بقوة تقهره على أن يفعل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدريبه على الطاعة .

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرّقوا بينهم في المضاجع»^(١) .^(٢)

وهنا نجد أن الذي يأمر هو الأب وليس الله ، والذي يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرَهُه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقول له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف .

ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما استُكْرِهوا عليه»^(٣) .

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت قُرُشاً أو غيرها .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) ، وأبو داود في سننه (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٥) والدارقطني في سننه (١٧٠/٤) والحاكم في المستدرک (١٩٨/٢) .

وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع .

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل في كل شيء ، ففي الطعام مثلاً نجد من يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطي الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أَكَلَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَاتٍ ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأت العقل للإنسان ليستمريء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠)

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم الملك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض : أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على ألوهية الله . ووجدانيته ، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل من أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أى : عمّن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبي : ٤/٣٣١٤] - بتصرف .

إن لهذا العالم خالقاً إلهياً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صنعه في السماء والكواكب ، وأعجبت بدقة نظام سير تلك الكواكب .

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئي ، وتُبهر بدقة المنظم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(١) (٤٠) ﴿

[يس]

ونحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشمس الأخرى فى المجرات الأولى ، وكل مجرة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

(١) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حثيثين يُسَلِّخُ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجوم والكواكب ؛ فكانها تسبح فى الفضاء . [تفسير ابن كثير : ٥٧٣ / ٣] يتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس^(١) ، وقال عن كوكب الشعري :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾^(٢) (٤٩)

[النجم]

لأن كوكب الشعري أكبر من الشمس.

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبلاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهَش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التي شَقَّتْها حرارة الشمس .

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرين^(٣) في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرين ، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخصب الذي تأخذ منه الأقوات^(٤) .

ولو أن الجبال كلها كانت هشة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

(١) قال الحق سبحانه في سورة الشمس: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس في كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعري) إنه هو النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه في الجاهلية . [تفسير ابن كثير: ٤ / ٢٥٩] .

(٣) الغرين : ما بقي في أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذي يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعي : الغرين أن يجيء السيل فيبث على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب : مادة (غ ر ن)] .

(٤) أقوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى .

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر في كل عام مرة ؛
ليحمل الخصب إلى الأرض .

ومن يتأمل هندسة التكوين في الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت .

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات
لحرث الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد في تجميل الحياة ، وتجد الحديد
مخزوناً في الجبال .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ،
أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور^(١) في الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ،
أو وسيلة للترف فوق الاقتيات .

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصب من الطبقة الهشة^(٢) على
سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للناس ، ففي إفريقيا مثلاً توجد
مناجم للفحم والماس ، وفي بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن
جذور أشجار .

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض
الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية في الخير مع القطاع
المقابل للقطاع الأول .

(١) طمر الشيء : خبأه . ومطمور : اسم مفعول من طمر ، وطمر : إذا تغيّب واستخفى ، والمراد : خيرات
الله المخفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور .

(٢) والشيء الهش الغير متماسك ، وهشم الشيء اليابس هشماً كسره قال تعالى : ﴿ كَهَشِيمِ الْمُخْتَظِرِ
(٣١) ﴾ [القمر] أى : كالحطب والخشب المحطم فى يد المحتظر . أى : صانع الخطيرة [القاموس القويم
ص ٣٠٣ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل في أرض وادي النيل في إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترو) في صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تم حديثاً .

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمن للبترول ، كل ذلك بنظام هندسى أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه . وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ يَعْقُلُونَ ﴾ في مجال النظر في السموات وفي الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادي يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادي في أسفله ، ورأس الجبل في قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادي الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملاً مساحة الوادي المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده في الغرين القادم من منابع النيل ؛ ليأتى إلى وادي النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدهم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهي تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ،
يكتشفها الإنسان ويُعمل عقله في استخدامها .

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبّق المؤمن حكماً تكليفاً
أموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه .

وليُجرب أي مسلم هذه التجربة ^(١) ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً في ضوء
منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يزن نفسه ويُقيّمها ليعرف الفارق بين أول
الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف في هذا الأسبوع أنه يصلّى في
مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه
يصرف ماله في حلال .

زن نفسك يقينياً في آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفّت شفافية
رائعة ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله
في أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً .

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ
منهج الله الشفافية تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : قلنقّض
اليوم بما بقى من طعام أمس ، ثم يُفاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقد
جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ،
فيصله رزق الله تعالى له من أيّ مكان .

وتجد الشفافية أيضاً في أعقد الأمور ، ألم يقل يعقوب عليه السلام :

[يوسف]

﴿ إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ . . (٩٤) ﴾

(١) هذه تجربة التريض الإيماني : فالمسلم الذي تخلى عن المعاصى وتحلى بالطاعات تجلى الله عليه
باليفوضات والنفحات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مطر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميص يوسف ، الذي أوصاهم يوسف بالقاءه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره ^(١) .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش في انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضَارَة بينه وبين الكون .

والمثال الحى لذلك هو فرح الكون لمجيء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسَبِّح لله سبحانه ، فحين يأتي من يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعُصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرّف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٦) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوْهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٧) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْتَدُونِ (٩٨) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن تهتمونى

[يونس]

﴿ .. وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ ^(١) عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ^(٢) ﴾

﴿ ١٠٢ ﴾

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظنون في طغيانهم يعمهون ^(٣) ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذبين السابقين .

ونحن نعلم أن اليوم ^(٤) هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعده الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسّم اليوم إلى ساعات ، وقسّم الساعات إلى دقائق ، وقسّم الدقائق إلى ثوانٍ .

وكلما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوّن من ليل ونهار .

(١) النذر : جمع نذير ، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه .

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا . أى : فما ينتظرون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التي سبقتهم من العذاب والعقاب . [تفسير الجلالين ص ١٨٨] .

(٣) يعمهون : يتحيرون ويترددون في الضلال . قال ابن الأثير : العمّة في البصيرة كالعمى في البصر . [لسان العرب : مادة (ع م هـ)] .

(٤) اليوم : في علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وجمعه أيام . وأيام العرب : وقائعهم . وأيام الله : أيام جلت فيها نعمه وعذابه . القاموس القويم ص

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفَتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرَد»^(١) و«يوم حنين»^(٢) و«يوم أحد» .

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»^(٣) و«يوم أوطاس»^(٤) وكل يوم يمثل حرباً .

إذن : فالיום ظرف زمنى ، ولكن قد يُقصد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش فى أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شىء متوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها .

إذن : فقد يُنسب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا . . (١٠٢) ﴾

[يونس]

(١) ذو قرد: مكان به ماء من أرض نجد، على مسافة يوم من المدينة، مما يلي بلاد عطفان. ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية، أما البخارى فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين، وذكرها بعد الحديبية. انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٨١) ودلائل النبوة (٤/١٧٨ - ١٩٣).

(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة، وقد قال سبحانه فيه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة].

(٣) يوم بُعَاث: هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلئ أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى، فقتل جميعاً. (سيرة ابن هشام ٢/٥٥٥).

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين، وكان فى سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة. وأوطاس: واد فى ديار هوازن، كانت فيه وقعة حنين.

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً .

والله سبحانه هو القائل :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ^(١) وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

[العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مأسى كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر .

ونحن نجد فى العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : «لك يوم يا ظالم» أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناس به .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾

[يونس]

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسعر به . قال تعالى : ﴿ إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ .. ﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. ﴾ [الملك] أى : إعصاراً شديداً يقذفكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك .

وقوله هنا : ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر في هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)

والحق سبحانه قد أنجى - من قبل - رُسُلَهُ وَمَنْ آمَنُوا بِهِمْ ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث التي تعرضُ الناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذى يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خلافاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد فى ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى فى أثناء النوم ، وفى النوم رَدَعٌ ذاتى للألم .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير فى الدنيا .

(١) أى : أن الله سبحانه قد أنجى رُسُلَهُ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَسَيُنَجِّي النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حِينَ تَعَذِّبُ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِينَ . [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف].

وكلما زاد الناس فى الإلحاد زاد الله تعالى فى المدد ، وفى أى بلد يُفترى فيها على الإيمان ويُظلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجدد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .

وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجى المؤمنين فى قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٣) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٤)

والشكُّ^(١) معناه : وضع أمرين فى كفتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها فى كفة ، ويضعوا فى الكفة المقابلة ما يؤمنون به .

ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر .

هم - إذن - فى شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعرّض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أى كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين .

(١) الشك : تقيض اليقين ، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم] . [لسان العرب : مادة (ش ك ك)] .

فإن كنتم في شكٍّ من الدين الذي أنزلَ على رسول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومن معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إن نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجئ الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مرأى^(١) فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾^(٢) ، ولا يوجد من يقدر أو يتأبى على قدر الله سبحانه حين يميته .

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

(١) المرأى ، والممارة ، والتمارى ، والامتراء : الجدل والشك . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تَمَارُ فِيهِمْ إِلَّا مُرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِتُ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٧) ﴾ [النجم] . وكذلك المربة (بكر الميم ، وبضمها) ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ .. (٥٥) ﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ي)] بتصرف .

(٢) يتوفاكم : يميتكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. (٤٧) ﴾ [الزمر] أى : يستوفى مدد آجالهم في الدنيا . [اللسان : مادة وفى] .

وكان لا بُدَّ أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون) ^(١) تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقتاً للعلاقات ^(٢) .

وهذا أول قَطْعٍ للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

(١) نزلت سورة الكافرون في رهط من قريش قالوا: يا محمد ، هلم اتبع ديننا وتبع دينك ، تعبد آلِهتنا ستة ونعبد إلهك ستة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ إلى آخر السورة ، فعدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك . [أسباب النزول - للواحدي ص ٢٦١] .

(٢) أقوال مُفسِّري وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا . فقال البعض منهم البخاري وغيره أن المراد بـ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ [الكافرون] في الماضي و﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون] في المستقبل . وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض . وهناك قول آخر نصره الإمام ابن تيمية ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ [الكافرون] نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون] نفى قوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفى الوقوع ، ونفى الإمكان الشرعي أيضاً . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا

(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فيبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفتحته ، فهرع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان^(١) .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان .. هذه هي القضية الأولى :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرت إلى الأجناس في الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذي سخر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون في خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتي الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتي الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هي قمة الخيبة .

وتأتي القضية الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كان بين سورتي «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت في بداية الدعوة ومحاوله قريش إنشاء رسول الله ﷺ عن الاستمرار في دعوته ، ثم حدثت المفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تم نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿.. وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)﴾ فَإِذَا كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَفِضَ الْعِبَادَةَ لِمَنْ هُمْ دُونَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَنْ يَعْبُدَ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بالألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (١٠٥)﴾ [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً^(١) ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هُمْ أَقْوَى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتن بها الإنسان .

(١) حنيفاً: مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال، إلى طريق الحق وحده.

(٢) الشرك الخفى: هو الرياء وطلب السمعة والصيت. فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ: «إن أخوف ما أتخوف على أمتى الإشراك بالله. أما إنى لست أقول: يعبدون شمساً ولا قمرأ ولا وثناً. ولكن أعمالاً لغير الله، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥).

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ^(١) مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ ^(٢)

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .. (١٢٥) ﴾ [النساء]

والحنف ^(٣) أصله ميل فى الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلتَفَّة ، هذا اعوجاج فى التكوين .

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة .

ولكن : لماذا يأتى مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجىء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عمَّ ؛ فيأتى الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد . وفى هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع فى الشرك الخفى بعد الإيمان بالله تعالى .

(١) الدين : الطاعة والانتقاد والشريعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصرط المستقيم [القاموس القويم - باختصار ص ٢٣٩] .

(٢) الملة (بكسر الميم ، وتضعيف اللام) : الشريعة ، والدين . قال تعالى : ﴿ .. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ .. ﴾ [٧٨] [الحج] : [لسان العرب : مادة : م ل ل] . . بتصرف .

(٣) الحنف فى القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها . ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمِّيَ «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان فى رجله . قال الجوهري : الحنف : الاعوجاج فى الرجل . وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير . وحنف عن الشيء وتحنف : مال . والحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ؛ وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا .. ﴾ [١٧] [آل عمران] . وقيل : الحنيف هو الذى يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين . [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف] .

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

[يونس]

﴿.. وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لى شىء مع الله عملاً .

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لِنَفْسِكَ : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كعلاج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطئ مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

وعلى المؤمن ألا يُفْتَنَ فى أى سبب من الأسباب .

ونذكر مثلاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعت ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ

فإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أن عبد الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكن لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجيء الضر لا يقدر الصنم أن يدفعه .

إذن : فَمَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر .

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ؛ لأن الظلم هو إعطاء حق لغير ذي حق ، سواء أكان في القمة ، أو في غير القمة ^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
وَإِنْ يُرِيدْكَ بِيُخْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه في غنى عن كل خلقه .

ويأتى الكلام عن الضر هنا بالمس ، ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساً» و«لمساً» و«إصابة» .

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المس ، أى : الضر البسيط ، ولا تَقْلُ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد

(١) أى : سواء كان ظلماً في القمة - أى : بالإشراك بالله - أو ظلماً في غير القمة بظلم العباد بأخذ حقوقهم والتعدى عليهم .

يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضرُّ أم كَبُرَ ، وكَثُرَ النفعُ أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أى : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

ومن عظمته - جَلَّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشف عنه ، وهذه هي الرحمة .

ثم يأتى سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده .

ونحن نجد كلمة ﴿يُصِيبُ﴾ فى وَصْفِ مجيء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء من عباده .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة فى قوله تعالى :

﴿.. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٧)﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، وفى الشرجاء به مساً ، ويكشفه ، وفى الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه .

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه ^(١) ؛ ولذلك نجده سبحانه فى آيات النعمة يقول :

﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (١٨)﴾ [النحل]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١) .

(٢) الإحصاء : العدد والحصر .

وجاء الحق سبحانه بالشك ، فقال ﴿إِنْ﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مُظَنَّةُ أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعَدُّ النقود ، وقد يَعَدُّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يَعَدَّ أو يُحصى حَبَّات الرمال مثلاً .

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شكٌ في أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العَدَّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هي ﴿نِعْمَةٌ﴾ ولم يقل : «نِعَمٌ» فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شَتَّى .

إذن : فلن نستطيع أن نَعَدَّ النِّعَمَ المطمورة في نعمة واحدة .

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم في آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿.. وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ^(١) (٢٤)﴾

[إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

(١) ظلوم : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً . وكفَّار : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : الستر ، من ستر الشيء إذا أخفاه . فكأن الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها . أى : سترها وأخفأها ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر .

وَصَدْرَ الْآيَتِينَ وَاحِدًا ، وَلَكِنْ عَجَزَ كُلُّ مِنْهُمَا مُخْتَلَفٌ ، فَفِي الْآيَةِ
الْأُولَى : ﴿ .. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣٤) [إبراهيم]

وفى الآية الثانية : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) [النحل]

لأن النعمة لها مُنعم ؛ ومُنعم عليه ، والمنعم عليه - بذنوبه - لا يستحق
النعمة ؛ لأنه ظلوم وكفار . ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ،
ففى آية جاء ملاحظ المنعم ، وفى آية أخرى جاء ملحظ المنعم عليه .

ومن ناحية المنعم عليه نجد ظلوماً كفّاراً ؛ لأنه يأخذ النعمة ،
ولا يشكر الله عليها .

ألم تَقُلْ السماء : يارب ! ائذن لى أن أسقط كِسْفاً على ابن آدم ؛ فقد
طعم خيرك ، ومنع شركك .

وقالت الأرض : ائذن لى أن أنخسف بابن آدم ؛ فقد طعم خيرك ،
ومنع شركك .

وقالت الجبال : ائذن لى أن أسقط على ابن آدم .

وقال البحر : ائذن لى أن أغرق ابن آدم الذى طعم خيرك ، ومنع
شُركك .

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله
سبحانه رب الجميع يقول : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم
لرحمتموهم ، إن تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إذن: فالحق سبحانه لم يُقصر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفي أن تفكروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر في القوى الذي خلق الكون كله ، بل هي التي تسعى لتطلب أن يرسل لها القوى رسولا بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف أذانهم لما يقول .

إذن: كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»^(١) تبحث عما وراء المادة .

فَمَنْ أَعْلَمَ الْفَلَسَفَةَ - إذن - أن هناك شيئا وراء المادة .

وكان العقل المجرد ساعة يرى نُظْم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول : إن وراء الكون الواضح المحسَّ قوة خفية .

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من

(١) الوكيل : الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم ، والحفيظ الذي يحفظ أعمال الناس . قال سبحانه : ﴿ .. وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنعام] ، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ .

(٢) الفلسفة : لفظ يوناني ومعناه البحث عن الحقيقة . والميتافيزيقا: ما وراء الطبيعة والكون . أي : الغيبات التي لا تخضع لقوانين المادة .

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذى وراء المادة هو الذى يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً ضربنا مثلاً فى ذلك ، وقلنا: هَبْ أَنَا جالسون فى حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ فى الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التى تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعرَّف بالعقل ؛ لأننا ما دُمنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذى يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه .

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل .

إذن: فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن يتقللوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتى بالعقل ، بل بالإخبار .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وأن يأتى

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمد من عُدْم^(١) ،
ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا
خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا
لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكّل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من الربّى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى
ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمْ الْحَقُّ^(٢) مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾

[يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عُدْرَ لأحد أن يقول : « لم يُبلِّغنى أحدٌ بمراد الله » ،
فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصوُّر للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولا
يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن
نقول للرسول بعد أن تصدَّق معجزته : أهلاً ، فأنت من كنا نبحت عنه ،
فَقُلْ لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

(١) العُدْم والعُدْم والعُدْم : فقدان الشيء وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرُّشْد والرُّشْد - الحُرْن والحُرْن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١١) ﴾ [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [يونس] ، والحق ما وجب عليك لغيرك [القاموس القويم بتصرف ص ١٦٤ ، ١٦٥] .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٢٥٩

[يونس]

﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨) ﴾

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهده ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتبهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

[يونس]

﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. (١٠٨) ﴾

وكلمة ﴿ ضَلَّ ﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضلَّ عنها .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) ﴾ [يونس]

وأنت لا توكل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل على فقط مهمة البلاغ^(١) عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً فى نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

(١) وقد ورد تأكيد هذا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِن أَعْرَضُوا فَأْمَأرسلناك عليهم

حفيظاً إن عليك إلا البلاغ .. (٤٨) ﴾ [الشورى] . وقال تعالى : ﴿ .. وما على الرسول إلا البلاغ المبين (٥٤) ﴾

[النور] . فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ ميبناً جلياً واضحاً .

وإذا كان الإنسان متناً يقبل أن يتعب ؛ ليتعلم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره .

أليس على هذا الإنسان أن يقبل على العبادة التي تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة .

أما من يستكثر على نفسه الجِدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلم .

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بسعة الرزق .

وكلما كانت الثمرة التي يريدها الإنسان أبع^(١) وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول .

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما ينتظر من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . (١٠٨) ﴾

[يونس]

(١) أبع : أكثر نُضجاً . واليبع : النضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويتبعه . (٩٩) ﴾ [الأنعام] .

(٢) ضلَّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفى وغاب فهو فعل لازم ، وضلَّ المسافر الطريق مُتَعَدِّ : لم يعرفه . [القاموس القويم ص ٣٩٤ - بتصرف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهي تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملْك ؛ لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس :

﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ

الْحَكِيمِينَ (١١٠) ﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى - النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ^(١) عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) ﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذكر من الأخبار والمواعظ .

ومبلغ الشيء : حدّه ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ .. (٥١) ﴾ [النجم] [القاموس القويم - بتصرف ١ / ٨٣ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هي للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال في الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة .

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتي لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر .

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ ^(١) حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو

[الأحزاب]

اللَّهِ ^(٢) وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ^(٣) ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه :

[يونس]

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. ^(١٠٩) ﴾

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتبع ما يوحى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فوطن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر .

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذي يقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ^(٤) ﴾ [المتحنة] ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ .. ^(٥) ﴾ [المتحنة] .

(٢) ورد الرجاء في القرآن على معان عدة :

- منها : الطلب والأمل في تحقق شيء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ .. ^(٦١٨) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. ^(٦٠) ﴾ [النور] .

- منها : الخوف ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ^(٧) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ نَارٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(٨) ﴾ [يونس] .

ومجىء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعلبك أن
تصبر وتعطى النموذج لغيرك ^(١) ، والثقة فى أنه لو لم يكن هناك خير فى
اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتى حكم الله ﴿ .. وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ
اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١٠٩) [يونس]

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى .

وهذه السورة التى تُختم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان
بالله ، قمة فى عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه
الرب الذى خلق من عَدَمٍ ، وأمدَّ من عُدَمٍ ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور
سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلف يستحق أن يُكَلَّفَ
بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبت من صدق الربوبية .

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى الربى الربى إلى أن يبلغ حدَّ
الكمال المرجو منه .

وقد صدقت هذه القضية فى الكون .

إذن : نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذى خلق ، حين يُبين لنا
مهمتنا فى الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع
الغاية التى يعرفها قبل أن يخطو أى خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضيعه ، بل
لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه ^(٢) ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

(١) يقول سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. ﴾ (٢٥) [الأحقاف] . فالصبر هو اقتداء بالرسول
الأعلام ، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تعجز عنه قدرات البشر ، مثل : نوح وموسى وعيسى
وإبراهيم ومحمد ﷺ .

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٣٦) [القيامة] . قال ابن كثير فى تفسيره
(٤/٤٥٢) : « الآية تعمُّ الحالين . أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى
قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهن فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . »

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحلنا^(١) وغيرنا الأمور ، وأدخلنا العالم في متاهات ، وصار لكل امرئ غاية ، ولكل امرئ منهج ، ولكل عقل فكر ، ولصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد^(٢) يُضعف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذي يجب أن يعالجه .

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً^(٣) في العقيدة ، وتوحيداً في المنهج .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً في مواكب الرسالات ، فذكر لنا في هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى .

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

[يونس]

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾

بلاغاً عن الله تعالى .

وَمَا دُمْتَ تَبْلُغُ ، وَأَمْتِكَ أُمَّةٌ مَحْسُوبَةٌ - إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ - أَنَّهَا وَارِثَةٌ

(١) أحلنا الأمور: حولناها وبدلناها لغير ما وضعت له . وفي اللسان: كل شيء تغير عن الاستواء إلى العوج فقد حال واستحال . ويقال: حال الرجل يحول مثل تحول من موضع إلى موضع . (مادة: حول).

(٢) الأنداد: الأمثال والنظراء .

(٣) الرسالات في جوهرها تسيير بالتوحيد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] .

النبوة ، ولم تُعدْ هناك نبوة بعدك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً .

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذي نزل إليك .

إذن : فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا ^(١) ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أى رسول تفتّر ، وتبهت تكاليفه ^(٢) ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولا ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تُعدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى .

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغُ منهج الله ، وهو أسوة في تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، وغموض تطبيقه حتى لا يكلف الناس فوق ما تطبيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصِرُّ على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض :

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ .. ﴾ (٦)

[فصلت]

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج] .

(٢) أى : يطول عليهم الزمن فتتسى رسالة الرسول ، ويقع فيها التحريف والتبديل والتغيير ، وقد حدث أكثر هذا مع بنى إسرائيل .

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلاً.

ولذلك نلاحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحي ، والمهمة الثانية أن يؤكد سلوكه أنه مقتنع بهذا الوحي ويُطبقه على نفسه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ۗ (٦١) ﴾ [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقل الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبار ، وهو كنموذج سلوكي تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق في أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكون كل عمل صادر منه ﷺ أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومن يبعد في القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بعده .

(١) الأسوة والإسوة: القدوة. ويقال: اتسب به ، أى: اقتدبه وكن مثله. قال الليث: فلان يأتسى بفلان ، أى: يرضى لنفسه ما رضى به ويقتدى به. وقال الهروي: تأسى به: اتبع فعله واقتدى به. [لسان العرب: مادة (أس) ١].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة .

إذن : فالاتباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحي بلاغاً ، واتباع ما يُوحى به تطبيقاً ، وسيطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبايرة المتفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقبل على عقبات فليُعدّ نفسه لتحمل هذه العقبات بالصبر ^(١) .

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون . . يقول سبحانه :

﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ .. (٢٠٠) ﴿ [آل عمران]

أى : إن صبرت ، فقد يصبر خصمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء ، فلو كان العالم مستقيماً الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعدّ نبيه ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَفُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام] .

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصى . وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم . وربطوا أى : جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه . [تفسير الجلالين : ص ٦٤] . وصيغة «صَابِر» من «فَاعِلٌ» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى : شدة الصبر والتحمل . والاستمرار عليه حتى الوصول للهدف .

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليوطن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه في ميراث النبوة ؛ لأن الذي يأتي له الأذى هو الذي يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعي إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده .

ورسول الله ﷺ يقول : «نَصَّرَ^(١) الله امرأ سمع مقالتي فوعاها^(٢) وحفظها وبلغها ، فربَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه»^(٣)

إذن : فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١) [الأحزاب]

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾ (١٠٩) [يونس]

هو دليل على أن الوحي بصدد الإنزال ؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن

(١) النضارة : إشراق الوجه ونوره .

(٢) وعاءها : حفظها ، فكان كالوعاء يعنى ما يوضع فيه ، وإن لم يدرك تفاصيل ما وعاه .

(٣) أخرجه الترمذى في سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٣١) من حديث عبد الله بن

دَفْعَةً واحدةً ، فقد كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ طوال حياته ^(١) .

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هي مقام الاستقبال للوحي .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿ يَحْكُمُ ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدعى أنه على حق ، ثم يأتي مَنْ يفصل في القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عدولاً ، أو يكونون ممن يُدارون فسقهم في ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن في زماننا نرى القوى وهي تختلف ، فنجد القوى من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

(١) أي : كان ينزل مُنْجِماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غَضّاً رطبياً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له تنزُّل آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . راجع الإتقان في علوم القرآن (١/١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هي قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذي يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدَلِّسُ عليه في الشهادة ؛ لأنك إن عمّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمّي على قضاء السماء ^(١) .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حكماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق ^(٢) .

ويطمئنا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم]

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحْمَهَا وَلَا دَمَامُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَوْمَ مِنْكُمْ .. ﴾ [الحج] . فالله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دماؤها . فبين عز وجل أن ما يناله الله منهم هو التقوى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤ بتصرف) .

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ .. وَتَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهَوَىٰ (٤) ﴾ [النازعات] أى : منعها عن المعاصي والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يخرجها عن معناها كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب .. أما المراد به في الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا (١٣٥) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ [١٦] ﴿ [ص] . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .. ﴾ [٤٦] ﴿ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ .. ﴾ [٥٥] ﴿ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ .. ﴾ [٧٧] ﴿ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾ [١١٦] ﴿ [الأنعام] . [لسان العرب : مادة (هوى) - بتصرف] .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٢٧١

أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسن عبادة الخالق سبحانه .

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدلٌ للرسول بعضاً من الأحكام .

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حكماً ، وحين يُنزل الله حكماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حكماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدّل من الحكم .

إذن: فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذي عدل له ليس مساوياً له بل هو خالقه .

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد من يضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عدل له ؟
ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحي تحلى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له ^(١) .

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسعى ليتعلم منه ، فتلهى عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿ عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتفقه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) ﴾ [عبس] . وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿ يسأئها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١٠) ﴾ [التحريم] .

وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لتتجرأ ونجتهد .

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأياً لا ألو^(١) . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور^(٣) ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية^(٤) ، ولا هوى له ، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تُجبر عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر

(١) لا ألو : لا أقصر في اجتهادي وبحتى المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يألو خيراً . أى : لا يبدعه ولا يزال يفصله . ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا ۖ ﴾ [آل عمران] أى : لا يقصرون في فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود في سنته (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندي بمتصل . لا تعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر] : فالله عز وجل يعلم العيون الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غصَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غصَّ ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير في تفسيره (٧٥/٤) .

(٤) يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال] سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارِبٌ بالنهار [الرعد] .

على كل هذا إلا الله سبحانه .

و شاء الحق - عز وجل - أن يكرّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

و واقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس^(١) عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى فى أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ ..فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ويقول تعالى :

﴿ ..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

ويقول تعالى :

﴿ ..رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ [التين]

وكلما وجدت جمعاً أدخل الله ذاته مع عباده عن لهم هذا الوصف ، فهذا يدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

(١) التدليس : الإخفاء والمخادعة بعدم تبيين العيب فى الشيء . ومنه التدليس فى الإسناد بأن يُحدِّث المحدث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه ، بل سمعه عن هو دونه فى المرتبة .

سبحانه وتعالى أزلَى مُطلق الصفات ، وهم أحداث^(١) وأغيار تتايهم القوة والتغير والضعف .

وتجيد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ .. أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

[المؤمنون]

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

[الجمعة]

والرزق هو ما به يُتَّفَع ، وقد يأتي لك وليُّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تتفَع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الرزق في الكون كله .

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾

[آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدارى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء .

إذن : فالخيرية في الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم في بعض الأحكام وعدلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ .

(١) الأحداث : جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمنياً ، وقد يُعبر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً . (التعريفات للجرجاني - ص ٧١) .

ومثال ذلك: قصة زيد بن حارثة^(١) ، وكان مولى أو عبداً لخديجة بنت خويلد^(٢) رضى الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه فى مكة ، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع فى مكة ، كعادة العرب فى الجاهلية مع الرقيق^(٣) ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : « والله إنى لأخيرّه ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فهو لى . » فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ .

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرط فيه ؛ فأعطاه شرف النبوة ، فأسماه زيد بن محمد^(٤) .

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابى ، من أقدمهم إسلاماً ، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمره عليها ، وجعل له الإمارة فى مؤتة ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٥٧/٣) .

(٢) هى : زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً ، وأول من صدقت ببعثته ﷺ ، كانت موصرة ، تاجر رسول الله ﷺ بمالها ، وكانت خير معين له فى رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بنى هاشم من الشعب . راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٦٠/٨ - ٦٢) .

(٣) الرقيق : العبيد ، وقد سُمى العبيد رقيقاً لأنهم يرقون للمالكهم ويدلون ويخضعون . [راجع اللسان مادة رقيق] وقال الجرجاني فى التعريفات (ص ٩٩) : «الرق فى اللغة : الضعف . ومنه رقة القلب ، وفى عرف الفقهاء عبارة عن عجز حكى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . أما إنه عجز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما إنه حكى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحر حساً» .

(٤) وذلك أن حارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام ، فقالا له : يا بن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، وتفكون العاني (الأسير) ، وتطعمون الجائع ، وقد جئتكم فى ابنا عبدك ، فتحسن إلينا فى فدائه ، فقال : أو غير ذلك؟ فقالا : وما هو؟ فقال : أدعوه وأخيرّه ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً ، فقالا له : قد زدنا على التصف ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال : من هذان؟ فقال : هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا عمى كعب بن شراحيل ، فقال : قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما ، وإن شئت أمت معى ، فقال : بل أقيم معك . فقال له أبوه : يا زيد ، أختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فقال : إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى الملاء من قريش فقال : اشهدوا أن هذا ابنى وارثاً وموروثاً . فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يدعى زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [الأحزاب] .

وهكذا رأى النبي ﷺ في التَّبَنَّى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوَّة بالتَّبَنَّى قد تُحْدِث خَلْطاً فِي الْأَنْسَاب ، فالابن بالتَّبَنَّى له حق الزواج من ابنة مَنْ تَبَنَّاهُ ، فكيف نَمْنَعُ عَنْهُ هَذَا الْحَقَّ ، والابن بالتَّبَنَّى قد تحرم عليه زوجة مَنْ تَبَنَّاهُ إِنْ رَحَلَ عَنْهَا أَوْ طَلَقَهَا .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأَنْسَاب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوَّة لكم .

وقال الحق سبحانه في تعديل حكم التَّبَنَّى :

﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ ^(١) عِنْدَ اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب]

وهذا رَدُّ لِحُكْمِ مَنْ رَسُولَ اللَّهِ بِتَكْرِيمِ لِرَسُولِ اللَّهِ ، فما صنعه محمد ﷺ عَدْلٌ وَقِسْطٌ بَعْرُفُ الْبِشْرِ ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأَقْسَطُ والأَعْدَلُ ، فينتهي بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسيبه الفعلي «زيد بن حارثة» .

(١) القسط: العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ .. وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(٤١) [المائدة] . أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (٤١) ﴾ [الجن] .

وحتى لا يؤثر هذا الأمر في نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرّمه لصحابي غيره ، فهو الصحابي الوحيد الذي ذُكر اسمه بالشخص والعلم في القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ^(١) زَوَّجْنَاكَهَا .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة في القرآن تُتلى ويُجهر بها في الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذكراً ثانياً خالداً في القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً في الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه في الدنيا نصرٌ لدين الله ، ومن مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كنبى من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ ^(٢) إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

(١) الوطر: قال الليث: الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة ، فهي وطره . وجمع الوطر: أوطار . وقال الزجاج: الوطر والأرب في اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد: الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة ، فإذا بلغها البالغ قيل: قضى وطره وأربه . [لسان العرب: مادة (وطر)].

(٢) النون: الحوت . وذا النون: لقب يونس بن متى عليه السلام . أى: صاحب الحوت ، وهو الحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه فى البحر .

﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۗ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى في هذا الوسام بقوله تعالى :

﴿ .. وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ۗ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أسدى^(٢) إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً ، حين هداه الله إلى قوله :

﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۗ ۝٨٧ ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغمّ ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دفْعاً .

ولذلك يقال : إن العدو كلما لَطُفَ^(٣) عَنُفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخماً الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعد ، فيجري منه الإنسان أو يختبئ ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإن كان ميكروباً أو فيروساً لا يرى بالعين المجردة ؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً في مهاجمة الإنسان .

إذن : كل مُتعب في الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصص عليك بدقّة ولُطف ؛ فإنك لا تعرف مدخله .

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجيء

(١) غم الشيء يغمه غمّاً : أخفاه وغطّاه وستره .

وغمّه الأمر : أحزنه .

قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۗ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۗ ۝٧١ ﴾ [يونس]

[القاموس القويم - ٢ / ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف]

(٢) أسدى : أعطى ، وأهدى . [لسان العرب : مادة (س دى) .]

(٣) لطف الشيء يلطف : صغّر . [لسان العرب : مادة (ل ط ف) .]

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون^(١) الفيروس في جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطْفَ عَنُفَ .

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام على - كرم الله وجهه - وهو المشهور بالفتيا^(٢) ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعليّ كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حسب ما يراها .

لم يتروَّ على بن أبي طالب ، ولم يقلُّ كلاماً مَسْرُوداً^(٣) بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعداد ، وهذا دليل على أنه مُستَحْضَرٌ للقضية استحضر الواصل . وفرد أصابع يديه وقال :

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض

(١) الكمون: الاختفاء والاستتار. ومنه: الكمين في الحرب. وحزن مُكْمِنٍ في القلب: مُخْتَفٍ. [اللسان: مادة كمن].

(٢) الفتيا: تبين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو الشاب الحدث (الحديث السن) الذي شبَّ وقوى ، فكانه يقوى ما أشكل بيانه فيشب ويصير فتياً قوياً. وأنى المفتى إذا أحدث حكماً. وأفتاه في الأمر: أبانه له. وأنى الرجل في المسألة. واستفتيته فيها فأفتاني إفتاء. قال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَشَدُّ خَلْقًا .. ﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ .. ﴾ [النساء] [١٧٦] أي: يسألونك. وقال تعالى: ﴿ .. قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي .. ﴾ [النمل] [٢٣] . [لسان العرب: مادة (ف ت ي)] - بتصرف .

(٣) الكلام المسرود: الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع أن يستدرك شيئاً على المتكلم ، أو يحفظ منه شيئاً .

يحمل الماء ، والرياح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُّكْرُ يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْرَ ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - الهمُّ .

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب ، فالهمُّ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً في أن قدم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة منجى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذي ألهمه ليونس عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ ..لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعدت «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طيبة» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، فى كل جوانبها المفرعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بيَّتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعماً ومرفقهاً فى كل أمور الحياة ، يجعله عرضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق ^(١) له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفرع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

(١) هو : جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثورى ومالك . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

ولا يُتَعَجَبُ لِمَنْ يَخِيفُهُ شَيْءٌ إِلَّا إِذَا كَانَ عِنْدَ الْمُتَعَجِبِ شَيْءٌ يَزِيلُ الْخَوْفَ .
فَمَنْ عِنْدَهُ صِدَاعٌ يُمْكِنُهُ أَنْ يَعالِجَهُ بِالْأَسْبِرِينَ ، أَمَا الْخَوْفُ فَقَدْ وَصَفَ
سَيِّدُنَا جَعْفَرُ دَوَاءَهُ ، بِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ :

﴿ .. حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١٧٣)

[آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف .

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول : لأن الله سبحانه قال عقبها :

﴿ فَانْقَلِبُوا ^(١) بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ وَقَضَلَ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ .. ﴾ (١٧٤)

[آل عمران]

أى : أن سيدنا جعفرأ جاء بالحِيثِيَّة من نفس القرآن ، وأضاف جعفر
الصادق : «وعجبت لمن اغتمَّ - وهو الموضوع الذي نبهته الآن - ولم يفرغ
إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧)

[الأنبياء]

فإني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨)

[الأنبياء]

وعجبت لمن مكر به كيف لا يفرغ إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤٤)

[غافر]

لأني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

(١) انقلبوا: رجعوا. أى: أنهم لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أرادوا كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم. (ابن كثير ٤٣١/٢).

﴿فَوَقَاهُ^(١) اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ^(٢) بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)﴾

[غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرغ إلى قول الله سبحانه:

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.. (٣٩)﴾

[الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ

[الكهف]

فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)﴾

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس :

[يونس]

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩)﴾

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها:

﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ (١)﴾

[هود]

لأن الوحي كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً.

(١) وقاه الله وقياً ووقاية وواقية : صانه . ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى . ووقاه ما يكزه : حماه منه . وقال تعالى : ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ.. (١١)﴾ [الإنسان] وقال تعالى : ﴿.. وَمَنْ تَوَلَّى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ (٩)﴾ [غافر] [لسان العرب : مادة (وق ي)] .

(٢) حاق : أحاط . والحوق : الإحاطة بالشيء والإطار المحيط به المستدير حوله . قال الليث : الحقيق ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمل به ؛ فينزل ذلك به . وقيل : الحقيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكرهه فعلمه . وقال الزجاج : حاق بهم العذاب أى : أحاط بهم جزاء ما كانوا يستهزئون ، كما تقول : أحاط بفلان عمله وأهلكه كسبه ، أى : أهلكه جزاء كسبه . قال تعالى : ﴿.. فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٧)﴾ [غافر] . وقال تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ.. (٤٦)﴾ [فاطر] . [لسان العرب : مادة (ح وق ، ح ي ق)] .

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبدأ سورة هود^(١) بقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الرَّكَنُ أَحْكَمُ أَيُّنَهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى : أن كل حرف من تلك الحروف يُنطق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه .

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف .

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ في أول سورة البقرة ونقول :

(١) سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب سور القرآن ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وغيرهما . وقال ابن عباس وقتادة : لإلا آية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ۝١١٤ ﴾ [هود] . وعدد آياتها (١٢٣) آية .

سميت باسم نبي الله هود عليه السلام ، الذي أرسل إلى قوم ثمود ، ذكر فيها اسم النبي هود ٥ مرات . وذكر في سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفي الأعراف آية ٦٥ .

قال عنها رسول الله ﷺ : « شيبتي هود وأخواتها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/٣٥٨) .

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله في «نوادير الأصول» : فالفزع يورث الشيب ، وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شعرة منبع ، ومنه يعرق ، فإذا نشف الفزع رطوبته يبست المنابع فبست الشعر فايضاً ، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فايضاً .

فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأحوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، وينشف ماها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به ، فمته تشيب .

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حلَّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولخطاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحقَّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلفظ بهم في تلك الأحيان حتى يقرءوا كلامه . نقله القرطبي في تفسيره (٤/٣٣١٩) .

«ألف . لام . ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿الْم ١﴾^(١) [البقرة]

إذن : فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه :

﴿الْم نَشْرَحُ^(٢) لَكَ صَدْرَكَ ١﴾ [الشرح]

ونحن ننطقها بأسماء الحروف . . لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف .

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى : أن يقرأ الفقيه أولاً ليعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ .

والذى يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارىء للقرآن .

ونقول لهم : إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة نطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف .

وقول الحق سبحانه : ﴿الْم﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلاحظ أنه من العجيب فى فواتح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنى على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصَل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه :

(١) ﴿الْم﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هي : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة . وتحسب آية مستقلة .

(٢) أى : وسعناه معنوياً ، وأزلنا عنه الضيق والهم . والمراد : أرضيناك وسررتلك . أو هو شق الصدر فعلاً حسيّاً . أوهما معاً . [القاموس القويم] .

﴿مُدْهَامَتَانِ^(١) ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ^(٢) ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على الوصل .

وفى آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿.. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك تقرأه منصوباً بالفتحة . وهى موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فواتح السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول : «ألف لام ميم» بل نقول : «ألف لام ميم» .

وكذلك نقرأ فى أول سورة مريم «كاف هاء ياء عين صاد» ، ولا نقرأ الحروف بتشكيلها الإعرابى ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وفى القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص]

وقول الحق سبحانه :

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة خضرتهما وكثرة الظلال وهذا كناية عن النعيم التام (وهو وصف

للجنتين اللتين ورد ذكرهما فى قول الله تعالى فى آية : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن] .

(٢) الآلاء : النعم ، مفردها : إلى أو ألى (بكسر الهمزة ، وفتحها) قال تعالى : ﴿.. فَأَذْكَرُوا آلَاءَ اللَّهِ

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾﴾ [النجم] . [القاموس

القومى - بتصرف] .

(٣) نضاختان : فوارتان بالماء لا يقطعان . ويخرج ماؤهما غزيراً ، ونضّاحة : صيغة مبالغة تدل على

الكثرة .. [تفسير الجلالين : ص ٤٧٠] و[القاموس القومى] بتصرف .

[ق]

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾

وقول الحق سبحانه:

[القلم]

﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾

ونلاحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق

[الشورى]

سبحانه: ﴿ حَمَّ (١) ﴾^(١)

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ عَسَقَ (٢) ﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق

سبحانه:

﴿ كَهَيْعَصَ (١) ﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ طه (١) ﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق: ﴿ يس (١) ﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً: ﴿ الَمْصَّ (١) ﴾ [الأعراف] كآية .

و﴿ طسَمَ (١) ﴾ [الشعراء ، والقصص] كآية .

وتجد أيضاً ﴿ الَمْرَ . (١) ﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل: ﴿ طسَنَ (١) ﴾ ملتحمة بما بعدها في آية

واحدة .

(١) يسطرون: يكتبون . من سطر الكتاب أى: جعله سطوراً.

(٢) ﴿ حَمَّ ﴾: ذكرت في افتتاح سبع سور هي: غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجنائية ، والأحقاف . وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بمعناها . [القاموس الفيوم]. وتسمى الحواميم .

إذن: فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة ، فنفتن إلى عبّر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسّنة ، ويجد الدليل على صدق الله تعالى فيما لم نعلم .

ومثال ذلك : حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن فى كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح» وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر .

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية ، ما إن يدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى يفتح الباب ، وكل غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة واحدة ، تفتح كل غرف الطابق .

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف فى هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى تفتح باب الغرفة ؛ فلن تفتح لك السورة .

إذن : فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطّعة على أنها آية ، أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١) لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الْم ١﴾ [البقرة]

(١) قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [التحل] ، عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها . أورده السيوطى فى الدر المشور (١٦٥/٥) طبعة دار الفكر ، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر .

فينفتح لك باب القراءة .

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً .

وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الر﴾ وهي مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿الم﴾ ، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي : يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر .

ولكن ﴿الم﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا في مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، و تقرأها كآية .

وأيضاً (المص) هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية في سورة الأعراف .

إذن : فليس هناك قانون لهذه الحروف التي في أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد ^(١) ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده » .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ (٢١)

[هود]

(١) قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (٣/ ٢١) : «المختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى . عن عامر الشعبي : أنه سئل عن فواتح السور . فقال : إن لكل كتاب سرأ ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور» .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧) : «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور يحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي : أ ل م ن ه ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر» .

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿ كِتَابٌ ﴾ ومرة يقول :

﴿ قُرْآنٍ ﴾ (٦١)

[يونس]

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدلُّكَ على أن الحافظ للقرآن مكانان: صدور ، وسطور. فإن ضلَّ الصلر ، تذكر السطر.

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائيل جمع القرآن^(١) ، ومطابقة ما في الصدور على ما في السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين في سورة التوبة^(٢) ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو «خزيمة» ، وصدقوا «خزيمة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : «من شهد له خزيمة فهو حسبه»^(٣).

إذن: فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء.

ولم تكن الكتابة في الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه في الأصل مكتوب في اللوح المحفوظ .

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، بعد أن اشتد القتل بقراء القرآن في الغزوات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه وقال له : إنك شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتنح القرآن فاجمهه . فأخذ زيد يجمعه من العسب (هو سعف النخيل) واللخاف (حجارة بيض عريضة رقاق) وصدور الرجال . انظر الإتقان في علوم القرآن (١/١٦٥).

(٢) هاتان الآيتان هما : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٨) فَلَمَّا تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِي اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٢٩) [التوبة].

(٣) أخرجه الحاكم في مستدرکه (١٨/٢) والطبرانی في معجمه الكبير (١٠١/٤) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمي في المجمع (٣٢٠/٤) : « رجاله كلهم ثقات » .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ .. (١) ﴾ [هود]

ومادة الحاء والكاف والميم^(١) تدل على أمر مُحسِّنٌ وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار .

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة فى البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التى فى البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسَّات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ .. (١) ﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام^(٢) ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرت إلى أن القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

(١) أحكم الأمر: أتقنه . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٥٦) ﴾ [الحج] ، أى : يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة ، وآيات محكمة : متقنة مقنعة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا يحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (٧) [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً .. (١٥) ﴾ [محمد] . أى : متقنة . [القاموس القويم] .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٠) : « أحسن ما قيل فى معنى : ﴿ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ .. (١) ﴾ [هود] قول قتادة ، أى : جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أى : نظمت نظاماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل . »

إذن: فالقرآن قد أحكم أولاً ، ثم فصل^(١) .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

[هود]

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ . . ﴿١﴾ ﴾

والفواصل الكبيرة فى القرآن هى السور ، والفواصل الصغيرة هى الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذى جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هى مجموعة من الآيات .

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحكم وفُصِّل ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى .

وحين ننظر إليه تجده مُنوعاً ، فمرة يتكلم فى العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم فى النبوة وموكبها الرسالى ، والمعجزات ، ومرة يتكلم فى الأحكام ، ومرة يتكلم فى القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات . ومرة يتكلم فى علم الفرائض^(٢) .

إذن: فهو مفصل فى اللفظ أو فى المعنى ، وهو يتناول معانى كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة فى الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل .

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فصل حسب الحوادث ، وهذا أدعى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه .

(١) فصل الشيء : جعله أقساماً متميزة واضحة ، قال تعالى : ﴿ .. وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ (١٧) [الإسراء] ، وقال تعالى : ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ .. ﴾ (١٣٣) [الأعراف] أى : معجزات مبيّنة واضحة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ﴾ (٤٦) [الأعراف] .

(٢) الفرائض المعنى بها علم الموارث ، أخذاً مما فرضه الله لكل واحد من أصحاب الفروض .

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتي فيها بكل الأدوية ، لكن إن أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها. أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاثة بيوتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن: فنزول القرآن منجماً شاء الحق - سبحانه - لتتبع النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ^(١) لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ^(٢) وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ^(٣) ﴾

[الإسراء]

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين : فرقناه ، فرقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى فمعناه : فضلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس .

- وعلى القراءة الثانية فمعناه : أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً ، قاله ابن عباس أيضاً . ولهذا قال : ﴿ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ .. ﴾ (١) . أى : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم : ﴿ عَلَى مُكْثٍ ﴾ أى : مهل . ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ أى : شيئاً بعد شيء . تفسير ابن كثير (٦٨/٣) .

(٢) مكث : أقام فى مكانه ، وتفيد التأنى وعدم العجلة . وقوله تعالى : ﴿ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ .. ﴾ [الإسراء] أى : على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمنة متطاولة . وقال تعالى : ﴿ فَمَكْثَ غَيْرِ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتْ بِمَا لَمْ أَحِطْ بِهِ .. ﴾ [النمل] (١٢) : أى : استمر الهدهد فى غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَكْثَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ [الرعد] (١٧) : أى : يبقى مدة طويلة فيها فيزيدها خصباً . وقال تعالى : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴾ [طه] (١٠) : أى : أقيموا فى مكانكم متظرين . [القاموس القويم] .

[الفرقان]

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. (٣٢)﴾

فيكون الرد من الحق سبحانه :

[الفرقان]

﴿.. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنْجَمًا^(١) على الرسول ﷺ ، ليكون في كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ في المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده في حاجة إلى تثبيات متعددة حسب الأحداث التي تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

[الفرقان]

﴿.. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا^(٢) (٣٢)﴾

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التي جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق في هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

[الفرقان]

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التي

(١) منجماً: مرفقاً ؛ لأن القرآن أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبي ﷺ آية آية ، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سنة . [لسان العرب ، مادة : نجم] فنزل القرآن كان منجماً حسب مقتضى حال الدعوة ، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقويم العادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناولت العبادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة في المجتمع .

(٢) رتلناه ترتيلاً: أنزلناه مرتلاً منسقاً مجزئاً حسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور في اللسان : «أى : أنزلناه على الترتيل ، وهو ضد العجلة والتمكث فيه .»

جاءت في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ﴾^(١)

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين: كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

فينزل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا..﴾ (٢٦) [البقرة]

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا: كيف زكّب الحق سبحانه في هذا الكائن الضئيل - البعوضة^(٢) - كل أجزاء الكائن الحي ؛ من محلّ الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب . وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة الصنعة تكون في أمرين : إما ضخامة الشيء المصنوع ، وإما أن يكون الشيء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفيين حين صنعوا ساعة «بيج بن» التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفينيون في «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً في حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى في صناعة الشيء الكبير في الحجم ، أو صناعة الشيء الدقيق جداً ؛ فما بالنابخالق الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

(١) قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأُمَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِفُ النَّاسِ وَالْحُجَجِ..﴾ (١٨٩) [البقرة]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتَلٍ فِيهِ قُلْ قَاتَلٌ فِيهِ كَبِيرٌ..﴾ (٢١٧) [البقرة]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ..﴾ (١٦٩) [البقرة]. وقد وردت في القرآن ١٥ آية تبدأ بـ (يسألونك).

(٢) البعوضة : حشرة صغيرة طائرة لها جناحان دقيقان ، وخرطوم تستقي به الدم ، فهي حشرة لاسعة ضارة ، وهي أنواع كثيرة جداً ، منه ما ينقل أمراضاً مهلكة .

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذباية فيقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾

[الحج]

فلو اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذباية ، أو حتى لو حاولوا هم خَلَقَ ذباية لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر :

﴿ .. وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَقْدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ (١) ﴾

[الحج]

وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴿

فإن جاءت ذباية على أى طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذباية ما أخذته؟

لا ، وكذلك نرى ضعف الاثنيين: الطالب والمطلوب.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ (٢) حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

فالإحكام (٣) لا يتناقض مع التفصيل ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى

(١) الطالب: اسم فاعل . والمطلوب: اسم مفعول . أى: ضعف الإنسان الطالب ، وضعف الذباية المطلوب [القاموس القويم] قال ابن عباس: الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب . وقال السدى وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم . [لسان العرب - مادة: طلب] .

(٢) لدن: ظرف مكان أو زمان بمعنى (عند) مبنى على السكون وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقائية وأدغمت فى نونها مثل قوله: ﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ [الكهف] وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب مثل: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً .. (٨) ﴾ [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين «نا» . قال تعالى: ﴿ .. وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] . وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله: ﴿ لَيْبُدِرْ بِأَسَا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُنشِرِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٢) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم] .

(٣) الإحكام والحكمة فى الشيء قدرة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع ، والتفصيل الوزن وإقامة العدل ، فالإحكام أساس ، والتفصيل بناء ، وهما متلازمان تلازم الحكم مع خيرة الإطلاق .

أحكم ، وهو سبحانه الذي فصل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب
الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .
وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكَمًا لا يتطرق إليه فساد ، وهو
سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٠٦)

[الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن
أدق شيء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرِّبَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١)

[هود]

يبين لنا أن القرآن كلام الله القدير الذي بُنى على الإحكام ، ونزل
مُحْكَمًا جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا
نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هي الغاية من المنهج كله ، وبيئتها
الحق سبحانه في الآية التالية :

﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٢)

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفضلت لغاية هي : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هي طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرفيق بعباده . قال ابن الأثير : اللطيف هو
الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان
مادة : لطف] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٢٩٩

وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تَلَقَّى مِنْهُ أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشَّمْسَ تَلَقَّى مِنْهَا أمراً أو نهياً ؟

إذن: فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج « افعل » و« لا تفعل » لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه :

[هود] ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (٢)﴾

غير قوله سبحانه :

[المائدة] ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٧٢)﴾

ولو أن الرسل أتت الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدمونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٥٩)﴾ [الأعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (٢)﴾ [هود]

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن ينهى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن: فهنا نفى وإثبات ، مثل قولنا: «أشهد ألا إله إلا الله» ، هنا نفى أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، وثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة ^(١) .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [هود]

معناه النفي أولاً للباطل ، وإذا نفي الباطل لا بد أن يأتي إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساس سليم .

ولذلك يقال : «درء ^(٢) المفسدة مقدّم دائماً على جلب المنفعة» فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجه العباداة إلى الله سبحانه .

وما دامت العباداة هي طاعة الأمر ، وطاعة النهي ، فهي - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإن نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل قضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إمطة ^(٣) الأذى عن الطريق ^(٤)

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

(١) لأن الشهادة تكون في قضية وعلى قضية ، فالذي يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير

الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضى ذلك ، فهذا إحكام في المبنى والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ [هود] فقد قصر العباداة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه

ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير .

(٢) درء : دفع وإبعاد . قال تعالى : ﴿ وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ .. ﴾ [النور] أى :

ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقيّة الحكم فى سورة النور فى الآيتين رقمى (٨ ، ٩) . [القاموس القويم] .

(٣) إمطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم . والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شيء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق .

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون

شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» .

أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) دون :

أفضلها ، وأدناها .

إذن: فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دنيئة» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دنيئاً وعاملاً شريفاً.

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛ وقيمة كل امرئ فيما يحسنه .

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أفضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون، وما لم يرد فيه نهى لك الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى المائة من كل أعمال الحياة، ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أوجه الحياة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » (١) .

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين فى هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هى الأعمدة التى تقوم عليها عمارة الإسلام .

وأركان الإسلام هى إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة . -

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهى مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعيماً لرفعة الإسلام .

إذن: فالقاسم المشترك فى الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتى إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

والعَوْلُ^(١)، والرد^(٢)؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً في قضية التورث، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم، وغير ذلك.

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه، نقول له: أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم، وهم أهل الفقه والفتوى، لأنك حين تتعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب، وحين تتعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب، فإن تعرضت إلى أي أمر ديني، فأنت تسأل عنه أهل الذكر^(٣).

وأنت إذا نظرت إلى العبادة، تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت: هَبْ أن إنساناً يصلى، ولا يفعل شيئاً في الحياة غير الصلاة، فمن أين له أن يشتري ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة، وهو إن أراد أن يشتري ثوباً، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً، ويشتري الثوب من تاجر التجزئة، الذي يشتري الأثواب من تاجر الجملة، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع،

(١) العول في اللغة: الارتفاع. وعند الفقهاء: زيادة في سهام ذوى الفروض، ونقصان من مقادير أنصبتهم في الإرث. وهي مسألة تظهر عند حساب الأنصبة، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة في جانب والنقصان في جانب.

(٢) الرد: أى: رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض بنسبة فروضهم، عند عدم استحقاق الغير، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة:

١- وجود صاحب الفرض.

٢- بقاء فائض من التركة.

٣- عدم العاصب.

راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها في كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق، وغيره من كتب الفقه.

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء].

فى الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفحمة ^(١) .

وأهل الذكر أيضاً فى العلوم الأخرى يقضون السنوات لتمية دراساتهم ، كما فى الطب أو الهندسة أو غيرها ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذى يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالتا بالذى يصلح أسس إقامة الناس فى الحياة ، وهو التفقه فى الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. قَلِيلًا نَقَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢)

[التوبة]

فنحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس المواريث ليعرف العصبه ^(٢) وأصحاب الفروض ^(٣) ، وأولى الأرحام ^(٤) ،

(١) الفقه : الفهم ، وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ .. فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٧٨) [النساء] . وقال تعالى : ﴿ قَلِيلًا نَقَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴾ (١٢٢) [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٢) العصبه : هم بنو الرجل وقرابته لأبيه . والمقصود بهم فى المواريث الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباهم المقدرة لهم . وأمثلتهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شىء بعد تقسيم التركة يأخذه بالتعصيب بجانب الفرض الذى فرضه الله له .

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى : نصيب - وهم اثنا عشر : أربعة من الذكور ، وهم : الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج . وثمان من الإناث ، وهن : الزوجة ، والبنت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبنت الابن ، والأم ، والجدة الصحيحة وإن علت ، ولكل منهم نصيب مقدر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصبه . ذهب مالك والشافعى إلى عدم توريثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى توريثهم ، فى حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات .

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف . والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز^(١) شعر الأغنام .

وهكذا تجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلي يقتضى أن تكون مستور العورة في صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل . وانظر لنفسك واسألها : ماذا أفطرت اليوم ؟

وأقلُّ إجابة هي : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التي جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن في مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الجيولوجيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقى الصالح للتصنيع .

وهكذا تجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلي ، فلا تقل : «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة . وإذا لم تنتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلي ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلي .

(١) جز الشعر والصوف : قطعه .

إذن: فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء «افعل» و «لا تفعل»^(١).

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ^(٢) وَبَشِيرٌ^(٣)﴾ [هود]

والنذير^(٤): هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجيء ، لتكون هناك فرصة لتلافي العمل الذي يُوقع في الشر ، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير .

إذن: الإنذار والبشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يجيء .

وفي الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجداً في دراسته ؛ تقول له: إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذي أصبح صعلوكاً تافهاً في الحياة .

(١) افعل : أمر من الأمر وهو الله . ولا تفعل : نهى من الله . والأمر يعطى الفرض والسنة والمستحب . والنهي يعطى الحرام ، والمكروه المسكوت عنه مباح ، هذا هو التكليف الشرعى ، وهو مبدأ الاختيار ، وهذا التكليف الشرعى يندرج تحته الأمر بفعل الخير ، سواء كان تعديداً أو معاشياً ، ومن هنا تعادل موازين العدل الاجتماعى .

(٢) النذير: الذى ينذر الكافرين والمشركين والمعصاة بعذاب الله . وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [البقرة] ﴿١١٣﴾ وقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ [البقرة] .

(٣) البشير: الذى يبشّر القوم بالخبر السار ، وهو هنا بمعنى الرسول الذى يبشّر المؤمنين بشواب الله وجمعه جزاءً على إيمانهم وعبادتهم . قال تعالى: ﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَا بِلِسَانِكَ لُبَشْرِهِ الْمُتَّقِينَ وَتَذَرُّهُ قَوْمًا كُفْرًا لَدًّا﴾ [مريم] . أى: قوماً شديدي الخصومة . وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ...﴾ [البقرة] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٤) النذير: الإنذار والمنذر ، وجمعه نذر . قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ...﴾ [المائدة] والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب ، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر] يحتمل إنذارى ، ويحتمل نتائج إنذارى ، أى عقوباتى التى أنذروا بها ، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً . راجع

إذن: فأنت تنذر ابنك ؛ ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى
الفشل الدراسى .

وكذلك ييشر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذى ينتظره حين
يسلك الطريق القويم .

إذن: فالعبادة هى كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبِعاً
ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل»
و «لا تفعل» فهو مباح .

وعلى الإنسان المسلم أن يُبَصِّرَ نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى
ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل»
ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم
تحريُّ الدقة فى مدلول كل سلوك .

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن
اللازم أن نبين للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير .

ومثال ذلك: حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة
البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ،
وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد .

ويبين الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم
عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو
نذير وبشير من الله .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢)

[هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى .

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة^(١) ؛ لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير أجل أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس .

لذلك بين الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تآبى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

(١) البشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخير السار . والبشير الذى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة ، والرسول بشير ؛ لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وبثواب الله . يقول الحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفتح] ، ويقول الحق : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار .

(٢) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدرأ ، ويُجمع على أمتعة باعتبار ما يُتفجع به وما يُتمتع به . قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء يُتفجع بها . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [الزخرف] . أى : أطلت مدة انتفاعهم بالحياة ونعمها ، ومتعمه ومتعمه بمعنى واحد . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة] أى : متاعاً للمسافرين التاركين ديارهم خاوية . أو متاعاً للجائعين . (انظر : ابن كثير ٤/٢٩٧) .

وهكذا يبين الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه .

هذا هو مطلوب الله من العاصي ؛ لأن درء^(١) المفسدة مقدم على جلب^(٢) المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيقى حياً أم لا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسَمًّى . . . (٣)﴾

[هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه في قوله تعالى :

﴿..فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٢)﴾

[طه]

وقال في موضع آخر :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً

.. (٩٧)﴾

[النحل]

فالحياة الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

(١) الدرء : الدفع والإبعاد .

(٢) الجلب : سَوَّقَ الشيءَ من موضع إلى آخر . وجَلَبَ الشيءَ : طلبه وكسبه . [لسان العرب : مادة (ج ل ب)] .

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض في ظاهره قول النبي ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١). و«إن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل^(٢) فالأمثل^(٣)» .

وقال بعض العلماء : فكيف نقول: ﴿يَمْتَعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا .. (٣)﴾ [هود]

هنا نقول : ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانسباط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِمَ من الثواب .

ونحن نجد في القرآن قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه في سننه (٤١١٣) من حديث أبي هريرة . قال النووي في شرح مسلم (٣٠٥/١٨) : «معناه : أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من نقصان . وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد» .

(٢) الأمثل فالأمثل : أى الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة . يقال : هذا أمثل من هذا ، أى : أفضل وأدنى إلى الخير . وأمائل الناس : خيارهم . [لسان العرب - مادة : مثل] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/١) والترمذى في سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبي وقاص . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وتام الحديث : «ويُبتلى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ، ليس عليه خطيئة» .

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشقاء ^(١) .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رجله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تُقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقِّدًا» أى : مادة تُخدره ، وتغيب به عن الوعى ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال :

إنى لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاض عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفئوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء .

إذن : فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صحبه موسى ليتعلم منه : ﴿ فإنتلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا ﴾ (٧٦) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ (٧٥) ﴿ [الكهف] . ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح : ﴿ .. سأنتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ (٧٨) أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ (٧٩) وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ (٨٠) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ﴾ (٨١) ﴿ [الكهف] .

ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة ^(١) قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعامل كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم في بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثاني :

حالنا في بلادنا إن أعطينا شكرنا ، وإن حُرِّمنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب في «بلخ» ^(٢) أي : أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثاني العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا ^(٣) ، وإن حُرِّمنا شكرنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش في منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

(١) قال الشيخ : « ذل البلاء خير من عزة النعماء »

(٢) بلخ : مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر .

(٣) أي : إن نالنا العطاء فإننا نوثر غيرنا به . أي : نفضلهم على أنفسنا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿ يَمْتَعِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا .. (٣) ﴾

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن .

ومثال ذلك : هو التلميذ الذى لا يترك كتبه ، بل حين يأتى وقت الطعام ، فهو يأكل وعيناه لا تفارقان الكتاب .

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنُه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

[هود]

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾

أى : يؤتى كل ذى فضل مجزول^(١) لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه ينمى الفضل للعبد .

ومثال ذلك : الفلاح الذى يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليبذره فى الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أى : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف .

(١) الجزل : الكثير العظيم من كل شئ ، والجزل الكريم المعطاء [المعجم الوسيط : مادة (ج زل)] .

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ^(١) عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق .

إذن : فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويفيضاها عليهم ، فهي تزيد عنده لأنها تربو^(٢) عند الله ، وإن لم يُفِضْها على الغير فهي تنقص .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّرَبُّو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾^(٣) [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. ﴾^(٤) [هود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذى يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذى نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطى كل صاحب فضلٍ فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل .

(١) أسبغ : أنعم وأجزل العطاء . وسبوغ الشيء : تمامه واتساعه . [المعجم الوسيط : مادة (س ب غ) بتصرف] . وقال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. ﴾^(١) [لقمان] .

(٢) ربا الشيء ، يربو : زاد و نما . وأربيته : نميته .

(٣) أضعف الرجل : نما ماله وزاد واتسع ، فصار أضعافاً . واسم الفاعل مُضعف : ﴿ .. فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾^(٣) [الروم] أى : الذين يأخذون ثواب أعمالهم أضعافاً مضاعفة . قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/ ٤٣٤) : «أى : من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والشعمى ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نُهي عن رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَنَّوْا نَسْتَكْتِرُ ﴾^(٤) [المدثر] . أى : لا تمنعوا العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان : فرباً لا يضح ، يعنى : ربا البيع ، ورباً لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّرَبُّو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ .. ﴾^(٣) [الروم] وإنما الثواب عند الله فى الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المظنة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

أى : إلى الله مرجعكم ^(١) فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة .

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار .

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط .

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة .

(١) المرجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ .. ﴾ [٥٥]

[آل عمران] أى : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴾ [يونس] .

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان في ضنك^(١) العيش وقلق النفس .

ويؤتى الحق سبحانه كل ذي فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل ؛ وفقه الله فيما يستقبل على طاعته ، والذين أعرضوا يخاف عليهم من عذاب يوم كبير .

[هود]

﴿ .. وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ۞ الْإِنَّمِ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ الْأَجِينَ^(٢)
يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ^(٣)
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥ ﴾

(١) الضنك : ضيق العيش . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ۝١٦٤ ﴾ [طه]

قال ابن كثير في تفسيره (١٦٨/٣) : «فلا طمأنينة له ، ولا إنشراح لصدوره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تعتم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة» .

(٢) يتنون صدورهم : يطوونها على عداوة المسلمين ، ويكفون لهم البغض والكراهية .

(٣) الاستخفاء : طلب الخفاء والاختفاء . ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى ، وهو سبحانه

لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ ۝٥ ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٣ ﴾

[الأحزاب] .

(٤) يستعشون نياهم : يتغطون بها مبالغة في الاستخفاء . [كلمات القرآن] .

(٥) ذكر الواحدى فى «أسباب النزول» (ص ١٥٣) أن هذه الآية نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً

حلو الكلام حلو المنظر ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، ويطوى بقلبه ما يكره .

وقال الكلبي : كان يجالس النبي ﷺ يظهر له أمراً يسره ، ويضمّر فى قلبه خلاف ما يظهر .

وإذا وجدت «ألا» في أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذي تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذي تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجيء الكلام الذي تقوله ، وقد تهيأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

ف «ألا» - إذن - هي أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذي ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذي يملك زمام الموقف ، وهو يهيئ ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع^(١) .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [هود]

ويقال : ثنيت الشيء أى : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثنى الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

(١) وردت ألا في القرآن على أوجه :

الأول : التنبيه ، فندل على تحقق ما بعدها ، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ .. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة] ، ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. ﴾ [هود] .

الثاني والثالث : التحضيض والعرض ، ومعناهما طلب الشيء ، لكن الأول طلب بحث ، والثاني طلب بلين ، وتختص فيهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ .. ﴾

﴿ [التوبة] ، ﴿ .. أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور] .

انفعال مواجيد^(١) النفس البشرية ينضح على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تفضح مواجيدهم الكارهة .
ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا^(٢) ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾
[نوح]

ومن البدهاة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأغملة^(٣) تسد فقط فتحة السمع ، وعدل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يدخل إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أى دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا^(٤) فِيهِ .. (٢٦) ﴾
[فصلت]

فكانهم تواصلوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن

(١) مواجيد: مفرد موجدة . وقد وجد فلان وجداً: حزن أو غضب . والمراد: انفعالات النفس البشرية .

[المعجم الوسيط: مادة (وج د)] بتصرف .

(٢) استغشوا ثيابهم: تغطوا بها كي لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطي في (الدر المنثور) (٢٨٩/٨) طبعة دار الفكر .

(٣) الأغملة: عقدة الإصبع أو سلامها . وهي أيضاً: المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر . والجمع: أنامل . [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)] .

(٤) اللغو: ما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه: اتوا باللغو والباطل عند قراءته [كلمات القرآن]: قال ابن عباس: بالتصغير والتخليط على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٢١/٧) وعزاه لابن أبي حاتم .

لو تنهى^(١) إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتي للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟
ولكنه الغباء في العناد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. ﴾ (٥)

[هود]

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التي تحملها هذه الوجوه^(٢) ، وهي انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد ينفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يُظهر الانفعال .

إذن: فالانفعال قد يكون قسرياً^(٣) ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحية بيت النبي ﷺ ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعى كل منهم أنه إنما مرّ على بيت النبي ﷺ مصادفة^(٤) .

وفي ذلك يقول الشاعر :

(١) تنهى : بلغ ووصل . الإنهاء : الإبلاغ . أنهيت إليه الخير : أبلغته له . (لسان العرب - مادة : نهى) .
(٢) قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حتى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأضمر في نفسه همه . ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) .

(٣) قسرياً : أي خارجاً عن إرادة الإنسان .

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرباً ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رأيكم بعض سفهاتكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . (سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥) .

اذكُرُوهُمْ وَقَدْ تَسَلَّلَ كُلُّ
بَعْدَ مَا انْفَضَّ مَجْلِسُ السُّمَّارِ^(١)
اِخْتِلاَسًا يَسْعَى لِحِجْرَةِ طَهَ
لَسْمَاعِ التَّنْزِيلِ فِي الْأَسْحَارِ^(٢)
عُذْرَهُمْ حُسْنُهُ فَلَمَّا تَرَاءَوْا
عَلَّلُوهَا بِبَارِزِ الْأَعْدَارِ

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا في نفس الآية بـ «ألا» في قوله:

﴿.. أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

[هود]

الْصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

فهم إن داروا على محمد ﷺ ، فهل هم قادرون على المداراة على رب محمد ؟ والذي لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به .

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شيء ، ولكن الحق سبحانه يُحصي ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطيء ؛ لأنه يعلم السر والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة^(٣) ، وهي ذات في كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿.. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٤) ﴿٥﴾﴾

(١) السمار : هم الناس يسرون بالليل ، ويكون عادة في ضوء القمر .

(٢) الأسحار : جمع سحر ، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال تعالى : ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات] .

(٣) عليم : صيغة مبالغة من العلم ، أي : بالغ العلم لا حد لعلمه سبحانه .

(٤) الصدر : مقدم كل شيء وأوله ، وصدر الإنسان معروف ، وبداخله أضلاعه وقلبه وورثاه . وفي الصدر تظهر آثار الانفعال انقباضاً في الحزن وانشراحاً في السرور ، قال الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح] وقال : ﴿.. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] أي : بالأسرار المصاحبة للصدور [القاموس القويم باختصار] .

نجد فيه كلمة ﴿ذَاتٍ﴾ وهي تفيد الصحبة ، و(ذَاتِ الصُّدُورِ) أى : الأمور المصاحبة للصدر.

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التى انتهت إليها، وصارت حقائق ثابتة، وعليها تدور حركة الحياة. ويُقصد بـ ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: المعانى التى لا تفارق الصدر، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة.

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى: صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكأن الجرم^(١) نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواتره من باب أولى معلومة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

(١) جرم كل شئ: جسمه . والمقصود القلب البشرى نفسه .

(٢) الدابة: اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ .. ﴾ (١٦٤) ﴿ البقرة ﴾ تشمل الإنسان وغيره ، وكذلك قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ .. ﴾ (٢٥) ﴿ الشورى ﴾ ، الدابة تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقله . أما قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٦٥) ﴿ العنكبوت ﴾ ، الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (وإياكم).

(٣) مستقرها: موضع استقرارها فى الأصلاب أو فى الأرحام ونحوها . ومستودعها: موضع استبداعها فى الأرحام ونحوها ، أو فى الأصلاب . [كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد مخلوف .

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتي بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يشنون صدورهم .

وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها، وبين أنه عليم بكل شيء .

وقال سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

[هود]

وْمُسْتَوْدَعَهَا .. ﴿٦﴾

والدابة: كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف الخاص

للدلالة على أي كائن يدب على الأرض غير الإنسان .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ

[الأنعام]

أَمْثَالِكُمْ .. ﴿٢٨﴾

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه شغل - حينما

كُلف - بخواطر عن أهله ، وتساءل: كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك

أهلي؟

فأوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره

الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ،

فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك^(١) شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال: إن

الذي رزق هذه في ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلي على ظهر

(١) لآك الشيء يلوكه لوكاً: مضغه. [اللسان: مادة (ل و ك)].

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعي ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت ^(١) ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة .

إذن: فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالزواج .

ولذلك نقول دائماً: يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية ويتنفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللکافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدد ويكده في الأخذ بالأسباب .

إذن: فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون في العبادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا .^(٢)

(١) القوت: ما يمسك الرمح من الرزق . وفي الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [لسان العرب: مادة (ق و ت)] .

(٢) وأصحاب المنهج الذين قاموا به وعليه ، يقول الله في حقهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣١) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٣٢) نَزَلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٣﴾ [فصلت]

سُورَةُ هُودٍ

وفى هذا تحكّم منك فى الشهوات ، وارتقاء فى الاختيارات ، أما فى الأمور الحياتية الدنيا ، فعطاء الربوبية لكل كائن ليستبقى حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

[هود] ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ۗ ۙ ﴾ (٦)

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هى على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

[هود] ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۗ ۙ ﴾ (٦)

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر: هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعلمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شىء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤): «الرزق حقيقته ما يتغذى به الحى، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك، لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها، وهكذا الأطفال ترزق اللبن، ولا يقال: إن اللبن الذى فى الثدي ملك للطفل .
وقال تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ۗ ۙ ﴾ [الذاريات] وليس لنا فى السماء ملك، ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه» .

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتي لك سفر للخارج ، وتترك قمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود]

أى: أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتي على بالك تفعله ، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتي أفعالك وفقاً لما كتبه .

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شيء ، ثم يأتي كل ما فى الحياة وفق ما كتب .

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرى^(١) عن رسول الله ﷺ الوحي ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ .

ثم يأتي الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كتبت ، ويأتي كل نجم من القرآن فى مكانه الذى قاله النبى ﷺ لصحابته ، فكيف كان يحدث ذلك ؟
لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ :

﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) التسمية: انكشاف الوحي عنه ﷺ ، بما فيه من شدة نودى إلى أن يتصبب رسول الله ﷺ عرقاً .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّا لَنَكْفُرُ بِمَبْعُوثِكُمْ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات في ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها في أقل من طرفة عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشيء ، وطرح مكونات إيجاد الشيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الزبادى» ، فهو يضع جزءاً من مادة الزبادى - وتسمى «خميرة» - فى كمية مناسبة من اللبن الدافىء ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادى ، وبعد مضى أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادى بالفعل .

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهى أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها تأتى بكلمة «كن» .

أو كما قال بعض العلماء : إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات فى ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن

(١) العرش فى اللغة : سرير الملك . وقد سمي سبحانه سرير ملكة سبأ بالعرش ، فقال سبحانه : ﴿ .. وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل] . وعرش البارئ سبحانه لا يحد ، ذكره رب العزة فى كتابه (٢١ مرة) مضافاً إليه سبحانه .

(٢) ليلوكم : ليختبركم ، وهو أعلم بأمركم .
أحسن عملاً : أطوع لله وأروع عن محارمه . [كلمات القرآن] .

آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٧) ﴾ [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا: إنها ثمانية أيام ، وهي قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ^(١) ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي ^(٢) مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ^(٣) فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ^(٤) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ ^(٥) سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. (١٢) ﴾ [فصلت]

(١) الند: المثل والنظير. وجمعه: أنداد. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا .. (٢٢) ﴾ [البقرة] أي: أمثلاً شركاء. تعالى الله عما يقولون [القاموس القويم] بتصرف.

(٢) رسا الشيء يرسو رسواً: ثبت ورسخ، وأرساه: جعله ثابتاً راسخاً، وأرسي السفينة: ثبتها على الشاطئ فلا تسير. والمراد بالرواسي: الجبال لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تميل. قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (٣٦) ﴾ [التازعات]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) الأقوات: جمع قوت. وهو ما يمسك الرمق من الرزق. وفي الصحاح للجوهري: هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. [اللسان - مادة: قوت].

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١) ﴾ [فصلت]. الدخان: بخار الماء المتصاعد منها حين خلقت الأرض. ذكره ابن كثير في تفسيره [٤/٩٣].

(٥) فقضاهن: خلقهن. فالقضاء هنا بمعنى الخلق. وهي من الكلمات التي تأتي على وجوه كثيرة من المعاني ، ومن معانيها:

الفراغ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ .. (٢٠٠) ﴾ [البقرة].

الأمر: ﴿ وَإِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا .. (١١٧) ﴾ [البقرة].

العهد: ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص].

الوصية: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَاقُ .. (٢٢) ﴾ [الإسراء].

وهنا قال بعض المستشرقين: لو كانت هذه هي قصة الخلق للأرض
والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل.

وقال أحدهم: لنفرض أن عندي عشرة أرادب من القمح، وأعطيت
فلاناً خمسة أرادب وفلاناً ثلاثة أرادب، وفلاناً أعطيته إردين، وبذلك
ينفذ^(١) ما عندي؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال.

وإدعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال.
ولم يفتنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى، وهو يكلم أناساً لهم ملكة
أداء وبيان وبلاغة وفصاحة؛ وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون.

هم فهموا، كأهل فصاحة، أن الحق - سبحانه وتعالى - قد خلق
الأرض في يومين، ثم جعل فيها رواسي وبارك فيها، إما في الأرض
أو في الجبال، وقدر فيها أقواتها، وكل ذلك تنمة للحديث عن الأرض.

ومثال ذلك: حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا في
ساعة - مثلاً - وإلى الإسكندرية في ساعتين، أي: أن ساعة السفر التي
وصلت فيها إلى طنطا هي من ضمن ساعتى السفر إلى الإسكندرية.

وكذلك خلق الأرض والرواسي وتقدير القوت، كل ذلك في أربعة أيام^(٢)

(١) نفذ - يتفد نفداً ونفاذاً: فنى وذهب وانقطع ولم يبق، من النفاذ، وهو الانتهاء. وقال تعالى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ .. ﴾ [النحل].

(٢) اليوم: في علم الفلك الحديث مقدار دوران الأرض حول محورها مرة، ومدته أربع وعشرون ساعة تقريباً، وجمعه أيام. وأيام العرب: وقائعهم الحربية. وأيام الله أيام حكمت فيها نقم الله وعذابه على الأمم الماضية العاصية، وأيامه التي أنعم فيها على أم مطيعة صالحة.

ويوم الدين: يوم القيامة. ويوم حنين: حدث فيه موقعة حنين. واليوم عند الله مقداره يختلف عن اليوم عندنا فأحياناً يكون ألف سنة، ولكل نجم يومه، ولكل كوكب يومه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج]. وقد يكون المقدار خمسين ألف سنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ .. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج]، وبهذا التقدير نفهم معنى قوله تعالى في خلق السموات والأرض: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴾ [فصلت] فالله أعلم بمقدار هذين اليومين. [القاموس القويم - بتصرف]

متضمنة يَوْمَى خَلَقَ الْأَرْضَ^(١) ، ثم جاء خلق السماء فى يومين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهى أن الذى أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك فى أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربى ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها .

ولكن حين نجىء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذى خلقها ، وهى لمن ادعاها إلى أن يظهر معارض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء :

﴿ لِيَلْوَكُمْ^(٢) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٧) ﴾ [هود]

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلبس فى القرآن» ص ٣٧٣ : «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تنمة أربعة أيام ، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» .

(٢) بلوت الشيء - أبلوه بلواً وبلاء : امتحنته واختبرته ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ؛ لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . وقوله تعالى : ﴿ هَذَا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠) ﴾ [يونس] أى : نعرف حقيقة عملها الذى قدمته كما يعرف المختبر الشيء الذى يختبره . وقوله تعالى : ﴿ .. وَتِلْوُ أَخْبَارِكُمْ (٣٦) ﴾ [محمد] . أى : نعرف صدقها من كذبها . ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره ؛ تمهيداً للشواب أو العقاب . [القاموس القويم] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٦٣٢٩

أى : ليختبركم أيكم أحسن عملاً^(١) ، ولكن من الذى يحدد العمل ؟
إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟

لا ، فالله سبحانه يعلم أولاً كل ما يأتى من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد
بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أولاً ؛ حجة عليهم .
وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧)

[هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ،
فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها^(٢) من قبل أن تمر على تفكيرهم .
فلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحال منطقياً أن
يقولوها .

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من
بعد الموت .

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ تلا : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. ﴾ (٧) [هود] . قال : «أيكم أحسن عملاً ،
وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » أورده القرطبي فى تفسيره (٤/٣٣٢٧) والسيوطى فى
الدر المنثور (٤/٤٠٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بنحوه .
(٢) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره ، وقيل : هو إذا لم يهتم أصاب أم أخطأ ، وقيل : إذا تهاون به .
وقال ابن الأثير : العواهن أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام ، جمع عاهنة . وعهن الشيء : أى :
أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل ، من خطأ وصواب . أى : عدم التفكير فى الكلام قبل التلفظ به
والقاؤه على علاقته . [اللسان : مادة (ع ه ن)] يتصرف .

وهذا كلام إخبارى بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا:

﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧)

[هود]

والخبير الذى يقوله لهم هو خبير ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكأن النص نفسه من السحر الذى حكموا به على القرآن .

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر فى القرآن الكريم دليله منطقى مع القول ؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - فى عرفهم - قد سحر القوم الذين اتبعوه .

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له فى عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته ؛ بنفس الطريقة التى سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحروهم جميعاً .

وقولهم: ﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧)

[هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ تعنى : سحراً محيطاً بكل من يريد سحره .

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ ﴾^(١)
 ﴿ مَا يَحْسِبُهُمْ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾^(٢)
 ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾^(٣) ﴿ ٨ ﴾

وساعة تجد ﴿لَئِن﴾ فافهم اللام الأولى التي بعد «و» إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره : « والله لئن » .

والقسم يأتي لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتي لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تُقسم لإنسان تلقاه وتقول له : والله لقد كنت عند فلان بالأمس . .

(١) الأمة : اسم مشترك ، يقال على ثمانية أوجه :

- ١- فالأمة تكون الجماعة ، كقوله : ﴿ وَجَدَّ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ .. ﴾ [القصص] .
- ٢- والأمة : أتباع الأنبياء عليهم السلام .
- ٣- والأمة : الرجل الجامع للخير الذي يُقتدى به ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا .. ﴾ [النحل] .
- ٤- والأمة : الدين والملة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ .. ﴾ [الزخرف] .
- ٥- والأمة : الحين والزمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ .. ﴾ [هود] .
- ٦- والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه .
- ٧- والأمة : الرجل المنفرد بدينه وحده ولا يشركه فيه أحد . قال النبي ﷺ : « بيعت زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده » .
- ٨- والأمة : الأم . يقال : هذه أمة زيد ، يعني : أم زيد .

[راجع تفسير القرطبي (٤/٣٣٢٧) ، ولسان العرب] .

(٢) أمة معدودة : إلى أمد معدود أي : أجل محدد . والأمة في هذا الموضع : الأجل والحين . وقال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أَنْتُمْ بِتَأْوِيلِهِ .. ﴾ [يوسف] .

(٣) يحسبه : يمتعه .

(٤) حاق بهم : نزل بهم ، وأحاط بهم . وقال تعالى : ﴿ .. وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر] .

[مختصر تفسير الطبري] بتصرف .

إذن: فالقسم يأتي لشك طراً^(١) عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء .
ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .
والقرآن الكريم يقول هنا:

﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ .. (٨) ﴾ [هود]

فالواو هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ،
والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب .

وإذا اجتمع الشرط والقسم في بلاغة الأسلوب تكتفى بجواب واحد ،
مثلما نقول: «والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا» .

وهكذا يُعنى جواب القسم عن جواب الشرط . والمتقدم سواء أكان قسماً
أو شرطاً هو الذي يعنى جوابه عن الآخر .

مثلما نقول: «والله إن جاء فلان لأكرمته» ، فالقسم هنا متقدم ، وأعنى
جوابه عن جواب الشرط . وإن قلت: إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا
الشرط هو المتقدم .

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ،
فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - نأتى بجواب
الشرط فوراً ، مثلما نقول: «زيد والله إن جاءك أكرمه» ؛ لأن الشرط كما قلنا
تأسيس ، والقسم تأكيد، ويرجح هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من
التأكيد .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ ﴾ [هود]

(١) طراً الشك: حدث ووقع في عقل السامع مما يستدعى من المتكلم أن يقسم على ما يقول ليصدقه سامعه .

والجواب هنا للقسم ، وهو يغنى عن جواب الشرط .
أى : أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استئصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف^(١) به الأرض .

فكان مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضل أمة محمد ﷺ على الأمم كلها ، وأن تعذب الكافرين فى المعارك .

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، فلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء^(٢) ليكون لهما معنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم^(٣) ؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التى يعيش فيها

(١) قال عز وجل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت] ، أما الذين عذبوا بالخاص - وهى الريح العاتية الشديدة البرد الحاملة لحصياء الأرض - فهم قوم عاد .
أما ثمود فقد أخذتهم الصيحة ، وأما من عوقب بالخسف فهو قارون ، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما .

(٢) الإملاء : الإرجاء والإمهال . قال تعالى : ﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف] . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليُملئ للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) البر والصلة .

تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد.

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه .

ولذلك أقول دائماً:

إن من دواعى استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس مع المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم .

ولكن لو استحضر الناس - وقت العقوبة - ظرف الجريمة ؛ لفرحوا بالحكم على القاتل بالقتل .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول :

﴿ .. وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

[النور]

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذي شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشفى .

وهنا يبين الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتكم بالعذاب . ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا: أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم :

(١) طائفة: جماعة. قيل: ثلاثة. وقيل: أربعة، عدد شهود الزنا. والمراد بالعذاب في هذه الآية الكريمة هو حد الزنا لغير المحصن. وتام الآية ﴿الرَّائِبَةُ وَالرَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) [النور].

[تفسير الجلالين] بتصرف.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا ^(١) قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (١٦) [ص]

والقط: هو جزاء العمل ، وهو مأخوذ من القط أى: القطع .

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة .

ومن العجيب أن منهم من قال :

﴿ ..اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣٢) [الأنفال]

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(٢) .. ﴾ (٩٢) [الإسراء]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحدياً وسخرية واستهزاء .

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ .. ﴾ (٣٢) [الأنفال]

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة

(١) قطنا: أى: نصيبنا من العذاب الذى أوعده . [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف]. وقط الشيء وقططه: قطعه . [المعجم الوسيط].

(٢) كسفاً: قطعاً . [مختصر تفسير الطبرى] و[كلمات القرآن].

والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح الفاء): القطعة من الشيء . والجمع: كسف، وكسّف . وقد قرئت كسفاً بفتح السين، وقرئت بتسكينها . [المعجم الوسيط: مادة (ك س ف)].

التي تمكنهم من مجابهة^(١) الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحتمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك في سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا ^(٢) أَنْ يَلْبِغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ^(٣) فَتَصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ ^(٤) يَغَيِّرُ عِلْمٌ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ^(٥) لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٦) ﴾ [الفتح]

أى : لو تميّز الكافرون عن المؤمنين لسلّط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذي كان في الحديبية على مكة ، ودارت هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المشورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين في جهة بحيث يوجه المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين ^(٦) ،

(١) المجابهة : أى : المواجهة والرد على الخصوم . وقد جبهه : أى : صك جبهته ، أو قابله بما يكره ، أوردّه عن حاجته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهدى : البدن التي ساقها الرسول ﷺ لتتحرر عند الحرم ، وهو من مناسك الحج . ومعكوفاً : محبوساً ومنوعاً عن الوصول إلى مكان النحر وهو الحرم . [تفسير الجلالين وكلمات القرآن] بتصرف .

(٣) تطّوهم : تهلّكهم مع الكفار .

(٤) معرّة : مكروه ومشقة أو سبّة .

(٥) تزيّلوا : تميّزوا من الكفار في مكة . [كلمات القرآن] للشيخ مخلوف .

(٦) لذلك قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضُرِبَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُوا لَا تَقُولُوا لِمَنْ آمَنَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَيَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ^(٩٤) ﴾ [النساء] .

ومن أسباب نزول هذه الآية أن المقداد بن الأسود قتل أعرابياً قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه ، وقتلته ، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبله » أوردّه ابن كثير في تفسيره (٩٤ / ١) وعزاه للبخاري . وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٣٣ / ٢) للدارقطني في الأفراد والطبراني من حديث ابن عباس .

وهذا ما لا يريد الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ .. (٨) ﴾ [هود]

والأمة : هي الطائفة أو الجماعة من جنس واحد ، مثل أمة الإنس ، وأمة الجن ، وأمة النمل . . . وغير ذلك من خلق الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا ^(١) فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

والأمة : طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد ، وأفرادها متساوون في كل شيء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة . وهناك الأمة : الطائفة من الزمن . مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ ^(٢) بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

أى : أن هذا الذي تذكر بعد فترة من الزمن ، وقد تكون الفترة المسماة «أمة» ، هي الزمن الذي يتحمل جيلاً من الأجيال .

الأمة - إذن - هي جماعة وطائفة لها جنس يجمعها ، ولها تميزات فردية ، وهي تلتقى في معنى عام .

(١) ما فرطنا: أى : أن الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء أكان برياً أو بحرياً . قاله ابن كثير في تفسيره (٢/١٣١) .

(٢) ادكر: أصلها اذتكر . على وزن افتعل ، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً ، وأدغمت الدالان . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) ﴾ [القمر] .

فأمة الإنسان هي حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات في المواهب .

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة .

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص في كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد في مجال ؛ ليخدم غيره فيه ، وغيره يتخصص في مجال آخر ويخدم الباقين ، وهكذا .

وفي هذا تكافل اجتماعي ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق .

ولو عرف واحد كل الحرف التي في الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟ لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضلاً من أحد على أحد .

والذي يكتسب الشارع أو يعمل في تنظيف الصرف الصحي لا يفعل ذلك تفضلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل في تلك المهنة .

وإذا أخلص في عمله فالله سبحانه يحبه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل في هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته .

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل في هذه المهنة ، ويحمل الأقدار على كنفه ، وحين وسَّع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما ينزجه من تلك المجارى .

وحين وسَّعَ اللهُ عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسي ، ويدير «موتور» نزح المجارى لداخل خزان السيارة المخصص لذلك .

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هي التي فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترام قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يستنكف^(١) ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ يقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم .

ونحن نعلم أن قيمة كل امرئ فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

[الزخرف]

سُخْرِيًّا^(٢) .. ﴿ ٢٢ ﴾

(١) الاستكفاف : الاستكبار والامتناع وأن تأخذ الأنفة من فعل الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهُ جَمِيعًا ﴾ [النساء] .

(٢) سُخْرِيًّا : مسخرًا فى العمل ، مستخدمًا فيه . [كلمات القرآن] أى : يستخدم بعضهم بعضًا فى الأعمال المختلفة حسب إجادة كل منهم لها . وقد جعل الله تعالى ذلك سببًا للمعاش فى الدنيا ؛ ليرابط الناس ويتألفوا ، ولا ينمزل كل منهم بعيدًا عن الآخرين فتفسد الحياة .

لأن أحداً لا يسخر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخر في حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل: ألا تحتاج إلى سائق؟ ألا تحتاج إلى خادم؟

وصاحب الحاجة هو الذى يعرض نفسه؛ لعله يجد العمل الذى يتقنه.

ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخدم ، لا .. إنه يخدم حاجة نفسه .

وهكذا تترايط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ^(١) .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس .

وكلمة « أمة » تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَئِن أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ^(٢) .. (٨) ﴾ [هود]

وعادة ما تأتى كلمة ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ لتنفيذ القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه:

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل] قال: الأمة معلم الخير ، والقانت: المطيع لله . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٩٠).

(٢) أمة معدودة: طائفة من الأيام قليلة . [كلمات القرآن].

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(١) (٢٠)

[يوسف]

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والسبب في فهمنا لكلمة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقْبَلُ على عَدِّ شَيْءٍ إِلَّا مِظَنَّةً أَنَا قَادِرُونَ عَلَى عَدِّهِ ؛ لأنه قليل ، لكن ما لا نُقْبَلُ على عَدِّهِ فهو الكثير .

ومثال ذلك : أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ..﴾ (٣٤) [إبراهيم]

و«إن» - كما نعلم - تأتي للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مِظَنَّة الحصر .

ورغم أن البشرية قد تقدمت في علوم الإحصاء فهل تفرِّغ أحد ليُحصى نعم الله ؟

طبعاً لا .. وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين في أى مجال أو تخصص .

وقديماً^(٢) كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنييه معاً ، والورق من فئة العشرة جنييهات

(١) شروه : باعوه . قيل : هم السيارة (القافلة) تبايعوا يوسف - عليه السلام - بثمن بخص : قليل . وقيل : حرام ؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه . وكانوا فيه من الزاهدين : قيل : هم السيارة كانوا فيه زاهدين ، لا يعلمون كرامته على الله تعالى ونبوته . [مختصر تفسير الطبري] .

وذكر الجلالان في تفسيرهما أن «بخص» أى : ناقص . وأن الدراهم المعدودة عشرون أو اثنان وعشرون درهماً . وأن إخوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين ، فجاء به السيارة الذين اشتروه إلى مصر ، فباعه الذى اشتراه بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين . [تفسير الجلالين] بتصرف .

(٢) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أن كان وكيلاً للدعوة بوزارة الأوقاف .

معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً في الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التي حصروها في الكيلو جرام الأول .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلَئِن آخَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ .. ﴾ (٨) [هود]

كانهم يتساءلون سخرية واستهزاء : لماذا يتأخر العذاب الذي توعدّهم به رسول الله ﷺ ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم .

ويأتى الرد عليهم بأداة التنبية ، وهي «ألا» أى : تنبّهوا إلى هذا الرد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا ^(١) عَنْهُمْ .. ﴾ (٨) [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتى ، ولكن العباد دائماً يعجلون .

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٨) [هود]

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء : أولها : «ألا» وهي أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذى يخبر به هو الله سبحانه وتعالى .

(١) ليس مصروفاً : ليس مدفوعاً . [تفسير الجلالين].

[هود]

﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. (٨) ﴾

أى : أنه عذاب مستمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

[هود]

﴿ .. وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾

يعنى : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل .

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتى التعبير عنه بالفعل الماضى ^(١) ؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

[النحل]

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾

وكلمة «أتى» فى عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : «نجح محمد» فهذا يعنى أن النجاح قد حدث بالفعل .

(١) هنا التعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ؛ لتحقيق الوقوع ، وقد يُعبّر

بالمضارع عن الماضى لتخفيف الحدث ، كما فى قوله تعالى عن مقالة إبراهيم لابنه إسماعيل : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ

فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١١٧) ﴾ [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا

تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴾ [النحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية .

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع ، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة ؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب في أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة ، فيقول ابنك الشاب: دعني أحملها لك ، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها في زمن يناسب قوته .

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا. فهو لن يحمل الحقيبة إلا في مقدار زمن يناسب قوته ، وهي قوة ضعيفة .

إذن: ففي المجال البشرى أنت تحكم على الماضي ، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً ، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل ، لا تستطيع أن تحكم عليه ؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً .

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن في المستقبل ، ولا عائق يعوقه ، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة .

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى ، ولا شيء في الكون يتأبى^(١) على الله سبحانه .

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى ، فهو آت لا محالة .

(١) أبى الشيء : ياباه من باب فرخ - إباء وإبابة : وأبى الشيء يأبئه - من باب ضرب - امتنع عنه وكرهه ولم يرضه . قال الحق سبحانه : ﴿ فَسَجَدُوا لِإِبْلِيسَ أَبَى .. ﴾ [٢١] ﴿ [البقرة] وقوله : ﴿ فَأَيِّنَ أَنْ يَحْمِلَهَا .. ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ الْإِنْسَانَ بِمَا كَفَرَ .. ﴾ [التوبة] ويتأبى يمتنع . القاموس القويم بتصرف .

ولذلك قال سبحانه :

[هود]

﴿ وَحَاقَ بِهِم .. (٨) ﴾

مع أن السياق في العرف البشرى أن يقال : وسيحقيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب .

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَحَاقَ ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أى عائق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا لِلإِنسَنِ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ

إِنَّهُ لَيَشُورُ كُفُورًا ^(١) ﴿١﴾

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿ وَلَئِن ﴾ وهذا يعنى أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول : لئن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع فى اليأس .

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم .

وكلمة ﴿ أَدَقْنَا ﴾ توضح أن الإذاعة محلها الأول الفم ، ومعناها : تناول الشيء لإدراك طعمه : حلوا أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، قلوى أم حامض .

ومن العجيب فى دقة التكوين الإنسانى أن كل منطقة فى اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان يتفعل لطعم معين ، ووسط اللسان يتفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل لطعم ثالث ، وهكذا .

(١) يشور : صيغة مبالغة من اليأس . أى : يظلم يائساً قانطاً من رحمة الله وخيره . وكفور : صيغة مبالغة من الكفر أى : قليل الشكر على النعم ، وكفران النعم هو جحدها وعدم شكر الله عليها . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

كل ذلك في عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة في التركيب .

وكل «حلمة» من مكونات اللسان لها شيء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول : إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحلوى - مثل الكنافة - فيقول : إن السكر المحلاة به مضبوط .

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول : إنها حرارة طبيعية . وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال : إنه مصاب بالهبوط . وإن ارتفعت يقال : مصاب بالحمى .

وهذا قياس للحرارة بالجلمة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها . ولكن كل عضو في الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدي عمله .

فالكبد إن قلت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدي مهمته . وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات . وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنسانى .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ . . . (٩) ﴾

[هود]

والذوق هو للإدراك^(١) ، لا للأكل ، فأنت حين تشتري فاكهة يقول لك البائع : «تفضل ذُق» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال الوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشيء لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالذوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه .

والنعمة ^(١) حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُنزع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس .

والنعمة مهما قلّت فالإنسان يستطيعها ، وإن نُزعت منه فهو يثوس كفور .

واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك الثقل ، ولو كان يقدر عليه لما يئس .

والمؤمن لا ييأس أبداً ؛ لأن الله سبحانه هو القائل :

﴿ .. إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحٍ ^(٢) اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه .

والذى ييأس هو الذى ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول : «إن الله سيُعوضنى خيراً منه» .

أما الذى لا إيمان له بياله فهو يقول : «إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى» .

(١) نَعْمٌ يَنْعَمُ فهو ناعم ، من باب فرح ، ويأتى من باب كرم ، نعمة ونعمة بفتح النون وكسرهما . ونعيماً كأن فى رغد من العيش ، وفى تمتع به . والنعيم ما يتلذذ به من مأكّل وملبس وصحة ، يقول الحق : ﴿ .. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤) ﴾ [يونس] أى : التى فيها كل نعيم . والنعمة بالفتح : النعيم ، وتطلق على ما يتمتع به الإنسان من وسائل الرفاهية . يقول الحق : ﴿ وَقَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. (١٧) ﴾ [المزمل] فى الدنيا ، والنعمة بكسر النون . مصدر بمعنى النعيم . وتطلق على المتاع والخير الذى يتمتع به الإنسان يقول الحق : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. (١٨) ﴾ [النحل] القاموس القويم . بتصرف .

(٢) روح الله : رحمته وفرجه ، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم . [كلمات القرآن] بتصرف . واليأس هو انقطاع الأمل ، ولا يتقطع أمل الإنسان فى الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان كافراً .

فالإِنسان الذى يُسْرِقُ منه جنيته قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده فى المنزل عشرة جنيهاً فهو يحزن قليلاً على الجنيه المفقود .

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريد ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريد فلا تجده يائساً قانطاً .

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلِّبت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة^(١) .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً . . (٩) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم - عليه السلام - وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر .

وهنا تأتى كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن فى موضع آخر حين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ^(٢) (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . (٣) ﴾ [العصر]

[العصر]

و«الإنسان» مفرد يدل على الإنسان فى كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به . .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم .

(١) عن صهيب الرومى قال قال رسول الله ﷺ : «عجياً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) .

(٢) الخسر : الهلاك والنقصان .

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو فى خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى ليتبه الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هى التى تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن الساهين عن استكشاف آيات الله تعالى :

﴿وَكَايِن مِّنْ آيَةٍ^(١) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

والباحث العلمى التجريبي المعملى ينظر فى ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التقاءات الكون ، ولكن الدين والخلق هو الذى يوجه حب الاستطلاع .

(١) وكاين : بمعنى «وكم» . وآية هنا : عبرة وحجة ، كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله سبحانه وتعالى ، يرونها ويعاينونها ولا يفكرون فيها . [مختصر تفسير الطبرى] .
وقد أخرج أبو الشيخ الأصبهاني عن الضحاك فى تفسير معنى الآية : يعنى شمسها وقمرها ونجومها وسحابها . وفى الأرض ، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤/٥٩٣) .

إذن: فالقارئ لها مهمة يجب ألا تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلى من الغرائز ويوجهها إلى مهامها .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ^(١) .. ﴾ (١٧)

[الحجرات]

أى: لا تتبعوا العورات ^(٢)؛ لأننا لو أبخنا لواحد أن يتتبع عورات الناس ؛ لأبخنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته .

وحيث منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبُّع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبُّع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ ^(٣) .. ﴾ (٩)

[هود]

وكلمة «الترع» تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والترع يعنى: استمساك المنزوع منه بالشيء المنزوع .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

[آل عمران]

تَشَاءُ .. ﴾ (٢٦)

(١) لا تجسسوا: أى: لا تتجسسوا، حذف منه إحدى التاءين - لغرض بلاغى - والمراد: عدم تتبُّع عورات الناس ومعانيهم بالبحث عنها . [تفسير الجلالين] بتصرف .

(٢) العورة: ما يستره الإنسان من جسمه حياءً . والعورة: الخلل والعيب . والبيت عورة: أى فيه خلل . وقوله: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ .. ﴾ (١٧) [الأحزاب] أى: فيها خلل يخشى أن يدخل الأعداء منه ، وذلك ليرجعوا عن الجهاد . القاموس القويم باختصار .

كأن الموجود في الملك يتشبه به جداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا ^(١) مِنْهُ إِنَّهُ لَيُتُّوسٌ كَفُورٌ ^(٢) ﴾ [هود]

وفي نفس السورة يأتي الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ^(٣) ﴾

[هود]

وسأتى لها بالخواطر من بعد ذلك .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - في المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة

واليتُّوس الكفور:

﴿ وَلَئِن أَدَقَّنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ^(٢)
 ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ^(٤) ﴾ ^(١)

وهنا نجد الضراء هي الموجودة ، والنعماء هي التي تطرأ ، عكس الحالة

الأولى ، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هي الموجودة .

(١) المقصود الرحمة التي أنعم الله بها عليه .

(٢) النعماء : أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان ، فتكون ملازمة له .

(٣) الضراء : أثر الفقر والشدة . وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ [البقرة]

. وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ .. ﴾ [الأنعام] .

ومسته : أصابته . [تفسير الجلالين ومختصر تفسير الطبري] بتصرف .

(٤) السيئات : المصائب والشدائد والعسر .

(٥) فرح : صيغة مبالغة من الفرح ، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن] .

(٦) فخور : صيغة مبالغة من الفخر ، أي : كثير الفخر بما نال من الناس ، وفخور على الناس بما أوتي ، وغير

شاكراً لله تعالى على نعمه . [مختصر تفسير الطبري ، وتفسير الجلالين] بتصرف .

فالنزع في الأولى طراً على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضراء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تنتعم به النفس .

لكن التمتع والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أى منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضراء» .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي . . (١٠) ﴾

[هود]

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المذهب الذي أذهب السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عنى السيئات .

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يغرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ .. إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) ﴾

[هود]

وكان الفرح بالنعمة أذهله ^(١) عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فتحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب ^(٢) ، وقد تجد

(١) الذهول عن الشيء : أن يشغلك عنه أمر آخر . ذهل عن الشيء : تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل . [اللسان ، مادة : ذهل] .

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهى كرم الفعل . وكريم المناقب : حسن الخلق كريم الفعال . [اللسان] بتصرف .

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر .
ونحن نعلم أن التمييز لفرد ما يوجد في المجتمع ، ولكن أدب الإيمان
يفرض ألا يفخر الإنسان بالتمييز .

ولذلك نجد النبي ﷺ يقول : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(١) .

وفي إحدى المعارك نجده ﷺ يقول :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٢) .

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين في تلك المعركة
ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٣) وكان أقرب المسلمين إلى
مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم .

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين ، واحدهم يدخل على الآخر بصوت
ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧٦/٥) من حديث أبي هريرة . وعند
الحاكم في مستدرکه (٦٠٤/٢) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : «أنا سيد ولد آدم
ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة .

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب ، لا إلى أبيه عبد الله ، فقد كان عبد المطلب مشهوراً
شهرة ظاهرة شائعة ، وكان سيد أهل مكة ، وكان مشتهراً عندهم أن عبد المطلب يُشْرُ بالنبي ﷺ ، وأنه
سيظهر ، وسيكون شأنه عظيماً ، فأراد النبي ﷺ تذكيرهم بذلك وتنبههم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على
الأعداء ، وأن العاقبة له لتقوى نفوسهم . نقله النووي في شرحه لصحيح مسلم (٣٦٠/١٢) .

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب : أفررت عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء : ولكن رسول
الله ﷺ لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنما لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكبنا على الغنائم
فاستقبلونا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ
بلجامها ، وهو يقول : «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» .

أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث
البراء بن عازب .

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولرد كل شيء إلى الواهب .

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ ^(١) عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صورته القرآن في قول قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ^(٢) عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِى .. (٧٨) ﴾ [القصص]

وكان مصيره هو القول الحق :

﴿ فَخَسَفْنَا ^(٣) بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ولذلك قلنا : إنك تحصن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها : « بسم الله ما شاء الله » ؛ لتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التي عندك .

(١) المقصود ما فعله الخضر عليه السلام من : حرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار الذى كان سينهار .
(٢) أوتيته : أى : اكتسبته . يقصد المال الذى رزقه الله إياه ، ولكن قارون ادعى أن علمه هو الذى جلب له المال ، فكفر بنعمة الله عليه ، فابتحق عقاب الله .

(٣) الخسف : خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتغور يقول الحق : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] . وخسف القمر : نقص نوره ، وخسوف الشمس يقع فى أواخر الشهر العربى فى أيام المحاق ، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب القمر الشمس ، فإن كان الحجب كلياً كان خسوفاً ، وإن كان جزئياً كان خسوفاً . وجاء فى اللسان الخسف : سؤخ الأرض بما عليها أى : ابتلاعها ما فوقها . وخسف الله به الأرض أى : أغابه فيها . القاموس القويم باختصار .

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا في قوله سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴾ (٤٨) [يونس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأتفه الأسباب ، والملازم له ، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى ^(١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١١)

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾ ^(٢) هنا موافقة للأمرين اللذين سبقا في الآيتين السابقتين ، فهناك نزع الرحمة ، وكذلك هناك «نعماء» من بعد «ضراء» ، وكلا الموقفين يحتاج للصبر ؛ لأن كلا منا مقدور للأحداث التي تمر به ، وعليه أن يصبر للمحظية بحكمة القادر سبحانه .

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء ، فقال جل وعلا :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا .. ﴾ (١١) [هود]

(١) فقال عن قوم موسى قالوا لقارون : ﴿ .. لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ (٧٦) [القصص] أي : الأشرين البطرين الذين لا يعترفون بنعمة الله عليهم . وقال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. ﴾ (٤٢) [الحديد] .

(٢) والذين صبروا ماضياً ، وصابروا حالاً ومستقبلاً هم أهل الفلاح مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢٠٠) [آل عمران]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل - كل البشر - ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حنُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها ^(١) .
والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

* أمر لا غريم ^(٢) لك فيه كالمرض مثلاً .

* أو أن يكون لك غريم في الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حالة الرغبة في الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة عدم وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأتى الصبر حسب هذه المراحل ،
فسيدنا لقمان يقول لابنه :

(١) ويكون الصبر مطلوباً أيضاً عند امتناع النعمة امتحاناً لإيمان المؤمن فعن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : « ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » متفق عليه ، أخرجه البخارى في صحيحه (٦٤٧٠) ومسلم في صحيحه (١٠٥٣) كتاب الزكاة .

(٢) الغريم : الذائن ، والمدين . والجمع : غرماء . والمراد بالغريم هنا : الخصم أو العدو . [اللسان ، والمعجم الوسيط] بتصرف .

﴿ .. وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(١٧) [لقمان]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٤٣) [الشورى]

وفى هذه الآية «لام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ؛ لأن لى فيها غريماً يثير غضبى .

فساعة أرى من ضربنى أو أهانتى أو سرقنى أو أساء إلىَّ إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة .

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحق سبحانه يكتفى فقط بالقول الكريم :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. ﴾^(١٧) [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٤٣) [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾^(١١) [هود]

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إياك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

(١) والصبر : إما صبر على المأمورات أو صبر على المحذورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن توافرت فيه هذه المقامات كان من أهل العزم . وعزم الأمور معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها . [تفسير الجلالين].

صارفاً لك عن نشاطك في طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعنى أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك في الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلِّك وحقدك ، بمعايشة الإيمان الذى يُخفف من غلِّواء الغضب .

ولكسر حدة الغلِّ أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل فى حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل :

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾

[البقرة]

ولكن هناك القادر على التحكم فى نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ ^(١) .. (١٣٤) ﴾

[آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامى ، مثلما تقول : «كظمت القربة» لأن حامل القربة لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلَّت الماء منها ، أى : أنه يحبس الماء فيها .

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتى مرحلة أرقى ، وتمثل فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾

[آل عمران]

(١) الكاظمين الغيظ : الحاسبين غيظهم فى قلوبهم . [كلمات القرآن].

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «من كظم غيظاً ، وهو قادر على أن ينفضه ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء» أخرجه أحمد فى مسنده (٤٤٠ / ٣) وأبو داود فى سننه (٤٧٧٧) والترمذى فى سننه (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣) وقال : حسن غريب .

أى : أن تُخرج الغيظ من قلبك وتسامح .

إذن : فأنت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن تردّ الاعتداء عليك بمثله ، والمثلية في رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعك صفقة ، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم في الصفعة التي تردها إليه ؟

إن المتحكم في ردّ الاعتداء هو الغضب ، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يتحقق العدل المطلوب ؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى :

[النحل]

﴿ .. وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾

فإن أزدت من قوة صفعتك تكون معتدياً .

ولعلنا نذكر مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير ، وبطلها هذا التاجر اليهودى الذى أقرض رجلاً مالا ، وكان صكّ القرض يفرض أن يقطع اليهودى رطلاً^(١) من لحم المقترض إن تأخر فى السداد .

وتأخّر المقترض فى السداد ، وأراد المرابى اليهودى أن يقطع رطلاً من لحم المقترض ، وعرض الأمر على القاضى ، وكان القاضى رجلاً حكيماً ، وأراد أن يصدر حكماً يتلمس فيه العدالة ، فقال القاضى : لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل ؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان ؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت وبنفس السكين ، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

(١) الرطل : معيار يوزن به أو يكال ، يختلف باختلاف البلاد ، وهو فى مصر اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية اثنا عشر درهماً . والجمع : أرطال . [المعجم الوسيط] .

وتردّد المرابي اليهودي ؛ لأن الجزار - أي جزار - لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة .

وانسحب المرابي اليهودي وتنازل عن دعواه ، والذي دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً في مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم .

والحق سبحانه وتعالى يحضنا ^(١) على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولنكن من العافين عن الناس ^(٢) ؛ لننال محبة الله تعالى ؛ لأنه سبحانه يقول :

﴿ ..وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٢٤) ﴾

[آل عمران]

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدى عليه هو الذي يُحسن .

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقياً أو اقتصادياً ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(١) الخض : الخث والتشجيع على فعل شيء . [اللسان] بتصرف ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٢) وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) ﴾ [الحاقة] .

(٢) عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له البيان ، وترفع له الدرجات ، فليعف عن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه » أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٢٩٥) عن أبي بن كعب وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قال الذهبي : « فيه أبو أمية ضعفه الدارقطني وإنحاق لم يدرك عبادة » .

سُورَةُ هُودٍ

٦٣٦١

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ^(١) أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ^(٢) .. ﴿٢٢﴾﴾ [النور]

فإن أساء ^(٣) أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟

إذن : فما دُمت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقه ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ^(٢) .. ﴿٢٢﴾﴾ [النور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

(١) صفح عن رجل : أعرض عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذه بذنبه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٥﴾ [التغابن] . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ [الحجر] . [اللسان] بتصرف .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ [النور] .

وقد نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر الصديق الذي حلف أن لا يعطي ابن خالته مسطح بن أثانة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به في حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بحادثة الإفك . فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر : والله إنى أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . راجع تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٥) وأسباب النزول للواحدي (ص ١٨٥) ط . المكتبة الثقافية .

(٣) أساء إساءة : فعل السوء ضد أحسن ، وأساء العمل لم يحسنه ، والمسيء اسم فاعل من أساء ، والمسيء الفبيح ، والمنكر ، والسيئة : مؤنث السيء بمعنى القبيح . والسوءة : ما يقبح إظهاره وينبغي ستره « القاموس القويم » باختصار .

ولو اقتصصت أنت من أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشق ؛ لأنك تركته إلى قوة القوى . وهكذا ينال العافى عن المسيء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله - سبحانه وتعالى - في جانبه .

وهناك من يقول : كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعلل ذلك بأنه أمر ضد النفس .

ونقول : إن الإحسان إلى المسيء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً^(١) أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقى إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاعات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك - ولله المثل الأعلى ومرتبة سبحانه عن كل مثل - إن أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولدًا من أولادك قد اعتدى على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدى عليه .

ومن يقول : كيف يكلّفني الشرع بأن أحسن إلى من أساء إليّ ؟

نقول له : تذكّر قول الحسن البصرى رضى الله عنه^(٢) : «أفلا أحسن لمن جعل الله في جانبي» .

ولو طبّق العالم هذه القاعدة بيقين وإخلاص لصارت الحياة على الأرض جنة معجّلة ، التسامح ، قوامها القرب ، ومنهجها الحب .

(١) لأن التكليف إلزام ، والعفو من الفضل ، وفي التعامل بالفضل ارتقاء .

(٢) هو : الحسن بن يسار البصرى ، أبو سعيد ، تابعى ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء النساك . ولد بالمدينة ٢١ هـ ، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب ، كان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم ، سكن البصرة وتوفى بها عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً .

سُورَةُ هُودٍ



وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)

[هود]

وإن تساءل أحد: ولماذا ينالون المغفرة ؟

نقول: لأنهم صبروا وغفروا ؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده ، لأنه صبر على الإساءة ، وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يُشبهه الله تعالى ، لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً. ^(١)

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ
صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)

وهنا نجد الحق سبحانه يأتى بصيغة الاستفهام فى قوله تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾ (١٢)

[هود]

وهو استفهام فى معرض النهى .

ولله المثل الأعلى - أنت قد تقول لابنك لتحثه على الاجتهاد: «لعلك

(١) ومغفرة الله فى مقابل صبر العبد وغفرانه لإساءة المسىء محدودة بحدود طاقة البشر، أما غفران الله فيه شمول الكرم وغفو الحكيم ؛ لأن عفوه مصحوب بالأجر، والأجر كبير من أكبر وهو الله سبحانه .

(٢) وكيل : قائم به حافظ له [كلمات القرآن] . والوكيل : الحافظ الأمين والناصر المعين . قال تعالى : ﴿ ..

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ .. قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٦)

[الأنعام] أى : حافظ .

سُررت من فشل فلان» وفَحَوَى ^(١) هذا الخطاب ، استفهام فى معرض النهى ، وهو استفهام يحتمل الرجاء .

وهنا تجدد أن الراجى هو ربك - سبحانه وتعالى - الذى أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه مُبَيَّنًا: لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذى تلح دائماً فى التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشر ^(٢) ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ما أقررت على نفسك ، فأنت لم تقل أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف النواميس ^(٣) ، بل أنت مُبَلِّغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزل إليك ؛ لأن البلاغ هو الحجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرك منهم ، وأنقصت البلاغ الموكل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بأية كذبوها ، فاعلم أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذبوا .

(١) فحوى القول: مضمونه ومرماه الذى يتجه إليه القائل . والجمع: فحاو ، وفحاوى . [المعجم الوسيط].

(٢) أكد رسول الله ﷺ على هذا المعنى فى أحاديث شريفة كثيرة جداً :

- منها حديث رافع بن خديج قال : قدم نبي الله ﷺ بالمدينة ، وهم يأبرون النخل ، يقولون يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً فتركوه ؛ فنفضت . قال : فذكروا ذلك له ، فقال : «إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ، فإنما أنا بشر» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) كتاب الفضائل .

- وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : «إنما أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأبى أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها له ظهوراً وزكاة وقرية يقربه بها منه يوم القيامة» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٣) .

(٣) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

وكلمة «ضائق»^(١) اسم فاعل ، ويعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول : «فلان ناجر» أى : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة «ضائق» وهى تعبر فى مرحلة لا أكثر من قَرُط ما قابلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كَنْزٌ .

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكنز ؛ ليدلنا على مدى ما عندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركزت فى المال ؛ ولذلك تمنّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾^(٢) (٣١)

[الزخرف]

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواتمها ، طلبوا أن ينزل إليه كَنْزٌ ، وقد ظنوا أن الثراء سيلهيه هو ومَنْ معه عن الدعوة إلى الله تعالى

(١) الضيق (بالكسر والفتح للضاد وسكون الباء) ضد السعة ، فى الماديات والمعنويات .

واسم الفاعل ضائق ، قال تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ (١١٧) [هود] وقوله : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

(٧٧) [هود] . أى : وجد ضيقاً فى صدره ، ومنه : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (٣٧) [الحجر] ، وقوله : ﴿ ..وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٢٧) [النحل] وقرئ بفتح الضاد وبكسرها .

والمعنى : ولا يضيّق صدرك بسبب مكروهم . (القاموس القويم باختصار) .

(٢) المراد بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن

مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال

ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان » .

ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل^(١).

وهكذا وضع لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكثر لا تشغله ﷺ .
والكثرة^(٢) - لغويًا - هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية - مثلاً -
مليئة باللحم يقال لها : « مُكْتَنَزَةٌ لِحْمًا » ولكن كلمة « الكثر » أطلقت على
الشيء الذي هو ثمن لأي شيء ، وهو الذهب .
ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

[التوبة]

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٣٤) ﴿

(١) ذلك أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في
المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها
فنعطيه أيها شاء ، وكيف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى
رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة (الشرف) في العشيرة والمكان
في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به
آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل
منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع . قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما
جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً
موردناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . . . حتى إذا فرغ عتبة ،
قال له ﷺ : « أفد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل ، فقال : ﴿ حَمَّ
(١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [فصلت] . ثم مضى
ﷺ فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع
منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : خللوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون
لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن نضبته العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب
فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . [من سيرة النبي لابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ -
بتصرف] .

(٢) كثر المال يكنزه كثرًا : جمعه وادخره . قال تعالى : ﴿ .. هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ

(٣٥) ﴿ [التوبة] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ (٣٤) ﴿ [التوبة] والضمير راجع إلى الفضة لقربها في الذكر ، ولأنها أقل قيمة ، فمن يبخل بها
يبخل بالذهب من باب أولى . [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تنتفع به ، طعاماً أو شرباً ، وهناك شيء يأتي لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُغنى عن الرزق المباشر المستمر^(١) .

فلو أن إنساناً في صحراء ومعه قناطر^(٢) مقلّطة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة "كنز" هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا في مصر : «نقود تحت البلاطة» ، ولكن إذا أدى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما ادَّخره ، لا يُعتبر كنزاً ؛ لأن الشرط في الكنز أن يكون مخفياً ، والزكاة التي تُخرج من المال المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفي ما عنده .

ولذلك لا يُسمَّى الكنزُ إلاَّ للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإنَّ أدَّى حقَّ الله سبحانه فقد رُفِعَتْ عنه الكنزية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

[التوبة]

(١) الرزق المباشر ما تقتضى به الحوائج بسيولة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الحوائج بصعوبة الحاجة والضرورة .

(٢) قناطر : جمع قنطار ، وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر في زماننا مائة رطل ، وهو ٤٤ ، ٩٢٨ من الكيلو جرامات . وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [المعجم الوسيط] .

ومن هذا القول الكريم تفهم أن مَنْ يملك مالاً ويؤدّي حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَنْزاً^(١) ، وحين تُنقص الزكاةُ المالَ في ظاهر الأمر ، فهي تدفع الإنسان إلى أن يُحسّن استثمارَ هذا المال ؛ حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، يحكم أن زكاةُ المال هي اثنان ونصف في المائة ؛ ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثْمِرَهُ ، وهو بذلك يُهيئُ فرضة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم في التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هي إرادة الحق سبحانه وتعالى في أن يجعل من تكامل المواهب ثمناً وزيادة ، تكامل مواهب الوجود - النقود - ومواهب الجهد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر - العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هوى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشتري السلعة لهما هوى ، فمالك السلعة يرغب في البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب في شراء السلعة يريدّها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذي يتحكّم في السلع ، فهذا توازن

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٠٥١) : « اختلف العلماء في المال الذي أدبت زكاته هل يُسمّى كنزاً أم لا ، فقال قوم : نعم . ورواه أبو الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه ، قال علي : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كنز وإن أدبت زكاته ، ولا يصح . وقال ابن عمر : ما أدّى زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تُؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح » .

في ميزان الاقتصاد .^(١)

وعلى سبيل المثال : إن عُرِضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبرياء الذات في النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقني صحياً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التي يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هي التي تتحكم ، أما إذا تدخل أحد في تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرج للسوق لاستثماره ، حينئذ تختفي قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعته .

وقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية :

﴿ لَوْلَا ^(٢) أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للتمنى ، وهم تمنوا الكنز أولاً ، ثم طلبوا مجيء ملك ، وكيف ينزل الملك ؟ أينزل على خلقته أم على غير خلقته بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا .. (٩) ﴾ [الأنعام]

(١) قصد في أمره بقصد كضرب قصداً : اعتدل فيه وسلك مسلكاً وسطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (٤٩) ﴾ [لقمان] أى : اعتدل وتوسط فيه وقال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَقْتَصِدٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] أى : معتدل غير منحرف يقول الحق : ﴿ .. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مَقْتَصِدَةٌ (٤٦) ﴾ [المائدة] والاقتصاد الآن أصبح علماً له مناهجه ، وهو فن إدارة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهبت إليه اللغة ، وأشار إليه القرآن الكريم (القاموس القويم بزيادة اقتضاها المقام) .

(٢) لولا : حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط . وقد تستعمل كأداة عرض وتخصيص مثل (هلاً) فتختص بالدخول على الفعل المضارع في مثل قوله تعالى : ﴿ .. لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) ﴾ [النمل] وتدخل على الفعل الماضي الذى فى تأويل المضارع مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ .. (١٢) ﴾ [هود] أى : لولا ينزل عليه كنز . وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (٤٥) ﴾ [المنافقون] أى : لولا تؤخرنى . [القاموس القويم] بتصرف .

وإن نزل المَلَك على هيئة رجل فكيف يتعرفون إلى أصله كملك ؟
وهذا غيباء في الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ولو أنزله الحق سبحانه ملكاً فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ،
وسوف يلتقى بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس
وسوف يكذبونه أيضاً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق سبحانه رداً لهم
عن هذا الطلب : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ^(١) .. (١٢) ﴾ [هود]

وهذا الكلام موجه من الله سبحانه للرسول ﷺ ليلقنه الحجة التي يرد بها
عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب
غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلوا
على تكذيبهم ؛ فنكّل الحق سبحانه بهم ^(٢) .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق
سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

(١) النذير : الرسول المنذر بالعذاب . قال تعالى : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ .. (١٦) ﴾ [الأعراف]

(٢) وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١١٠) وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١١١) وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١١٢) ﴾ [الأنعام]

سُورَةُ هُودٍ



أى: أن الآيات التى طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذَّبوا بها ؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالندارة والبشارة ^(١) .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) ﴾ [هود]

وأنت حين توكل إنساناً فى البيع والشراء والهبة والنقل ، وله حرية التصرف فى كل ما يخصك ، وترقب سلوكه وتصرفه ، فإن أعجبك ظللت على تمسك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرفه فأنت تلغى الوكالة ، هذا فى المجال البشرى ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخلق ^(٢) فهى باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْنَا قُلُوبًا فَانُؤَايَعِشِرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِينَ ﴾

﴿ وَأَدْعُوا مَنَ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾

وفى قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للون آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : إن محمداً قد افترى القرآن .

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (١١٩) ﴾ [البقرة]

(٢) الوكيل : الحافظ الأمين والناصر والمعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] ، فوكالة الله على خلقه أى : رعايتهم بالرزق والحفظ والنصرة .

(٣) الافتراء : اختلاق الكذب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (١٣) ﴾ [هود] أى : اخترع القرآن وخلقته من عند نفسه ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [هود] أى : مكذوبات كما تدعون .

[القاموس القويم] .

والافتراء : هو الكذب المتعمد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً في الكون .

فإذا كان الواقع نفيًا وأنت قلت قضية إثبات ؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يوجد في الكون شرٌّ ما ثم تقول أنت : لا يوجد شرٌّ في هذا المكان ، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نفيًا .

وكذلك أن يكون في الواقع نفيٌ وفي الكلام إيجابٌ ، فهذا أيضاً كذبٌ ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكوني ، فإن اختلفت مع الواقع الكوني صار الكلام كذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب خرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال : خرقت الشيء أي : أنك أتيت لواقع وبدلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا ^(١) لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ بَغِيرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً ^(٢) .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

أي : تأتون بشيء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

(١) خرق الأمر أو الكلام : كذبه واخترعه . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ بَغِيرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أي : نسبوا له بين وبنات كذباً واختراعاً بغير علم . [المعجم الوسيط] .

(٢) الإفك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى : ﴿ .. وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْسُرُونَ (١٧) ﴾ [الأحقاف] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ .. (١١) ﴾ [النور] .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٦٣٧٣

﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(١) [الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمنتهى البساطة ، فأنتم - معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع بُوغكم ، وما دمتم قد قُلْتُمْ : إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشر سور منه ؟ وأنتم قد عشتُم مع محمد منذ صغره ، ولم يكن له شعر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يزاو الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التي كانت تُعقد في الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فَلْيَكُنْ لديكم - وأنتم أهل قُدرة ودُرْبَة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التي تُقام في أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر في مباراة ليلقى قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبيِّن مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء في أي قصيدة .

ولو كان محمداً ﷺ قد افترى القرآن - كما تقولون - فأين أنتم؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول :

(١) يخرصون : يكذبون . ويستعمل الخرص في القرآن بمعنى الكذب أو الظن الخاطيء . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام] أي : يكذبون أو يُخْمِنُونَ ويظنون ولا يعلمون حقيقة الأمر

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ^(١) فِيكُمْ عُمَرًا
مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

فهل أثر عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تبارى^(٢) في عكاظ^(٣) أو المربد أو ذى المجاز^(٤) أو المجنّة^(٥) ، وتلك هي أسواق البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً .
إذن : أفليس الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء ؟ ألم يكن امرؤ القيس شاعراً فحلاً ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة الشكري ، كما جاء في عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق .
إذن : فأنتم تعرفون من يقولون الشعر ومن يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء .

إذن : فهاتوا من يفترى مثل سور القرآن ، فإن لم تفتروا ، فمعنى ذلك أن القرآن ليس افتراء .
ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

(١) لبث : أقام واستقر . وقال تعالى عن يونس عليه السلام : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٧) لَلَبِثُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٨) ﴾ [الصافات] . وقال سبحانه عن نوح عليه السلام : ﴿ فَلَبِثُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤٩) ﴾ [العنكبوت] . وقال تعالى : ﴿ .. فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) ﴾ [طه] .

(٢) التبارى : التنافس والتسابق .
(٣) سوق عكاظ : سوق يقرب مكة ، كان العرب يجتمعون بها كل سنة ، فيقيمون شهراً يتاعون ويتفاخرون ويتناشدون ، وسميت عكاظاً لهذا ، ويقال : تعاكظ القوم : تعاركوا وتفاخروا [انظر لسان العرب - مادة عكظ] .

(٤) ذو المجاز : موضع عتي - وقيل عند عرفات - كان يُقام فيه سوق في الجاهلية . [اللسان مادة : جوز] .
(٥) المجنّة : موضع على بُعد أميال من مكة ، كان بها سوق من أسواق العرب .

سُورَةُ هُودٍ

٦٣٧٥

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [هود]

فهل كانوا قادرين على قبول التحدى ، بأن يأتوا بعشر سُورٍ من مثل القرآن الكريم فى البيان الأسر^(١) وقوة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن^(٢) ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدّاهم بأن يأتوا بسورة^(٣) ، ثم تحدّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدى ، وهو أن يأتوا بعشر سُورٍ ، ولم يكنف الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يدعوا مجمعا من البُلغَاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ .. (١٣) ﴾ [هود]

أى : هاتوا كل شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجَنَّبُوهُ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن^(٤) ، وبما أنكم

(١) الأسر : الذى يأخذ بألباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : معينا .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾ [يونس] .

(٤) القرآن : يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى المصاحف ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق مجازاً مرسلأً علاقته الجزئية على الصلاة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : صلاة الفجر (القاموس القويم باختصار) .

أهل ريادة في الفصاحة فلتفتشوا عشر سور من مثل القرآن ، أنتم ومن تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله في قول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَأَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ

وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

والخطاب هنا موجه إلى الذين ادَّعوا أن رسول الله ﷺ قد افتري القرآن ، أو أن الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في الآية السابقة :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ ^(١) وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. ﴿١٤﴾ [هود]

أى : إن لم يردُّوا على التحدى ، فليعلموا وليتقنوا أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم . ^(٢)

ولماذا عدلَّ الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ^(٣) .. ﴿١٤﴾ [هود]

(١) مفتریات : مختلقات مكذوبات كما تدعون .

(٢) وعن القرآن قال عتبة بن ربيعة لقومه بعد حوار طويل مع رسول الله ﷺ لإثباته عن المضى في دعوته : « خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم » [سيرة ابن هشام ١/٢٩٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. ﴿١٣﴾ [هود] ولم يقل : لك . قيل : هو على تحويل المخاطبة من الأفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً ، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة .

وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للجميع ، أى : فليعلم الجميع : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴿١٣﴾ [هود] قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى « لكم » ، وفى « فاعلموا » للمشركين ، والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعوتهم إلى المعاونة ، ولا تهيأت لكم المعارضة : ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾ [هود] . [قاله القرطبي فى تفسيره : ٤ / ٣٣٣١] .

أى : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

[هود]

﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ مُطَالِبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين مطلوب منه أن يُبلغوه ، وإن لم يستجيبوا للرسول ﷺ أو للمؤمنين ، ولم يأت أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفترى من محمد .

وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدى ؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا - يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن - أن القرآن : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

إذن : فالخطاب يكون - مرةً - موجَّهاً للنبي ﷺ ولأمته .

ولذلك عدلَ الحق سبحانه عن ضمير الأفراد إلى ضمير الجمع فى قوله تعالى :

[هود]

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾

أى : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن إنما نزل من عند الله .

والعلم - كما نعلم - مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين^(١) .

أو أن الخطاب مُوجَّه للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يدعوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم فى معارضة القرآن : ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾

وأعلى مراتب العلم عند الحق سبحانه الذى يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذى يتغير حسب ما يتيح لنا الله سبحانه أن نعلم ، فأنت قد تكون عالماً بشيء وتجهل أشياء ، أو علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

(١) هذا التقسيم ذهب إليه أهل الحقيقة والعارف من وحي الترييض العلمى والروحى والشهدى .

ولذلك تجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواءً ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة «مجمع طبي» يُقرر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .

ويستدرك كلٌّ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذي يستدرك هو الأعمى ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذي أرقق المريض أو لم يستجِبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من علم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذي علمٍ عليمٌ ؛ فالطبيب الثاني يستدرك على الطبيب الأول .. وهكذا .

ولكن أوجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء بعلم الله تعالى ، فلا علم لبشرٍ يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآنَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٤) ﴾ [هود]

وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدعى أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله .

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل في دائرة :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٤) ﴾ [هود]

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلنبتق بهذا الحكم .

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أبي لهب^(١) وعلى امرأته^(٢) بأنهما سيدخلان النار^(٣) فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو نفاقاً ؟ طبعاً لا ؛ لأن الذي خلقه علم كيف يتصرف أبو لهب .
لذلك نجد بعد سورة المسد^(٤) التي قررت دخول أبي لهب النار ، قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص]

أى : أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل وزوجه النار ، فلن يقدر أحد على أن يُغيّر من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .
ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٤ ﴾ [هود]

وهذا استفهام ، أى : طلب للفهم ، ولكن ليس كل استفهام طلباً للفهم ، فهذا الاستفهام هنا صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم .

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة سُمى أبا لهب لشدة احمرار وجهه كأنه اللهب .

(٢) كانت امرأته من سادات نساء قريش ، وهى أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهى أخت أبى سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده .

(٣) وذلك فى قول الله عز وجل عن أبى لهب وامرأته فى سورة المسد : ﴿ سَيَلِنُ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ وامرأته حَمَلَةَ الْحَطَبِ ۝٤ ﴾ [المسد] .

وسبب نزول هذه السورة كما أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٧١) : عن ابن عباس أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل ، فنادى " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد] إلى آخرها .

(٤) مسد الحبل [كنصر] مسداً : أجاد قتلته . والمسد الليف قال تعالى : ﴿ فَبِئْسَ مَا جَدَّ مِنْ مَسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد] أى : من ليف خشن . « القاموس القويم » .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتي هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يُسَلِّمَ السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقائل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن كل مثل ، تجد إنساناً يحكى لك أمراً بتفاصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك؟ .. وهو يأتي بهذا الاستفهام ؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا في آية تحريم الخمر والميسر - على سبيل المثال - نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ ^(١) أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ^(٢) ﴾ (٩١)

[المائدة]

(١) الشيطان كل عاد متمرد من الإنس أو من الجن ، والشيطان من الجن مخلوق خبيث خلق من الناس ، وهو عدو للإنسان يُغريه بالبشر ، إلا من حفظه الله بالإيمان . يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [الحجر] ، وكذلك كل من التجأ إلى الله ، فالله حافظه من كيد الشيطان . [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي يزيد عن أبيه قال : بينا نحن قعود على شراب لنا ، ونحن على رملة ، ونحن على ثلاثة أو أربعة ، وعندنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ (٩١) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة] فنجت إلى أصحابي فقرأت عليهم إلى قوله : (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قال : وبعض القوم شربته في يده ، قد ضرب بعضها ، وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجاج ، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . ذكره ابن كثير في تفسيره (٩٥ / ٢) .

وكان هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن: انتهوا من الخمر والميسر،
واخلجوا مما تفعلون.

إذن: فقول الحق سبحانه في آخر الآية الكريمة:

﴿.. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)﴾ يعني: أسلموا، واتركوا اللجاجة^(١) بأن
القرآن قد جاء من عند محمد، أو أنه افتراه، بل هو من عند الله سبحانه
الذي لا إله إلا هو.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥)﴾

وكان الكافرون^(٢) قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم
وقالوا:

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ.. (١٦)﴾

[هود]

(١) اللجاجة: اختلاط الأصوات وارتفاعها. والمقصود التشويش على القرآن بادعاءات باطلة.
(٢) بخسه حقه: نقصه حقه ولم يُوفِّه إياه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ.. (٨٩)﴾
[الأعراف]. والثمن البخس: القليل الناقص عن مثله، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ.. (٢٠)﴾ [يوسف].
(٣) اختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: نزلت في الكفار، قاله الضحاك، واختاره النحاس،
بدليل الآية التي بعدها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نُسِئْتُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ.. (١٦)﴾ [هود]، أى: من أتى منهم
بصلة رحم أو صدقة فكافته بها في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق. لكن لا حسنة له في الآخرة.
وقيل: المراد بالآية المؤمنون، أى: من أراد بعمله ثواب الدنيا عجلَّ له الثواب ولم يُنقص شيئاً في
الدنيا، وله في الآخرة العذاب لأنه جردَّ قصده للدنيا. وقيل: هو لأهل الرياء، وفي الخبر أنه يقال
لأهل الرياء: «صمتهم وصليتهم وتصدقتهم وجاهدتهم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال: «إن
هؤلاء أول من تُسعر بهم النار».

وقيل: الآية عامة في كل من ينوى بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن. [تفسير

فهم - إذن - مشغولون بنعيم الدنيا وزينتها.

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عورة ، وأكل لقمة
وبيت يقى الإنسان ويؤويه . أما الزينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن
يرتدى الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاء ،
والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من
البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصرأ .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ^(١) مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ^(٢) وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ^(٣) . . (١٤) ﴾ [آل عمران]

وكل هذه أشياء تدخل فى متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ . . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآءِ ^(٤) ﴾ [آل عمران]

إذن : ما معنى كلمة «زينة» ؟

معنى كلمة «زينة» أنها حُسْنٌ أو تحسين طارىء على الذات ، وهناك فرق
بين الحسن الذاتى والحسن الطارىء من الغير .

(١) القناطر : جمع قنطار وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر فى زماننا : مائة رطل ، وهو
٩٢٨ ، ٤٤ من الكيلوجرامات ، وقد يقصد بها المال الكثير - كما فى الآية الكريمة . وقال تعالى :
﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ . . (٧٥) ﴾ [آل عمران] .

والقناطر المقنطرة : أى : المضاعفة ، أو المحكمة المحصنة . [كلمات القرآن للشيخ حسين
مخولف . والمعجم الوسيط] .

(٢) الخيل المسومة : أى : المرسلّة للرعى ، أو المعلّمة بعلامات . [القاموس القويم] .

(٣) الأنعام : الإبل والبقر والضأن والمعز .

والحرث : الزروع . [كلمات القرآن] .

(٤) المآب : المرجع . وحسن المآب : أى : المرجع الحسن . [كلمات القرآن] .

والمرأة - على سبيل المثال - حين تتزين فهي تلبس الثياب الجميلة المملّفة ، وتحلّى بالذهب البرّاق ، فهو المعدن الذى يأخذ نفاسته ^(١) من كثرة تلالئه الذى يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالة إلا التى تشك فى جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهي ترفض أن تتزين ؛ ولذلك يسمونها فى اللغة : «الغانية» ^(٢) ، أى : التى استغنت بجمالها الطبيعى عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كبر أذنيها بقُرط ^(٣) ضخم ، ولا تحتاج إلى مداراة رقبته بعقد ضخم ، ولا تحاول أن تدارى معصمها الريان بسوار ^(٤) ، وترفض أن تُخفى جمال أصابعها بالخواتم .

وحين تُبالغ المرأة فى ذلك التزّين فهي تعطى الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذى أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطى الشئ المبالغ فيه المقابل له .

وفى ذلك يقول المتنبى ^(٥) :

الطَّيِّبُ أَنْتَ إِذَا أَصَابَكَ طَيِّبُهُ وَالْمَاءُ أَنْتَ إِذَا اغْتَسَلْتَ الْغَاسِلُ

(١) نَفَسَ الشئ نفاسة : كان عظيم القيمة فهو نفيس . وقيل : منه التناقس ، كل يريد أن يكون أنفس من غيره ، أو يحرز ما هو أنفس وأعظم قيمة . قال تعالى : ﴿ .. وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٦٦) [المطففين] أى : فليتنافسوا لإحرازه لأنفسهم .

(٢) الغانية من النساء : التى غنيت بالزوج . وهى أيضاً التى غنيت بحُسْنِها وجمالها عن الحُلَى . وقيل : هى التى تُطلب ولا تُطلب . وقيل : الغانية الجارية الحسنة ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج . سميت غانية لأنها غنيت بحُسْنِها عن الزينة . [لسان العرب - مادة : غنى]

(٣) القُرط : ما يُعلّق فى شحمة الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها . والجمع : أقراط ، وقروط ... [المعجم الوسيط] .

(٤) السَّوَار : حلية من الذهب مستديرة كالحلقة تُلبس فى المعصم . والجمع : أسورة ، وأساور . [المعجم الوسيط] .

(٥) هو : أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة فى محلة تسمى «كندة» عام ٣٠٣ هـ ، نشأ بالشام ، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) . ولذلك سُمى بالمتنبى ، ثم رجع عن دعواه بعد أسره ، توفى عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً .

وهو هنا يقول : إن الطيب إذا ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ، فالطيب هو الذى يتطيب ، كما أن الماء هو الذى يُغسل إذا ما لمس هذا الإنسان ، وكذلك تأبى المرأة الجميلة أن تُزَيَّنَ نَحْرَهَا ^(١) بقلادة ^(٢) ؛ لأن نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة «غانية» ؛ لأنها استغنت بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضرة : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك المساحيق مثبتة على الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملأ الشقوق المعجدة فى وجهها .

ولحظة أن يسبح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط الألوان ؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الْحَضْرَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ

إذن : فالزينة هى تحسين الشئ بغيره ، والشئ الحسن يستغنى عن الزينة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا

لَا يَخْشَوْنَ ﴾ ^(٣) [١٥] ﴿ [هود]

أى : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضمن عليكم فى أن يعطيكم مقومات

(١) النَّحْرُ : أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة .

(٢) القلادة : كل ما يوضع حول الرقبة من عقود وحلى وذهب وغيره ، وسُمِّيَت الأضاحى قلائد مجازاً مرسلًا علاقته الملازمة ؛ لأن الذبائح كانت تُعلَّم بقلاذات فى أعناقها . قال تعالى : ﴿ وَلَا الْهُدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ .. ﴾ [المائدة] . أى : الأضاحى ذوات القلائد .

(٣) الْبَخْسُ : الإنقاص . وَيَخَسُّ حَقَّهُ بِخَسًا : نقصه حَقَّهُ ولم يُوفِّه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم] .

الحياة وزيتها؛ لأنه رب ، وهو الذى خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ، وقد أُلزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة وزيتها ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفى بما وعد .

وهو سبحانه يقول هنا :

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ .. (١٥) ﴾ [هود]

أى : أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يُلزم نفسه بإعطاء الشيء كاملاً غير منقوص .

وهم فى هذه الدار الدنيا لا يُخَسون فى حقوقهم ، فمن يتقن عمله يأخذ ثمرة عمله .

وهذا القول الكريم يحلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعانى منه ، فهناك مَنْ يقول : إن هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، و يقيمون الصلاة ، و يبنون المساجد ، بينما هم قومٌ متخلفون ومتأخرون عن ركب الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يرفلون^(١) فى نعيم الحضارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءً ربوبية للأسباب ، فمن أحسن الأسباب حتى لو كان كافراً ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له فى الآخرة من نصيب ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنُورًا ^(٢) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه يجزى الكافر الذى يعطى خيراً للناس بخير فى الدنيا ، ويجزى الصادق الذى لا يكذب من الكفار بصدق الآخرين معه فى الدنيا ، ويجزى من يمدُّ يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له فى الدنيا .

(١) رفل : جرّ ذيل ثوبه وتبختر فى مشيه . ويرفلون فى النعيم : أى : يعيشون فى رفاهية فرحين بما لديهم

من نعيم . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهباء المنثور : الغبار المتطاير فى الجو . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنُورًا .. ﴾ [٢٣] [الفرقان] أى :

كل عمل عملوه كالهباء المنثور ، لا يُعتد به ، ولا قيمة له . [القاموس القويم] .

وكلها أعمال مطلوبة في الدين ، ولكن الكافر قد يفعلها، فيردُّ الله سبحانه وتعالى له ما فعل في الدنيا ، وإن كان قد فعل ذلك لِيُقَالَ : إن فلاناً عمَل كذا ، أو فلاناً كان شهماً في كذا ، فيُقَالَ له : «عمَلتَ لِيُقَالَ وقد قيل» ^(١) .
وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ؛ فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا به من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلف :

لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبَّقوا دينهم ، ظاهراً وباطناً ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام ، وإنما جاء التخلف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإن عقدنا مقارنة بين حال أوروبا حينما كانت الكنيسة هي المسيطرة ، كنا نجد كل صاحب نشاط عقلي مُبدع ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام في أوروبا «العصور المظلمة» .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوروبا قوة الإسلام

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت القرآن وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت . ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى في النار .

ورجل وسَّعَ الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه ثم ألقى في النار . [أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) كتاب الإمارة] .

والمسلمين ، ودحروهم ^(١) المسلمون ، بدأوا في محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تَقَدَّمُوا .

هم - إذن - عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلفنا .

إذن : فأى الجَرَعَتَيْنِ خير ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلفوا حين تركوها .

وهكذا . . فمعيار التقدم هو الأخذ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسن خير الدنيا وحُسن ثواب الآخرة ، ومن لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال خير الدنيا ولم يَنَلْ ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ^(١) بَقِيعةٍ ^(٢) يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ ^(٣) . . (٣٩) ﴾ [النور]

(١) دَحَرَهُ يُدَحِرُهُ دَحْرًا وَدُحْرًا : دفعه وطرده وأبعده مُهَانًا . ودحره في الحرب : هزمه . قال تعالى : ﴿ .. وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ^(٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ^(٩) ﴾ [الصافات] [القاموس القويم] .

(٢) السراب : ما تراه في نصف النهار في الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء . ويقول الله تعالى : ﴿ وَسَيَرَّتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ^(١٠) ﴾ [النبأ] أى : صارت لا حقيقة لها ، أى : تشبه السراب في أنها لا حقيقة لها ، أو كالأرض المسطوحة التي يظهر فيها السراب . [القاموس القويم] .

(٣) القاع والبقية : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ^(١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ^(١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ^(١٠٧) ﴾ [طه]

قاعاً صفصفاً : مكاناً منخفضاً مستوياً معتدلاً ، لا ارتفاع فيه ولا اعوجاج . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ ^(٣٩) ﴾ [النور] أى : بمكان منخفض مُسْتَوٍ مما يظهر فيه السراب عادة . [القاموس القويم] .

وهكذا يُفاجأ بالآله الذي كذب به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ^(١) لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. ﴾ (١٨) ﴿ [إبراهيم]

إذن : فمن أراد الدنيا وزيتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوفيه حسابه ولا يبخسه من حقه شيئاً ، فحاتم الطائي - على سبيل المثال - أخذ صفة الكرم ، وغترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقاً وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم في الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعنى وجود عقد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأتقن العامل العمل فلا بد أن يأخذ أجره دون بَخْس ؛ لأن البَخْسَ هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحِيطَ ^(٢) مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) ﴿

(١) عصفت الريح ، تعصف عَصْفًا وَعُصُوفًا : اشتد هبوبها ، والريح عاصف وعاصفة فهي تُدَكَّر وتؤنث ، والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شيء تمر عليه . قال تعالى : ﴿ وَاسْلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ .. ﴾ (٨٧) ﴿ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. ﴾ (٣٢) ﴿ [يونس] وقال تعالى : ﴿ فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا ﴾ [المرسلات] هي الرياح الشديدة . [القاموس القويم] .

(٢) حبط العمل : بطل ولم يحقق ثمرته . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ .. ﴾ (٥) ﴿ [المائدة] ، وأحبط الله عمله : أبطله وضيعه هباءً . قال تعالى : ﴿ فَاحْطِ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٩) ﴿ [محمد] [القاموس القويم] .

إذن : فالنار مثوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم فى الدنيا ، أما عملهم فقد حبط فى الآخرة ، والْحَبَطُ هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضج بعد ، ويقال فى الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أى : أن هناك غازات فى بطنها ، وقد يظنها الجاهل سمئاً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط فى الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ
كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا أَمْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

والبيئَةُ^(١) هى بصيرة الفطرة السليمة التى تُلقت الإنسان إلى وجود واجب الوجود ، وتوضَّح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

(١) المرية : الجدل والشك وكذلك التمارى والامتراء والمرء والممارة . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَمَارٍ فِيهِمَ إِلَّا مِرَاءٌ ظَاهراً .. ﴾ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ فَيَأْتِي آلَآءِ رَبِّكَ تَمَارَىٰ ﴾ [النجم] [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) بان الشيء بين بياناً : ظهر واتضح ، فهو بَيِّنٌ وهى بَيِّنَةٌ أى : ظاهر ، ظاهرة . ويستعمل البَيِّنُ والبَيِّنَةُ بمعنى المظهر والمُظْهَر ، والموضَّح والموضَّحة . قال تعالى : ﴿ كَمْ أَنبَأْنَاهُمْ مِّن آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هى مُبَيِّنَةٌ للحق مُؤَيِّدَةٌ له ، مُظْهَرَةٌ لأمره ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ .. ﴾ [الكهف] أى : ظاهر واضح أو مُوضَّح مُظْهَرٌ للحق [القاموس القويم] .

والعربي القديم حين سار في الصحراء ووجد بعراً ملقئاً في الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : « البعرة ^(١) تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسماء ذات أبراج ^(٢) وأرض ذات فجاج ^(٣) وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟ » ^(٤)

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهي بيّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه في كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة ^(٥) شهدنا في عالم الذرّ .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالبيّنة هي إيمان الفطرة المركوز في ذرات الأشياء .

وقد تُضَيَّب ^(٦) الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكّرنا بالبينات الأولى ، وتدلتنا على العلل

(١) البعرة : واحدة البعر ، وهو رجيع (روث) ذوات الخُفِّ والظلف من الحيوانات .

(٢) الأبراج : جمع بُرْج ، وهي منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [لسان العرب . مادة : برج] .

(٣) الفجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٢١) ﴾ [الأنبياء] .

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية . كان أولها : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . انظر البيان والتبيين للجاحظ (١/٣٠٨) .

(٥) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٣) والطيالسي (٢٤٣٣) ، والترمذي (٢١٣٨) .

(٦) الضَّبُّ والتضيب : تغطية الشيء ودخول بعضه في بعض . والضبابية : سحابة تُغشَى الأرض كال دخان وقيل : الضباب والضبابية : ندى كالغبار يُغشَى الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة : ضب] .

والأحكام حتى تنضمَّ البيئة من الرسل على البيئة من الفطرية في الكائن .

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى مناط^(١) الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبيِّن لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعي ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدي قبل أن يجيء رسولٌ يُلَفِّتنا إلى القوة العليا التي تدبِّر حركة هذا الكون .

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطت به طائرة في الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطيب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً^(٢) منصوباً ليأوى إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤالٌ : من صنع هذا ؟ وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشيء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت في ضيافتى .

إذن : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذي طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خلق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخر كلَّ ما في الكون لخدمة الإنسان^(٣) .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذي صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

(١) مناط الشيء : كل ما تعلق به من أمور . ونيط به الشيء : وُصِّلَ به . [اللسان : مادة (ن و ط) بتصرف]

(٢) الصوان : الوعاء الذي تُصان فيه الثياب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [اللسان - مادة صون] .

(٣) يقول تعالى في سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١٧) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَاكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَّوَدَّنًا وَمِنْهُ جِلَّةٌ تُبَسِّطُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِيُنذِرَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَتَشَكَّرُونَ ﴾ (١٨) [النحل] .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحلل للإنسان أمراً يشغل باله .

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ؛ فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شيء - مهما كان تافهاً - لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يضيء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التي أنجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتدير نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك البينة ، بينة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدى إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مديراً .

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية البينات .

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبدية التي لا تشوبها^(١) أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبدية أن هناك ناراً ، وحين تسير في الصحراء وترى خضرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويتها ؟

(١) أي : لا تختلط به شبهة ، أي : الفكر البعيد عن الأهواء .

والشوب : ما اختلط بغيره من الأشياء ، وبخاصة السوائل ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات ٦٧] . ويقال : سقاه الذوب بالشوب : العسل بما يشاب به من ماء أولين . [المعجم الوسيط] .

هذه - إذن - أمور تعرفها بالبديهة ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد .

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذي استدل به العربى على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير^(١) ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير .

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل .

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صناعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وبماذا يجزى المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصى له .

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التى اقتنعت بها جملة . والمفكرون بالعقل فى الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه .

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحي إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذى أنزل عليه البلاغ .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هى القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدى إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينه لهم .

(١) البعرة : رجيع (روث) ذوات الخف وذوات الظلف من الحيوانات . والبعير : ما صلح للركوب والحمل من الإبل ، وذلك إذا استكمل أربع سنوات . ويقال للجمل والناقة : بعير . والجمع : أباعر ، وأباعير ، ويعران . [المعجم الوسيط] .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ ^(١) مِنْهُ .. (١٧) ﴾ [هود]

فالقُرآن حجة ونور ، وهو يهدى البصيرة الفطرية الموجودة في الإنسان
﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ .. (١٧) ﴾ وهو من أنزل عليه الوحي ، ويخبرنا عن الحق
سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله
سبحانه ، ويوضح لنا الشاهد المطلوب الله تعالى .

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود:

الشاهد الأول: هو الحجة والبيّنة .

والشاهد الثاني: هو البرهان والبصيرة التي يهتدى إليها العقل ،
والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال .

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً .. (١٧) ﴾ [هود]

وهذا هو الشاهد الثالث .

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصّر ؛ فمن عنده تلك البيّنة ،
ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذي قبله ، وهو كتاب موسى

(١) في تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (٤/٣٣٣٤) .

١- أنه محمد ﷺ .

٢- أنه جبريل عليه السلام .

٣- أنه علي بن أبي طالب .

٤- القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد .

٥- الإنجيل . فهو يتلو القرآن في التصديق وإن كان قبله .

٦- العقل الذي يتلو معرفة الله التي أشرقت لها القلوب .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى : «الأول والثاني هو الحق ،
وكلاهما قريب في المعنى ؛ لأن كلاً من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى ،
فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ؛ وقيل : هو علي ، وهو ضعيف لا يثبت له قائل . المؤمن عنده
من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والفطرة تصدقها وتؤمن
بها» .

عليه السلام وشاهد^(١) بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان.

وقول الحق سبحانه:

[هود] ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (١٧)﴾

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة: بينة ، وشاهداً ، وشاهداً من قبله .

ثم يقول الحق سبحانه:

[هود] ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ (٢) فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. (١٧)﴾

والكفر - كما علمنا - هو الستر ، والكفر في ذاته دليل على الإيمان ، فلا يكفر أحد بغير موجود .

فوجود المكفور به سابق على الكفر ، والكفر طارئ عليه .

إذن: فالكفر طارئ على الإيمان ؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة .

[هود] ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. (١٧)﴾

وكلمة «أحزاب» جمع حزب . والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه ، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية ، وهي

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل .

(٢) الأحزاب: جمع حزب . وهو الجماعة من الناس اجتمعوا على أمر واحد سواء أكان خيراً أو شراً .

يقول تعالى عن حزب الخير: ﴿ .. أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة] .

وقال تعالى عن حزب الشر: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ

الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٥) ﴾ [المجادلة] .

والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملة الإسلام . قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٥) .

(٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده، لا يسمع بى أحد

من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» .

أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢٤٠) .

أحزاب بشرية تتصارع فى المناهج والغايات ، وهم أحرار فى ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما فى العقيدة الأولى ، فَمَنْ المُخَطَّطُ الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتى منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عَمَّنْ يتبعون منهجه :

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ . . (٢٢) ﴾ [المجادلة]

أى : أنهم يدخلون فى حزب يختلف عن أحزاب البشر التى تختلف أو تتفق فى فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ . . (١٧) ﴾ [هود]

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة^(١) واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿ .. كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله وبرسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بين لنا الحق سبحانه أن هناك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كلٌّ منهما يواجه للآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

(١) الصابئون : يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عبّاد الملائكة ، أو عبّاد الكواكب والنجوم ، أو عبّاد النار . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ .. (٦٦) ﴾ [البقرة] فهم غير اليهود والنصارى [أنظر : القاموس القويم ١/٣٦٥] .

سُورَةُ هُودٍ

[هود]

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ^(١) مِنْهُ .. (١٧) ﴾

أى: لا تكن يا رسول الله فى شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والقطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق :

[هود]

﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ .. (١٧) ﴾

والحق - كما علمنا من قبل - هو الشيء الثابت الذى لا يعتره تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتى إلا من إله لا تتغير أفعاله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

[هود]

﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومن يمنع عليها هو مجرد معاند .

والحق سبحانه يقول فى مثل هؤلاء المعاندين :

[النمل]

﴿ وَجَحَدُوا^(٢) بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا^(٣) أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾

أى: أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حينئذ كفر عناد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً .

(١) مرية: الجدل والشك. وهناك قراءة بضم الميم. [القاموس القويم].

(٢) جحد الحق يجحده جحوداً: أنكره وهو يعلمه. وجحد النعمة: أنكرها ولم يشكرها. وجحد بالآية: كفر بها.

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي بُرِّئُوا بِهَا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعَصُوا رُسُلَهُمْ .. (٥٦) ﴾ [هود] [القاموس القويم].

(٣) استيقن الأمر واستيقن به: مثل أيقن وأيقن به، من اليقين وهو الشيء الثابت الواضح الذى لا شك فيه. واستيقنتها أنفسهم: أى: علمتها نفوسهم علماً واضحاً. [القاموس القويم].

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ۗ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد في صيغة استفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة .

والواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذى يفترى على الله كذباً ، ويقر بذلك .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي هذا الخبر فى صيغة استفهام ، ليأتى الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع .

وهؤلاء المكذبون يُعْرَضُونَ على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ ﴾ ﴿١٨﴾ [هود]

والعرض إظهار الشيء الخفى لنقف على حاله .

ومثال ذلك فى حياتنا : هو الاستعراض العسكرى حتى يبين الجيش قوته

أمام الخصوم ، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها .

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . ويقول تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترأه ..

﴿ ٧٨ ﴾ [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه .

(٢) الأشهاد : أى : الشهداء بالحق ، وأشهاد : جمع شهيد ، مثل أيتام جمع يتيم ، والشهيد صفة مشبهة .

[القاموس القويم] . وفى تعيين الأشهاد فى هذه الآية أقوال : الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل . وقال

قتادة : الخلاق أجمع . قاله القرطبي فى تفسيره (٤/٣٣٣٦) .

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا: فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزي المقصر منهم أو الذى لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنابالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزى ؟ ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذى أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعَةٍ ^(١) يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ^(٢) . . ﴾ [النور]

فأى خزى - إذن - سيشعرون به ؟ !

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ^(٣) . . ﴾ [الكهف]

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ^(٤) . . ﴾ [غافر]

(١) السراب: ما يرى فى نصف النهار على الأرض الفضاء كأنه ماء، وليس بماء. وهو ظاهرة متعلقة بخداع البصر. والبقية: الأرض المستوية المنخفضة عما يحيط بها من مرتفعات وكذلك «القاع». يقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ^(١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ^(١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ^(١٠٧) ﴾ [طه] [القاموس القويم]. والأرض الصفصف هي الأرض المستوية الملساء، أى: إن الجبال تزول فلا يكون لها أثر، ولا ترى فى مكانها ارتفاعاً ولا هبوطاً ولا عوجاً.

(٢) الغدو: الدخول فى أول النهار. والعشى: آخر النهار. وهذه الآية قيلت فى حق فرعون وآله. وتماها: ﴿ .. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ^(٤٦) ﴾ [غافر] وهذه الآية أصل فى إثبات عذاب القبر عند أهل السنة. انظر: [تفسير ابن كثير ٤ / ٨١].

وهكذا يظهر الخزي والحجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .
وهو سبحانه يعلم كل شيء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف
الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان في
الجنة إنساناً في النار ، فلا يستثير هذا المشهد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن
جزاء المفترى هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزي ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن
الحق سبحانه وتعالى يقول في نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ۗ ۝١٨ ﴾ [هود]

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب»
و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شهيد» مثل «شريف» و«أشرف» .

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَلْفِظُ ^(١) مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ^(٢) ۗ ۝١٨ ﴾ [ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ^(٣) ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾

[الانقطار]

(١) اللفظ : إخراج الشيء من الفم . والمراد به : التكلم . واللفظ : الرمي والإلقاء عامة . ومنه حديث ابن
عمر أنه سئل عما لفظ البحر فنهى عنه . أراد ما يليق به البحر من السمك إلى جانبه من غير اصطيداد .
[اللسان : مادة لفظ] .

(٢) الرقيب العتيد : الحاضر المستعد لإثبات ما يتكلم به الإنسان في كتاب الحسنات والسيئات . [القاموس
القيوم] .

(٣) الحافظون : أى : الملائكة الرقباء والحافظون عليكم . يقول تعالى : ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ ﴾
[الطارق] أى : ملك حافظ لها رقيب عليها . ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَرَقَ عَبْدَاهُ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفِظَةً
ۗ ۝١٦ ﴾ [الأنعام] أى : ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم . [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٠١

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ

[النساء]

شَهِيدًا ^(٤١) ﴿٤١﴾

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلغها إلى غيره ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣) ﴾

[البقرة]

وكلمة «الشهادة» تعنى : تسجيل ما فعلوا ، وتسجل أيضاً أنهم بلّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام .

ولذلك نجد القوانين التى تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة «يُعمل بالقانون من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية» .

إذن : فعمل الأَشْهَاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بلّغوا المنهج ، وبلّغوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هى الخلود فى النار .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتى الشاهد

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ على القرآن . قال : فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : إني أشتهد أن أسمع من غيرى ، فقرأت النساء حتى إذا بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (٤١) [النساء] . رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى ، فرفعت رأسى فرأيت دموعه تسيل . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٠) والبخارى فى صحيحه . (٥٠٥٥) .

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم .

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بلغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة الأبعاض على الكل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ^(١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢٠) وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ لَمَّ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٢١) ﴾

[فصلت]

فالجوارح تنطق لتقييم الحجة على أولئك المذنبين .

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لم» ؛ لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية .

والإنسان - كما نعلم - مركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكون الكل الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

(١) يُوزَعُونَ : يُمنعون عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . والوزع : الكف والمنع . يقال : وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، فيمنع عليهم التفرق والانتشار . [انظر : لسان العرب - مادة : وزع] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤.٣

إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسَخَّرَةٌ لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل :

﴿ .. لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمرونا به من المعاصي رغماً عنا ؛ لأننا كنا مُسَخَّرِينَ لكم في الدنيا ، والآن انحلت إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ

الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد^(١) وإنكار الرسول ﷺ والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه . يقال: قد أُلْحِدَ في الدين أى: حاد عنه . والإلحاد الظلم في الحرم ، وهو أيضاً الشك في الله ، والميل عن الإيمان به . [انظر: لسان العرب - مادة لحد].
(٢) عوج: مال وانحنى ولم يكن معتدلاً . وعاج عوجاً (بفتح العين والواو) ، وعوجاً (بكسر العين وفتح الواو) . قال تعالى: ﴿ قُرْآنًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] أى: قرآناً مستقيماً في مبادئه وأحكامه . وقال تعالى: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود] أى: أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله يريدون سبيل الله معوجة . [القاموس القويم].

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تبادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان . وبذلك تعدوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرم .

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجة . يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المعوج من أمور المنهج . والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفى في المعنويات ، فتقول : أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج . ويقول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ ﴾ [الكهف]

وهنا في الآية التي نحن بضدد خواطرننا عنها يقول الله سبحانه :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [هود]

(١) ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ : أى : أنه قرآن مستقيم سليم فى أحكامه ومبادئه ولا اعوجاج فيه . [القاموس القويم] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٠٥

أما فى الأمور المحسنة فلا يقال: «عوج»، بل يقال: «عوج»، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً فى الأمور المحسنة تقول: عوج^(١).

لكننا نقرأ فى القرآن قول الحق سبحانه:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه]

وقد أوردتها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآنى؛ لأن هناك عوجاً حسيماً يحسه الإنسان، مثلما يسير الإنسان فى الصحراء؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينبسط مرة أخرى، ثم يقف فى الطريق جبلي، ثم ينزل إلى واد، وأى إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً. أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية، فقد تظن أنها أرض مستوية، ولكنها ليست كذلك؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوحة.

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عوج): «هو بفتح العين مختص بكل شخص مرئى كالأجسام، وبالكسر بما ليس بمرئى كالرأى والقول، وقيل: الكسر يقال فىهما معاً، والأول أكثر».

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾: القاع: الأرض المستوية المنخفضة عما حولها. والصفص: الأرض المساء المستوية. أى: أن الجبال تزول، فلا يكون لها أثر. [القاموس القويم].

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن الله تعالى يذهب الجبال عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، فيجعلها - أى: الأرض - قاعاً صفصفاً، أى: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصفت تأكيد لمعنى استواء الأرض يومئذ، وقيل: الذى لا نبات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. قاله ابن عباس وعكرمة وآخرون. (ابن كثير ٣/١٦٥).

(٣) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] أى: أنها ملساء مستوية، لا انحراف فيها يمنة ولا يسرة، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع. [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتي بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التى قد لا تراها العين المجردة .

وفى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ^(١) وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ ^(٢) لِلرَّحْمَنِ ^(٣) فلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

[طه]

هم - إذن - يضطفون بلا اعوجاج ، كما يضطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، فى ذلة وصغار ^(٣) ولا ينطقون إلا همساً .
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

[هود]

والسبب فى صدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعوجاً ومائلاً ، وأن يُنْفَرُوا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويقسدون فى الأرض ؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى : يوم القيامة الذى يرون فيه هذه الأحوال والأحوال فيستجيبون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادرُوا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم . وقال قتادة : لا عوج له أى : لا يميلون عنه وخشعت : سكنت . [تفسير ابن كثير : ١٦٥ / ٣] .

(٢) خشعت الأصوات : خفتت وهذأت ، كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة . [القاموس القويم -

[١٩٤ / ١]

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضوع فى ذل ومهانة . [لسان العرب - مادة : صغر]

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى : برهنت على أنه ممتنع عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجز هؤلاء الذين أنكروا أن القرآن معجزة أن يأتى بآية من مثله .
والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه .

ويبيّن لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يُعجزون الله فى الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من أخذته الرياح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله ؛ لأنّ الولى هو القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قَرُبَ منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضح عليك من مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففى قوته سياج لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضح عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ، وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلق موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيّله وأفلت منه ، فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم ، فلن يقلّوا . وقال تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُولَئِكَ بِمُعْجِزِينَ فِي السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ وَمَا لَهُمْ فِي السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ مِنْ شَيْءٍ وَمَا يَكُونُونَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا فِي سَبْتٍ مُّضْمَرٍ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ عَنْ الْأَرْضِ كَأَنَّمَا كَانَتِ سُجُودًا يُسْجَدُ لِلَّذِي يُضْطَرُّ عَلَيْهِمْ كَفْرًا دُونَ ذَلِكَ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ غَنِياً ﴾ [النور] . [القاموس القويم - ٧/٢]

والولى هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك القريب منك .
وهؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لن يجدوا ولياً ولا نصيراً فى الآخرة -
وإن وجدوه فى الدنيا - لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ ^(١) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ^(٢) ﴾
[الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ ^(٣) عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ^(٢٣) ﴾
[لقمان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ^(٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ^(٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ^(٦) لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ^(٧) ﴾
[عس]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يعجزون الله فى الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. ^(٨) ﴾
[هود]

(١) تذهل : تغفل عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفرع . والذهول عن الشيء : تركه عن عمد أو الغفلة عنه ونسيانه لشغل . [لسان العرب - مادة : ذهل].

(٢) جاز : اسم فاعل من الفعل جزى . وجزى عنه : قضى الحق نيابة عنه أو كفى بدلاً منه فى أمر . وقال تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. ^(٤٨) ﴾ [البقرة].

أى : لا تغنى ولا تقضى . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ^(٣) ﴾ [لقمان] . أى : أن كلاً منهما غير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [القاموس القويم] بتصرف .

ونحن نفهم الضَّعْفَ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن في ذلك قوة ، ونقول : لا ؛ لأن الذي يأتي ليسند الشيء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف .

إذن : فالمُضَاعَفَةُ هي التي تظهر ضعف الشيء الذي يحتاج إلى ما يدعمه .

وَمُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ أمر منطقي لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٠) ﴾

[هود]

لا يتناقض مع قوله الحق :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. (١٦٤) ﴾

[الأنعام]

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وزران : وزر الضلال في ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم .

وهناك آية تقول :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفُ لَهُ

[الفرقان]

الْعَذَابُ .. (٦٩) ﴾

أى : أن مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَى مُضَاعَفَةً لِلْعَذَابِ .. لماذا ؟

(١) وزر الشيء يزره وزراً : حملة . ويأتي في الأحمال الثقيلة ، ويستعار للذنوب . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام] . أى : لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى . [القاموس القويم] .

(٢) ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً : أى : أن من يفعل تلك الذنوب والآثام ينل جزاء إثمه ويعاقب عليه . والإثم : فعل ما نهى الله تعالى عنه . [القاموس القويم] .

لأنه كان أسوة لغيره في أن يرتكب نفس الجرم.

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجرم لحظة العقاب ، مثلما يقول سبحانه في الزنا:

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففى ذلك تحذير من ارتكاب الجرم ، وحد من وقوع الجرائم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صدوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين :

أولاهما: ضلالهم .

والثانية: إضلالهم لغيرهم .

ولذلك نجد بعضاً من الذين أضلوا يقولون يوم القيامة :

﴿ .. رَبَّنَا أَرْنَا لِلَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

ويقولون أيضاً:

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا ^(٢) فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنَا كَبِيرَا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

(١) طائفة: جماعة أو فرقة من الناس . ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعى وقال ربيعة: خمسة . وقال الحسن البصرى: عشرة . انظر [ابن كثير (٢/٢٦٢)].

(٢) السادات والكبراء: قال طائوس: السادات هم أشرف القوم وعظماؤهم . والكبراء: هم العلماء . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٥١٩) وعزاه لابن أبى حاتم .

سُورَةُ هُودٍ

إذن: فالدعوة إلى الانحراف إضلال ، وعمل الشيء بالانحراف إضلال ؛ لأنه أسوة أمام الغير .

ومضاعفة العذاب لا تعنى الإحراق مرة واحدة فى النار ؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام ؛ ولذلك أراد الحق سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ ^(١) جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا

[النساء]

الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴿

فهو عذاب على الدوام .

أو أن العذاب الذى يضاعف له لون آخر ، فهناك عذاب للكفر ، وهناك عذاب للإفساد .

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾ [النحل]

فالعذاب على الكفر لا يلغى العذاب على المعاصى التى يرتكبها الكافر ^(٢) .

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصُّ للشاة الجلحاء منها ^(٣) ، أى : أن الشاة التى لها قرون وتنطح الشاة التى لا قرون لها ، فيوم القيامة يتم القصاص

(١) نضج اللحم : لينه وصلاحيته لأن يؤكل . والمراد : احترقت جلودهم .

(٢) لأنه لم يؤمن بالدين الذى يجب أن يؤمن به ، لهذا لم ينج من العذاب ، ويعذب أيضاً لمخالفته لمنهج الله إن كان مؤمناً برسول ، أو لم يؤمن بالرسول ولكن كان مخالفاً للفتنة .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة . والجلحاء : هى الشاة ذهب شعر مقدم رأسها ، وهى هنا بمنزلة الجماء التى لا قرن لها .

منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ^(١) وَمَا كَانُوا يَصْرُونَ ^(٢) ﴾ [هود]

أى : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى فى الكون ، فكأنهم صُمُّ عُمَى ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ^(١) .. ﴾ [مريم]

أى : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة فى الآخرة .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ^(٢) ﴾

(١) السمع : حس الأذن ، ويطلق على الأذن ، وعلى الأذان ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .. ﴾ [البقرة] أى : ختم على أذانهم فلا تسمع ، والمراد : أنهم يسمعون ولا يفهمون . [القاموس القويم] .

(٢) أسمع بهم وأبصر : فعل تعجب من «سمع» ومن «بصر» أى : ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله فى الدنيا ، ويسمع كل ما قاله فى لحظات ليشهد على نفسه . [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤١٣

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً أجلاً زمنه خالد .

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين .
وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك .

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً أجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢١) [هود]

أى : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ .. وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٧٤) [التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى بفرض قدرتهم على النصر ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ .. ﴾ (٢١) [هود]

أى : غاب وتاه عنهم .

(١) ضل الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق .
والضلال : النسيان والضياح ؛ وضل الشيء : خفى وغاب ، فهو فعل لازم .
وضل المسافر الطريق : لم يعرفه فهو مُتَعَدِّ [القاموس القويم - بتصرف]

[هود]

وقوله سبحانه: ﴿... مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ (٢١)﴾

أى: ما كانوا يدعون كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ (٢٢)﴾

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿لَا جْرَمَ﴾ ، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿لَا جْرَمَ﴾ أى: حق وثابت ، أو لا بد من حصول شىء محدد.

وحين يقول الحق سبحانه:

[النحل]

﴿لَا جْرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ... (٦٢)﴾

أى: حقّ وثبت أن لهم النار ؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك الأعمال مقدمة بين يدى عذابهم ، فحين نسمع ﴿لَا جْرَمَ﴾ ومعها العمل الذى ارتكبه ، تثق فى أنه يحق على الله - سبحانه - أن يعذبهم.

وقال بعض العلماء^(١): إن معنى ﴿لَا جْرَمَ﴾ حق وثبت.

وقال آخرون^(٢): إن معنى ﴿لَا جْرَمَ﴾ هو لا بد ولا مفر.

(١) لا جرم: لا محالة ولا بد ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا: حقاً. وهى هنا بمعنى «حقاً». وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:

الأول: سورة هود - آية ٢٢ وهى التى بصدد تفسيرها هنا.

الثانى: ﴿لَا جْرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾ [النحل].

الثالث: ﴿... لَا جْرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)﴾ [النحل].

الرابع: ﴿لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٤٥)﴾ [النحل].

الخامس: ﴿لَا جْرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ... (٤٦)﴾ [غافر].

(٢) قاله الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وسيبويه . فـ «لا» و«لا جرم» عندهما كلمة واحدة ، و«أن» عندهما فى

موضع رفع . وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد . انظر تفسير القرطبي (٤/٣٣٣٨).

(٣) قال المهدي: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة . وهو قول الفراء أيضاً . ذكره الثعلبي . انظر

تفسير القرطبي (٤/٣٣٣٨).

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البُدْيَةِ^(١) يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي «الجرم» ، والجرم: هو القطع^(٢) ، ويقال: جرم يده ، أى: قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (٢٢) [هود]

أى: لا قَطَعَ لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شىء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التقى المعنى بـ «لا بد» .

إذن: فساعة تسمع كلمة «لا جرم» ، أى: ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة «الجريمة» مأخوذة من «الجرم» ، وهى قطع ناموس مستقيم ، فحين نقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأى جريمة هى قَطَعَ للمألوف الذى يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال: جرم^(٣) الشىء أى: اكتسب شره ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال: من الناس من هو «جارم» وهى اسم فاعل من الفعل: «جرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«مجروم عليه» وهى اسم مفعول ، مثلها مثل «مكتوب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد فى النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة فى أن يعذبهم الله بالنار .

(١) البد: النصب من كل شىء . ولا بد منه : لا مفر . [المعجم الوسيط] .

(٢) الجريمة : ما قطع من البسر (التمر) . [المعجم الوسيط] .

(٣) جرم الشىء ، جرماً: قطعه وغلب على فعل الشر . يقال: جرم أذنب وجنى جناية ، وجرم المال: كسبه من أى وجه . وجرمه: حمله على فعل شر أو ذنب أو جرم . قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة] [٢٠] أى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هي مَنَعٌ للجريمة^(١) .

وهكذا تلتقى المعانى كلها ، فحين نقول : ﴿ لا جرم ﴾ فذلك يعنى أنه لا جريمة فى الجزاء ؛ لأن الجريمة هى الأثام العظيمة التى ارتكبوها .
ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

وقد سماها الحق سيئة ؛ لأنها تسيء إلى المجتمع ، أو تسيء إلى الفرد نفسه .
ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هناك معانى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿ لا جرم ﴾ ، فهى تعنى : لا قطع لقول الله فى أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ لا جرم أَنَّهُمْ فى الآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾ [هود]

وكلمة (الأخسر) جمع «أخسر»^(٢) وهى أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

(١) ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (٢١١/١) : « إذا علم القاتل أنه يُقتل انكف عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة للنفس . قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقتل » .

(٢) أخسر : صيغة أفعل التفضيل ، وتفيد المبالغة فى المعنى ، أى : أكثر وأشد خسارة . [راجع : لسان العرب - مادة : خسر]

والخسارة فى أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً^(١) لواحد ، كأن يشتري شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب فى الزيادة ، باع الشيء بما ينقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى «خاسر» ، والخسارة فى الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر فى صفقة قد يربح فى صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر فى كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهى فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ^(٢) بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ^(١٠٣) الَّذِينَ ^(٣) ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ^(١٠٤) ﴾ [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم :

﴿ .. أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ^(١٠٥) ﴾ [الزمر]

(١) الجحف والمجاحفة : أخذ الشيء واجترافه . والجحف : شدة الجرف . والإجحاف : الظلم الشديد . [انظر : لسان العرب : مادة جحف] .

(٢) أنبأ بالشيء ، ونبأ به : أخبره به وذكر له قصته . والنبأ : الخبر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات البال . والإنباء أيضاً : التحديث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنُنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ^(٥١) ﴾ [الحجر] . أى : حدثهم . [القاموس القويم ٢ / ٢٥٠]

(٣) الآية عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود ، فتجدهم يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَرَفَاهُ حَسْبَاهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ^(٣٤) ﴾ [النور] . [تفسير ابن كثير ٣ / ١٠٧] بتصرف .

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفي ذلك فيض من الإناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهذا التقابل يعطى بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ (٣)
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٢) ﴾

(١) الأبرار : جمع برّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان . والبار : هو الذي يبر والديه فيحسن إليهما . [لسان العرب - مادة : بزر] بتصرف .

(٢) الفجار : جمع فاجر ، وهو المنبعث في المعاصي ، غير مكترث ولا مبال ، وهو أيضاً من بالغ في العصيان وجهر به . [القاموس القويم ٧٣/٢] بتصرف .

(٣) أخبتوا إلى ربهم : تواضعوا وخشعوا وساروا في الطريق المستقيم المظتمن الواسع . وقال تعالى : ﴿ ... وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٢٤) ﴾ [الحج] . أى : الخاشعين . والخبث : المكان الواسع المظتمن من الأرض .

[القاموس القويم] .

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدي ^(١) ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ^(٢) وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾

[الحجرات]

أى : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتَيَقِّنٌ بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول ﷺ مُبَلِّغٌ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذي يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذي يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدي العمل بتكاسل واتباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذي يدعى الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يُمَكِّر ويبيِّت ^(٣) العداة للإسلام الذي لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتُمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبي ﷺ .

(١) قال ابن منظور في اللسان (مادة عقد) : «اعتقد كذا بقلبه ، وليس له معقود ، أى : عقد رأى . وفى الحديث : أن رجلاً كان يبايع وفى عقده ضعف ، أى : فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه» . فالإيمان أمر يعتقده القلب .

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذى لا يداخله شك بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسول مما لا يراه الناس ، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهرى بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن فى القلب إيمان . فالإيمان وحسنه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد .

(٣) بيَّت أمراً : دبَّره فى خفاء ، كأنه دبَّره فى الليل ليخفيه . يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْتِغُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨٨) ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ .. (٢٣) ﴾ [هود]

هذا القول يبيِّن لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال : رَبٌّ مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَانكساراً ، خير من عبادة أورثت عزاً واستكباراً .

أى : أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار ^(١) .

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى : خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى الأَّ يعاقبهم الله ، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله .

وأصل الكلمة من «الخبث» وهى الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة ، وكذلك الخبت فى الإيمان .

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم :

﴿ .. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أى : الملازمون لها ، وخلودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب ^(٢) ؛ لأن الإنسان فى الدنيا عرضة للأغيار ، أما فى الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً .

(١) الاستكبار : التعظيم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق ، وصيغة استفعل تشعر بتكلف وإدعاء الشئ ، فالمستكبر يدعى أو يظن فى نفسه أنه كبير .

(٢) السلب : هو سلب النعمة من الإنسان .

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين : الفريق الذي ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وابتغوا الأمر عوجاً ، هؤلاء لن يُعجزوا^(١) الله ، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف .

وهم الذين خسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التي عبدوها من دون الله ، ولا شيء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب ، وهم الأخسرون .

أما الفريق الثاني فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها .

إذن : فلكل فريق مسلكه وغايته .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٤)

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل .

وكلمة «الفريق» تعنى : جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد ، مثلما نقول : فريق كرة القدم أو غيره من الفرق ، فهى جماعات ، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها .

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ . . فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٧) ﴿ [الشورى]

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيئه ، وأفلت منه فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (٤٩) ﴿ [الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم فلن يفلتوا .

(٢) السعير : النار المشتعلة المتقدة المتوهجة . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴾ (١٦) ﴿ [التكوير] أى : أوقدت بشدة . ويراد بالسعير : نار جهنم . ويقول تعالى : ﴿ . . مَا رَأَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (٩٧) ﴿ [الإسراء] أى : زدناهم ناراً هائجة موقدة مشتعلة .

وكلمة ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسَيِّدَى الحواس الإدراكية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تتكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط ^(١) والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)

[النحل]

إذن : فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة ، هي المعلومات وتمحيصها ^(٢) ، فالحق سبحانه يستحق الشكر ^(٣) عليها .

ونحن نعلم أن الطفرات ^(٤) الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتي بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية .

(١) الاستنباط : استخراج الماء من باطن الأرض . ومن المجاز : استنبط الرأي الصحيح : استخراج به حبه وفكره كمن يستخرج ماء من البئر . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبْطِنُوهُ مِنْهُمْ ... ﴾ (٨٦) [النساء] .

(٢) تمحيص الشيء : اختباره وفحصه بدقة . [المعجم الوسيط] بتصرف .
وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٤٤) [آل عمران] . أى : يطهرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويقضى على الكافرين . وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴾ (١٥٤) [آل عمران] . أى : يطهر الإيمان الذى فى قلوبهم من الوسوس والشكوك . [القاموس القويم] .

(٣) الشكر : مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثنى على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه فى طاعته ويعتقد أنه موليتها .

(٤) طفرات : جمع طفرة ، وهى وثبة فى ارتفاع . وقد طفر يظفر : وثب فى ارتفاع . [انظر لسان العرب] .

ومثال ذلك : هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلى ،
فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيزاً أكبر
من حيز السائل الموجود في الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى
هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً
لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ

مَثَلًا .. (٢٤) ﴾ [هود]

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير
منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصير ، أو الأصم بمن يسمع .

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان
السامع أو القارىء لهذه الآية ، ليفصل بحكم يُذكره بالفارق بين الذى
يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعى
ألا يستويان .

لذلك ينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا :

﴿ .. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾

[الحج]

أى: أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله في التقاط مجاهيل الأشياء .
وبعد أن بيّن الحق سبحانه وَصَفَ كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما في الغاية ، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام .

ويقول الحق سبحانه فى بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول ، واللقطة التى توجد فى سورة قد تختلف عن اللقطة التى فى سورة أخرى .

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

والآية توضّح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى البلاغ ، فيقول :

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود]

ونحن نلاحظ أن همزة (إن) فى إحدى قرأتى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة ^(١) ، أما فى القراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

(١) نذير: الرسول المنذر بالعذاب . وأنذره: حذره ، وأنذره شيئاً: أعلمه إياه وعرفه به وبما يترتب عليه من ضرر فى مدة تكفى للتحفظ منه . أى: خوِّفه منه لئيتعد عنه . قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا .. ﴾ [النبا] وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا .. ﴾ [القمر] . وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحج] . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٨] بتصرف .

(٢) قراءة الفتح قرأها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٠) أى: أرسلناه بأنى لكم نذير مبين .

السلام قد جاء بالرسالة فبلغ قومه وقال :

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

وأما فى القراءة الأخرى بالفتح فتعنى أن الرسالة هى :

﴿ .. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

فكأن القراءة الأولى تعنى الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة : ﴿ .. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير فى القرآن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ ^(١) مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .. ﴿ (٢٤) [الرعد]

وهذا يعنى أن الملائكة يدخلون على المؤمنين فى الجنة من كل باب ^(١) ، وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .. ﴾ (٢٤) [الرعد]

(١) الضمير فى (عليهم) عائد على أولى الأبواب الذين وصفهم ربهم بصفات استحقوا بها دخول جنات عدن . قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٢٣) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يُقِضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٤) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢٥) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿ (٢٦) [الرعد].

(٢) للجنة أبواب ، عدها بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - ثم يقول : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر .

وقول نوح عليه السلام : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبي الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال في الآية التي قبلها :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ .. ﴾ (٢٤) [هود]

أى : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذي يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى : (١)

﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴾

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى . وكذلك نجد الحق سبحانه يُحَنِّنُ قلوب المرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴾ (٦٥) [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشهم أو يخدعهم .

(١) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة نوح - آية ٢٣ ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٣) [نوح] وهم أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا عمل الناس على هيتهم أصناماً تذكرهم بأعمالهم ، ثم تقادم الزمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله . [انظر : تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٦]

واستقبل الملائ من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَبُّكَ إِلَّا بَشَرًا
مِثْلُنَا وَمَا نَرَبُّكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا
الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾^(١)

﴿٢٧﴾

والملائ - كما نعلم - هم وجوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيون مهابة ، ويتصدرون أى مجلس

وهناك مثل شعبي فى بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول: «فلان يملأ العين» .

أى: أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة ، فلا جزء فى العين يرى غيره .
ويقال أيضاً : «فلان قيّد النواظر» أى: أنه إذا ظهر تقيّدت به كل النواظر ، فلا تلتفت إلى سواه ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه .

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التى حول المركز ، فحوّل كل مركز هناك دوائر ، والملائ هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من مركز ، فتشتت الدوائر .

وردّ الذين يكوّنون الملائ على سيدنا نوح قائلين :

(١) الملائ: أشرف القوم أو جميعهم .

(٢) الذين هم أرادنا: أى : أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا .

بادئ الرأى : ظاهره الذى لا روية فيه ، أى : رأى سطحى غير متعمق .

وقرىء «بادئ الرأى» : أى : بدء الرأى وأوله من غير روية أيضاً [القاموس القويم] .

[هود]

﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا .. (٢٧) ﴾

أى: أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سودك^(١) علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ الملاك^(٢) أسوة لهم .

ولذلك بين الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا

رَسُولًا (٩٤) ﴾ [الإسراء]

وجاء الرد منه سبحانه بأن قل لهم :

﴿ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ

مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

إذن: فالرسول إنما يجيء مبلّغ منهج وأسوة^(٣) سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

(١) سودك علينا: جعل لك السيادة والرياسة علينا فتأمرنا وتنهانا .

(٢) إذ كيف يتخذون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم . وله أحكام وقدرات تختلف عن قدراتهم ، فلا يصلح الاحتجاج بأفعال الملائكة على غيرهم من الأجناس . ولذلك عندما قال مشركو مكة: ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ قيل لهم: ﴿ وَلَوْلَا أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقَضَىٰ الْأَمْرَ لَمْ لَا يَنْظُرُونَ (٨) ﴾ ولولا جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ﴾ [الأنعام] . [بتصرف من تفسير ابن كثير ١٢٤/٢]

(٣) الأسوة: القدوة . والمراد بها هنا: القدوة الحسنة التى ينبغى على الجميع الاقتداء بها . قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] .

ومثال ذلك : أنت حين ترى الأسد في أى حديقة من حدائق الحيوان ، يصول ويجول ، ويأكل اللحم النيء المقدم له من الحارس ، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله؟ .. طبعاً لا ، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ، فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله .

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس ؛ ولذلك قلنا : إن الأسوة هي الدليل على إبطال من يدعى الألوهية لعزير^(١) أو لعيسى عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملائكة الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا .. (٢٧) ﴾ [هود]

والأراذل^(٢) جمع «أرذل» ، مثل قولنا : «أفاضل قوم» ، وهي جمع «أفضل» .

والأرذل هو الخسيس الدنيء في أعين الناس . ورذال المال أى : رديته . ورذال كل شيء هو نفايته .

ونرى في الريف أثناء مواسم جمع «القطن» عملية «فرز» القطن ، يقوم بها صغار البنين والبنات ، يفصلون القطن النظيف ، عن اللوز الذى لم يتفتح

(١) عزير : هو رجل صالح من بنى إسرائيل جعله اليهود ابناً لله وعبده لعلمه بالثبوت وحفظه لها كما فى الكتب حرفاً بحرف [القاموس القويم ١٨ / ٢] ، و [تفسير ابن كثير ٣٤٨ / ٢] ، وهو الذى ورد ذكره فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة] .

(٢) رَذُلُ الشَّيْءِ ، رَذَالَةٌ وَرَذُلَةٌ : صَارَ خَسِيسًا رَدِيئًا ، فَهُوَ رَذُلٌ .

والأرذل : اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة . وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ .. (٧٠) ﴾ [النحل] أى : إلى الهرم والعجز . وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَنْزَلْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء] ، أى : أخس الناس ، فى نظرنا . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا .. (٢٧) ﴾ [هود] . أى : أفرقنا وأحقر الناس فى نظرنا . [القاموس القويم] .

بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعاني من ضمور ، ولم تنضج
النضج الصحيح .

وكذلك يفعل الفلاحون في موسم جمع «البلح» ، فيفصلون البلح الجيد
عن البلح المعيب .

إذن : فردال كل شيء هو نفايته .

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا... ﴾ (٢٧)

[هود]

أى : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع .
وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم في موضع آخر :

﴿ .. وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ (١١١)

[الشعراء]

ولم يَنْفُ نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من
الضعاف ، وهم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى في المجتمع لا يقربه أحد ؛
ولذلك فإنه لا يعاني من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من
المفسدين ؛ فما إن يظهر المُخَلَّص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به .

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن
البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل : أبى بكر
الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن
عوف ، رضى الله عنهم .

ولكن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ،
هؤلاء الذين يشعرون بالغليان في مراجل^(١) الألم بسبب الفساد ، وما إن

(١) المراجل : جمع مرجل ، وهو كل ما طبخ فيه من قدر وغيرها . وقيل : هو القدر المصنوع من النحاس
خاصة . [انظر : اللسان ، مادة : ر جل] .

يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد ، فيلتفون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالغير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسادة ؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب .

إذن : فكل رسول يأتي إنما يأتي في زمن فساد ، وهذا الفساد يتتبع به بعض الناس ؛ وطغيان يعانى منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان .

ويأتي الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد ؛ لذلك يتمسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلتف قلوبهم حوله .

أما المنتفعون بالفساد فيقولون : إن أتباعك هم أراذلنا . وكأن هذا القول طعن في الرسول ، لكنهم أغبياء ؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجيء الرسول ؛ ليخلص هؤلاء الضعاف ، ويجيء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض ، ولينهى هذا الفساد .

وهي غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادي من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد .

لكن آفة^(١) الثائر من البشر شيء واحد ، هي أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبنى الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضل قوماً على قوم ، ولا يدلل من طغى عليهم ، ويظلم من طغوا .

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة ؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم ؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه .

(١) آفة الشيء : الخطأ الذي فيه ، أو نقصه ، أو عيبه . [راجع : لسان العرب - مادة أوف]

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملاء قوم نوح :

[هود]

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٢٧)

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ .. ﴾ (٢٧)

والبادي هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى^(١) هي ﴿ بَادِيءَ الرَّأْيِ .. ﴾

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

[هود]

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ .. ﴾ (٢٧)

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلقَى إلى الإنسان أي شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بامعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتروٍّ وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقبوا دعوتك وتأملوها ونظروا في عواقبها بتدبرٍ لما آمنوا بها .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٣٤٢) : «يجوز أن يكون «بادي الرأي» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقق أبو عمرو الهمزة فقراً «باديء الرأي» أي أول الرأي ، أي : اتبعوك حين ابتداءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ، ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز» .

ويكشف الحق سبحانه هذا الغباء فيهم ، فقول الملائة بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا في دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذي تعقل وتبصر ، وباللسان الذي أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه: قلبه ولسانه^(١) .

إذن : فهذا الملائة الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعفاء أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرين ، فهم الذين يقدمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهي عن طهي الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعفاء تصب عند الغنى أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعفاء الذين يعطون الخير من كدهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تمة السيادة .

(١) هذا من أمثال العرب : المرء بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور في لسان العرب : «معناه : أن المرء يعلو الأمور ، ويضبطها بجنانته ولسانه» .

وحين نمن النظر لوجدنا أن سيادة الثرى أو صاحب الجاه إنما تأتي نتيجة لمجهودات من يقال عنهم: إنهم أراذل.

ولو أنهم تخلّوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً. ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملائكة الكافر من قوم نوح:

﴿.. وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [هود]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس .

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التي تتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون :

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهَمْ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢)﴾ [الزخرف]

إذن : فالحق سبحانه هو الذي قسم المعيشة ، وآفة الحكم أن ينظر إلى المرفوع على أنه الغنى ، لا ، فليس المرفوع هو الغنى ، بل هو كل ذي موهبة ليست في سواه .

وما دام مرفوعاً في مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفِعوا فيه ؛ لأن المسألة أساسها التكامل .

(١) المقصود بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء في المقصود بالرجلين ، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف ، ثم قال : «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلديتين كان» تفسير ابن كثير (٤/١٢٧) .
(٢) سُخْرِيًّا : أى : يُسَخَّرُ بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا . قاله السدي وغيره . (تفسير ابن كثير (٤/١٢٧) ونقل ابن منظور في اللسان : «سُخْرِيًّا : عبيداً وإماء وأجراء» .
راجعته على الأصل وخُرج أحاديثه صاحب الفضيلة الشيخ / محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأسناد / عادل أبو المعاطي .

فهرس آيات المجلد العاشر

الصفحة	سورة يونس	الصفحة	سورة يونس	الصفحة	سورة يونس
٥٩٩٨	الآية : ٥٧	٥٩٢٨	الآية : ٣٦	٥٧٩٦	الآية : ١٥
٦٠٠٤	الآية : ٥٨	٥٩٣٠	الآية : ٣٧	٥٨٠٤	الآية : ١٦
٦٠٠٥	الآية : ٥٩	٥٩٣٧	الآية : ٣٨	٥٨١٠	الآية : ١٧
٦٠١٠	الآية : ٦٠	٥٩٤١	الآية : ٣٩	٥٨١٣	الآية : ١٨
٦٠١١	الآية : ٦١	٥٩٤٧	الآية : ٤٠	٥٨١٩	الآية : ١٩
٦٠٢٣	الآية : ٦٢	٥٩٥١	الآية : ٤١	٥٨٣٠	الآية : ٢٠
٦٠٣٥	الآية : ٦٣	٥٩٥٣	الآية : ٤٢	٥٨٣٥	الآية : ٢١
٦٠٣٨	الآية : ٦٤	٥٩٥٤	الآية : ٤٣	٥٨٤٢	الآية : ٢٢
٦٠٤٢	الآية : ٦٥	٥٩٥٦	الآية : ٤٤	٥٨٥٣	الآية : ٢٣
٦٠٤٧	الآية : ٦٦	٥٩٦٣	الآية : ٤٥	٥٨٥٨	الآية : ٢٤
٦٠٥٦	الآية : ٦٧	٥٩٧٠	الآية : ٤٦	٥٨٦٩	الآية : ٢٥
٦٠٦٩	الآية : ٦٨	٥٩٧١	الآية : ٤٧	٥٨٧٣	الآية : ٢٦
٦٠٧٨	الآية : ٦٩	٥٩٧٥	الآية : ٤٨	٥٨٧٦	الآية : ٢٧
٦٠٨٢	الآية : ٧٠	٥٩٧٦	الآية : ٤٩	٥٨٧٨	الآية : ٢٨
٦٠٨٥	الآية : ٧١	٥٩٨٠	الآية : ٥٠	٥٨٨٦	الآية : ٢٩
٦١٠١	الآية : ٧٢	٥٩٨٢	الآية : ٥١	٥٨٩٨	الآية : ٣٠
٦١٠٧	الآية : ٧٣	٥٩٨٣	الآية : ٥٢	٥٩٠٤	الآية : ٣١
٦١١٥	الآية : ٧٤	٥٩٨٤	الآية : ٥٣	٥٩١٤	الآية : ٣٢
٦١٢٢	الآية : ٧٥	٥٩٨٨	الآية : ٥٤	٥٩١٥	الآية : ٣٣
٦١٢٦	الآية : ٧٦	٥٩٩٢	الآية : ٥٥	٥٩١٧	الآية : ٣٤
٦١٣٠	الآية : ٧٧	٥٩٩٧	الآية : ٥٦	٥٩٢١	الآية : ٣٥

الصفحة	سورة هود	الصفحة	سورة يونس	الصفحة	سورة يونس
٦٣٥١	الآية : ١٠	٦٢١٩	الآية : ٩٩	٦١٣٥	الآية : ٧٨
٦٣٥٥	الآية : ١١	٦٢٢٤	الآية : ١٠٠	٦١٤٢	الآية : ٧٩
٦٣٦٣	الآية : ١٢	٦٢٣٤	الآية : ١٠١	٦١٤٢	الآية : ٨٠
٦٣٧١	الآية : ١٣	٦٢٤١	الآية : ١٠٢	٦١٤٥	الآية : ٨١
٦٣٧٦	الآية : ١٤	٦٢٤٤	الآية : ١٠٣	٦١٤٦	الآية : ٨٢
٦٣٨١	الآية : ١٥	٦٢٤٥	الآية : ١٠٤	٦١٤٧	الآية : ٨٣
٦٣٨٨	الآية : ١٦	٦٢٤٩	الآية : ١٠٥	٦١٥١	الآية : ٨٤
٦٣٨٩	الآية : ١٧	٦٢٥١	الآية : ١٠٦	٦١٥٤	الآية : ٨٥
٦٣٩٨	الآية : ١٨	٦٢٥٢	الآية : ١٠٧	٦١٥٦	الآية : ٨٦
٦٤٠٣	الآية : ١٩	٦٢٥٦	الآية : ١٠٨	٦١٥٨	الآية : ٨٧
٦٤٠٧	الآية : ٢٠	٦٢٦١	الآية : ١٠٩	٦١٦٥	الآية : ٨٨
٦٤١٢	الآية : ٢١	الصفحة	سورة هود	٦١٧٣	الآية : ٨٩
٦٤١٤	الآية : ٢٢	٦٢٨٥	الآية : ١	٦١٧٨	الآية : ٩٠
٦٤١٨	الآية : ٢٣	٦٢٩٨	الآية : ٢	٦١٨٢	الآية : ٩١
٦٤٢١	الآية : ٢٤	٦٣٠٧	الآية : ٣	٦١٨٣	الآية : ٩٢
٦٤٢٤	الآية : ٢٥	٦٣١٤	الآية : ٤	٦١٨٩	الآية : ٩٣
٦٤٢٦	الآية : ٢٦	٦٣١٥	الآية : ٥	٦١٩٧	الآية : ٩٤
٦٤٢٧	الآية : ٢٧	٦٣٢٠	الآية : ٦	٦٢٠١	الآية : ٩٥
		٦٣٢٥	الآية : ٧	٦٢٠٥	الآية : ٩٦
		٦٣٣١	الآية : ٨	٦٢٠٧	الآية : ٩٧
		٦٣٤٥	الآية : ٩	٦٢١١	الآية : ٩٨